الحضارة العربية في المشرق في عهد السلاجقة
(٤٤٧هـ - ٥٦٧هـ/ ١٠٥٥م - ١١٧١م)
بالاستناد الى سير الرجال في ذلك العهد بصفة خاصة

عبدالله محمد أبو عزة

أطروحة مقدمة الى دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت
لاتمام المطلوب للحصول على درجة استاذ في الاداب
بيروت - لبنان
أيار ١٩٦٩

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Arab Culture in the East Under the Saljuks
(447A.H./1055A.D. - 567A.H./1171A.D.)
with Special Reference to the Personalities
of the Period

By

Abdallah Abu Izzah

(Name of Student)

Approved:

C.K. Zurayk
Advisor

K.S. Salibi
Member of Committee

M. Zayid
Member of Committee

N.A. Ziadeh
Member of Committee

Date of Thesis Presentation: 26.5.1969.

الحضارة العربية في المشرق في عهد السلاجقة
(٤٤٧هـ ـ ٥٦٧هـ/ ١٠٥٥م ـ ١١٧١م)
بالاستناد الى سير الرجال في ذلك العهد بصفة خاصة

عبدالله محمد أبوعزة

أطروحة مقدمة الى دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت
لاتمام المطلوب للحصول على درجة استاذ في الاداب
بيروت ـ لبنان
أيار ١٩٦٩

November 4, 1968

NOTICE TO GRADUATE STUDENTS

The Board of Graduate Studies in its meeting on November 1,1968, decided that all graduate students must include the following "Thesis Release Form" to appear on a separate page of each thesis:

"THESIS RELEASE FORM"
American University of Beirut

I, Abdallah Mohammad Abu Izzah:

[✓] authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

[ ] do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

A. Abu Izzah
Signature

26.5.1969.
Date

Emile Rubeiz
Assistant Registrar

خلاصة

غرضنا في هذه الدراسة هو محاولة استجلاء أوضاع الحضارة العربية في العهد السلجوقي . ومن أهم مظاهر الحضارة ، في رأينا :

١ـ أساليب تنظيم المجتمع لشئونه الادارية .

٢ـ الافكار الاساسية التي تعتنقها جمهرة الناس ، وجهود المعاصرين في ميدان اكتساب العلم ونشره ، ومقدار المنجزات الفكرية والادبية ومستواها النوعي .

٣ـ العلاقات الاجتماعية ، ومدى تماسك وتعاون الافراد والجماعات في سبيل الخير العام .

٤ـ الاحوال الاقتصادية ، خاصة في حقول الزراعة والتجارة والصناعة .

٥ـ مقدار ومستوى المنجزات الفنية التي انتجتها الحضارة المعنية ، وما تنطوي عليه هذه المنجزات من قيم جمالية .

ولقد حاولت ان استجلي الواقع الحضاري لهذه الفترة من سير رجالها ، بيد ان نقص المعلومات التي عثرت عليها ، بالنسبة للحياة الاقتصادية والحياة الفنية خاصة ، جعل من الضروري ان استعين بمصادر أخرى .

وصلت جموع السلاجقة الى بغداد قبيل منتصف القرن الخامس الهجري باسم انقاذ الخلافة السنية . وما لبث سلاطينهم ان فرضوا سيطرتهم على العراق والجزيرة وبلاد الشام . ومنذئذ أصبحت أوضاع الحكم والادارة على النحو التالي :

١ـ الخليفة العباسي في بغداد هو رأس الخلافة والسلطنة والامة جميعا ، وذلك من الناحية النظرية .

٢ـ السلطان السلجوقي رأس السلطنة ، والمسيطر الفعلي على الدولة والخلافة جميعا ، بالرغم من ان حكمه وممارسته لسلطاته كان يعتبر ـ من الناحية النظرية ـ تولية وتفويضا من الخليفة .

وظلت أوضاع السلطنة مستقرة ، كما ظلت الخلافة خاضعة للسلاجقة حتى وفاة

السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ واذ ذاك انفجر الصراع بين أبناء الاسرة السلجوقية وأتباعهم ، للاستئثار بمنصب السلطنة ، وبدأت الخلافة تعمل على استرداد شيء من نفوذها وهيبتها ، وبذلك صارت تدخل طرفا في النزاعات ، من حين لآخر . وظل الصراع شبه مستمر بين المعسكرات السلجوقية المتعاركة الى ما بعد نهاية الفترة التي ندرسها . وقد استطاعت الخلافة ان تتحرر من نفوذ السلاجقة نهائيا بعيد وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ ، وصارت لها السلطة والتفوق في العراق .

وقد تمثلت المؤسسات الادارية في العهد السلجوقي ـ فضلا عن منصبي الخلافة والسلطنة ـ في ولاية الاقاليم والوزارة والقضاء ، وفي الادارة المالية ، ونظام البريد ، ووظائف الشحنة ، والعميد ، والطغرائي ، والمحتسب ، ووظائف أخرى أقل أهمية .

وفي أثناء فترة الاضطراب الذى خيم على السلطنة السلجوقية استطاع كثيرون من ولاة الاقاليم الاستقلال عن السلطنة ، وظهرت عدة قوى اقليمية ، كان أهمها الدويلات الاتابكية الزنكية .

وقد استطاع الزنكيون ان يساهموا بدور كبير في مكافحة الصليبيين الغزاة ، الذين سهل عليهم ضعف السلطنة السلجوقية اجتياح أجزاء من البلاد الشامية ، وتأسيس بضع دويلات صليبية على أراضيها .

وقد غلب الطابع الديني على الحياة العقلية ، وانشغل المفكرون بأمور نظرية شكلية دار حولها صراع عنيف ، وانقسم الناس حيالها مذاهب وفرق ، بينما لم تلق المشاكل التي حطمت الكيان العام عناية تذكر .

ومع ذلك فقد شهد هذا العصر نشاطا علميا واسعا ، وحركة تعليمية كان أبرز مظاهرها انتشار المدارس في معظم مدن المنطقة العربية السلجوقية .

أما في ميدان الحياة الاجتماعية فكان الحكام ، ومن يدورون في فلكهم ، هم الطبقة ذات الجاه والثراء والنفوذ ، يليهم كبار رجال الدين . بينما عاش عامة الناس في بؤس ، في أكثر الاوقات ، وعانوا من الظلم والحرمان . وبرزت في الحياة الاجتماعية ظاهرة تفكك المجتمع ، وضاق نطاق الشعور بوحدة الامة ، فكان في غاية الضعف.

ولقيت الحياة الاقتصادية قدرا من العناية من جانب الحكام ، فشهدت انتعاشا جديرا بالتنويه . هذا بالرغم مما تعرضت له الزراعة والتجارة من معوقات وتخريب في بعض الاحيان .

كذلك شهد العصر السلجوقي نهضة في كثير من نواحي الفنون ، كفن العمارة ، والنحت على الحجر والجص ، والحفر على الخشب وزخرفته ، وزخرفة الخزف والفخار ، وصناعة التحف المعدنية ، وزخرفة المنسوجات ، والتأنق في زخرفة الخط العربي .

ورغم منجزات هذه الحضارة ، المتمثلة في انتشار المدارس ، وضخامة عدد المؤلفات التي خلفتها لنا ، وتقدير المعاصرين للعلم ، وما بذل من جهد في سبيل اصلاح الرى ، واقامة خزانات المياه على طرق القوافل ، وما بذله الاتابكة في سبيل رد الغزو الخارجي ، فان الحضارة العربية في العهد السلجوقي كانت في حالة تقهقر .

المحتويات

مقدمة

مقدمـــــة

تناولت فى هذه الدراسة الحضارة العربية فى المشرق فى عهد السلاجقـة ، فحددت اطارها المكاني بالبلاد العربية التى خضعت للحكم السلجوقي ، وهي العراق وبلاد الجزيرة وبلاد الشام . اما الحدود الزمنيـة فقد جعلت بدأها من دخول السلاجـقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ،حيث غدوا اعظم قوة سـياسـية وعسكرية فى حياة الخلافة العباسية وحياة المنطقـة العربية المشرقيـه ، وجعلت نهايتها عند ظهور صلاح الدين الايوبي ،واعادته مصر الى احضـان الخلافة العباسـية ، سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ م ، وتاسيسه الدولة الايوبيـة التى اصبحت فى عهده اهم قوة عسكرية وسياسية فى المنطقـة العربية المشـرقية .

والواقع ان الذى يروم دراسة التاريخ الحضارى ينبغي ان يضع فى حسبانه ان طريقـة بالغ الصعوبة ، عظيم الوعورة ،ذلك ان المؤرخين من اسلافنا وجهوا عنايتهم — فى الغالب — لتدوين اخبار الحكام ،والاحـداث السياسية التى يصنعها هؤلاء الحكام او يشاركون فى صنعـها . اما النواحي الحضارية فلا تاتي فى كتاباتهم الا بطريـقة عرضيـة عفويـة . واذا ما سجـل احد مؤرخينا القدامي احكاما عامة على بعض جوانب الحياة الحضارية ، فان احكامه غالبا ما تتسم بالتعميم المفـرط الذى يضلل الباحث ان سـارع الى تبنيـه . لذلك فان دراسـة حضارية كهذه لابد ان تعتمد علـى عمليه استقراء واسعة ،تستخلص منها صورة الحضارة كما كانت فى عالم الواقـــع .

ولقد عولت فى المرحـلة الاولى من قيامي بهذه الدراسـة على محاولة جمع المعلومـات اللازمة من سـير الرجال ، باعتبار ان نشـاط الرجال مظهر عام من مظاهر الحضارة ،وفى سيرهم تتلخص الافكار والقيم التى تمثلها . وعلى ذلك وجهت همتي نحو رحلة طويلة خلال كتب التراجم ،وما دخـل فى معناها . وحرصا على استجلاء الواقع اردت ان اعتمد على سـير الرجال الذين عاشوا فى هـذه الفترة بالذات ،فاهملت الذين توفوا فى اوائلها ولم اعتبر منهم سوى من عاش فيها عشر سنوات علـى الاقل . ومن ناحية اخرى تركت سـير اولئك الذين توفوا بعد نهاية فترتنا باكـثر من عشرين سـنة . على هذا الاساس بدات بحـثي فى سـير رجال النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى والثلاثـة ارباع الاول من القرن السـادس .

وكانت اول الصعوبات التى جوبهت بها عدم معرفة تواريخ وفاة الكثـيرين من الاعيـان

المترجمين ،اذ ان مصنفي كتب الرجال ،مع اهتمام اكثرهم بذكر تاريخ الوفاة ،كثيرا ما يغفلون هذه الناحية ، لجهلهم بسنة وفاة المترجم ، كما ان بعضهم لا يهتم بذكر سنة الوفاة اصلا . والذى نتج عن هذا الوضع انني لم استطع الاستفادة من سير عدد كبير من الرجال ، لانني لا استطيع نسبتهم الى العصر السلجوقي دون سند .

وقد حاولت التغلب على هذه العقبة بالاعتماد على الشواهد الباطنية ،اى ورود ذكر شخص معروف ،او حادث مشهور كان المترجم له على صلة به ، كأن يذكر ،مثلا ،انه اتصل باحد الخلفاء او الامراء ، او اخذ العلم عن احد المشاهير ،الى غير ذلك . بيد ان هذا وان اسعفني فى تعيين الازمنة التى عاش فيها بعض المترجمين فانه لم يمكني معرفة ذلك بالنسبة للاكثرين . وحين كنت اعرف ان للمترجم مصنفات كنت الجأ الى فهارس المصنفين ، كما لجأت كتاب الاعلام للزركلي . ورغم كل هذا فلم استطع التحقق الا من زمن حياة عدد قليل من الكثرة التى لم تذكر تواريخ وفياتها .

وبدا لي ان اجعل لكل واحد من الاعيان المترجمين بطاقة خاصة ابين فيها اختصاصاته والكتب التى الفها ،ان كان من اهل العلم والبلاد التى عاش فيها او رحل اليها ،ظنا مني بانني ساتمكن ، عن طريق هذه البطاقات ،من عمل جدول احصائي للعلماء ومصنفاتهم ،اجد فيه نسب المختصين ونسب المؤلفات فى كل فرع من فروع المعرفة . وقد توقعت الا يزيد عدد البطاقات عن اربعمائة بطاقة ،مثلا ،غير انني كففت عن المحاولة بعد ان تبين لي انها لن تصل بي الى نتيجة صحيحة ، ولو بشكل تقريبي ،وذلك لسببين : اولهما ان عدد المجاهيل ، اى الذين لم اعرف العصر الذى عاشوا فيه ، كان كبيرا ،وهذا يعني ان كثيرا من اعيان العصر السلجوقي سيظلون خارج احصائنا . وثانيهما يتعلق بالمؤلفات ، ففي بعض الاحيان يذكر المترجمون عدد مصنفات المترجم له واسماءها ومواضيعها ،واحيانا يقولون ان له مصنفات كثيرة ،ويذكرون واحدا منها او اثنين ويغفلون البقية ،وحينا آخر يقولون ان للمترجم مئات المصنفات ،فى فنون شتى ،دون ان يذكروا عددها او مواضيعها او اسم اى منها .

كل ذلك جعل الحديث عن عمل احصائيات دقيقة ضربا من الخيال . ولقد حذرت من ان اذكر ارقاما تعتمد على احصاء مشوب بهذا النقص الفادح ،لانها تعطي انطباعا بعيدا عن الواقع رغم ان عدد البطاقات التى هيأتها بلغ الفا ومئة بطاقة . وقد توقفت عن عمل مزيد من البطاقات عند ما وصلت الى هذه القناعة .

اما عن المادة التى عثرت عليها فى كتب التراجم فقد كانت وفيرة من حيث كميتها ،غير انها كانت محدودة التنوع ، ذلك انني لم اجد معلومات كافية فيما يتعلق ببعض مواضيع هذا البحث وكانت المعلومات عن مواضيع التجارة والزراعة والصناعة والفنون من القلة لدرجة لاتمكن من كتابة صفحة واحدة عن الموضوع . والسبب في ذلك ان معظم مصنفي كتب الرجال ركزوا اهتمامهم على نواحي تخصص الاشخاص الذين يترجمون لهم ، وكان اهتمامهم بالسياسة وعلوم الدين والادب يستغرق القسم الاكبر مما كتبوا . فالذى يترجم للمحدثين يهتم بذكر ان المترجم له روى عن فلان وفلان ... الخ ، وروى عنه فلان وفلان .. الخ . والذى يترجم للشعراء نادرا ما يهتم بغير الشعر . وهذا القول ، ينطبق ،بنسبة او اخرى ، على معظم كتب التراجم .

ولقد ترددت فى العدول عن فكرة الاعتماد على كتب التراجم دون غيرها ،بيد ان تيقني من تعذر الحصول على المعلومات الكافية من هذه المصادر قطع ذلك التردد ، فحزمت امرى على اللجوء الى كتب التاريخ العامة ، وغيرها مما يتعلق بموضوع هذا البحث .

ورغم حرصي الشديد على الاستناد الى الوقائع التى جرت ضمن حدود العهد السلجوقي فقد اضطررت ،فيما يتعلق بالزراعة والصناعة ، الى الرجوع الى بعض مصنفات القرن الرابع الهجري بيد انني فعلت ذلك فى حدود الضرورة ،ولم ابن على تلك المعلومات المتقدمة زمنيا احكاما قطعية

اما مايتعلق بموضوع الفنون فلم اجد فى المصادر سوى مادة ضئيلة ، فلم اجد غضاضة فى الاستناد الى بعض المراجع الحديثة المتخصصة ، وذلك لسببين :

١ــ ان هذه المراجع تصف وتستند الى مخلفات اثرية محفوظة فى المتاحف ، لااستطيع الوصول اليها . وهذه المخلفات من انتاج العصر السلجوقي نفسه ،وهي ،بهذا الاعتبار ،وثائق مادية بالغة الاهمية .

٢ــ ان كاتب هذه السطور يفتقر الى قدرة ذوى الاختصاص فى نقد الاعمال الفنية .

وساتحدث الان بشيء من التفصيل عن اهم المصادر التى اعتمدت عليها . وساتناول المؤلف ،باعتبار انه هو المصدر ،فابين الفرص التى توفرت له حتى اعطى صفة كونه مصدرا . ومن هذه

الفرص مشاهدته المباشرة للاحداث ومعاصرته لها ،او قربه ممن شاهدوها ،وسعه علمه ،واتصالاته واسفاره ، ومدى حياده او تحيزه ،ومقدار دقته او غلويته ، ومدى اهميته بالنسبة لبحثنا .

والواقع ان تحديد مدى استفادة الباحث من بعض كتب التراجم ربما يفصح عنه بعبارات عامة ،ذلك لان بعض هذه الكتب استفدت منها فائدة قليلة من حيث كميتها ، لكنها موزعة في اكثر الفصول . فقد اكون استندت الى احد المصادر في عشر نقاط فقط ،في هذا البحث كله ،لكن هذه النقاط العشرة لاتجتمع منها اثنتان في موضوع واحد . ففي مثل هذه الحالة ساكون مضطرا للتعبير عن مقدار الاستفادة بعبارة : وقد استفدت من هذا المصدر استفادة محدودة ،مثلا . غير انني ساحرص على بيان مقدار الاعتماد على المصادر وبيان الفصول التي كان للمصدر اهمية في صياغتها كلما كان ذلك ممكنا .

وتنقسم المصادر التي اعتمدنا عليها الى بضعة انواع ، اهمها كتب التراجم ،ثم كتب التاريخ العامة ،وكتب تاريخ بعض المدن ، وبعض كتب الرحلات ،وعددا من الكتب التي تبحث في العقائد .

اولا : كتب التراجم :

ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد (٦٠٨ هـ/١٢١١م — ٦٨١هـ/١٢٨٢م)
كان والد ابن خلكان مدرسا في اربيل ،وقد تلقى احمد العلم عن والده . ثم انتقل شمس الدين الى حلب ،وتوجه بعد اربع سنوات الى القاهرة والاسكندرية . وبعد عودته الى دمشق شغل منصب قاضي القضاة . وحين عزل من منصبه عاد الى القاهرة ،واشتغل بالتدريس في المدرسة الفخرية وخلال سبع سنوات من عمله هذا استطاع ان يؤلف كتابه الشهير . وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ولا تعود اهمية هذا المؤلف الى دقة مصنفة ونقده للروايات وسعة اطلاعه فحسب ،بل ولانه لم يحصر نفسه في تراجم صنف معين من اهل الاختصاص ،بل تناول ملوكا وامراء وقضاة وفقهاء ، وشعراء واطباء وفلاسفة ومتصوفة وخطاطين وغير ذلك ، وقد استفدت من هذا المصدر في اكثر فصول هذا البحث خاصة الفصل المتعلق بنظم الحكم والادارة ،وموضوع الحياة الاجتماعية ،والحياة العقلية .

ابن عساكر ،ابو القاسم على بن الحسن (٤٩٩ هـ/١١٠٦م—٥٧١هـ /١١٧٥ م) .
كان ابن عساكر محدث الشام في عصره ،ومن اعيان فقهاء المذهب الشافعي . وقد طوف البلاد في

طلب الحديث ، وكان على صلة ببعض أكابر اهل العلم ، كالسمعاني ، الذى رافقه في أسفاره . وقد نسب الى ابن عساكر عدد من المصنفات يهمنا منها كتابه التاريخ الكبير ، الذى ألفه على نسق كتاب تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى ، وكتاب ابن عساكر كتاب تراجم بالدرجة الاولى ، باستثناء الجزء الاول منه . ففي الجزء الاول يصف مساجد دمشق ومدارسها ومشاهدها ودروبها وأقنيتها وغير ذلك . وقد استفدنا منه في هذه الناحية ، في الفصل المتعلق بالحياة العقلية . أما بقية الاجزاء فتورد تراجم أعيان الدمشقيين ، او الذين دخلوا دمشق . ورغم اهتمام ابن عساكر بالمحدثين بالدرجة الاولى ، الا انه يترجم لغير المحدثين من رجال الحكم والعلم والادب . وأهمية ابن عساكر لموضوعنا ، فوق علمه بطرائق نقد الحديث التي ساعدته على نقد الروايات التاريخية ، انه عاش كل حياته تقريبا ، في العصر السلجوقي . ورغم ان تراجمه قصيرة ، في الغالب ، الا اننا استفدنا منه في كثير من فصول هذا البحث .

ياقوت الحموى الرومي (٥٧٥ هـ ١١٧٩م — ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) . كان ياقوت اغريقي المولد ، وقع في رق تاجر حموى الاصل من سكان بغداد وهو صغير . وقد علمه سيده ، ثم صار يرسله في تجارته الى مختلف الاقطار . وقد سافر ياقوت الى كثير من البلاد المشرقية قبل وبعد تحرره من الرق . واتيحت له فرصة الاقامة مدة سنتين في مدينة مرو ، عاكفا على نهل العلم من مكتباتها الغنية ، ثم فر أمام أخبار الزحف المغولي فاستقر في الموصل ، ثم انتقل الى حلب . وقد استفاد ياقوت من اسفاره الواسعة ، واتصل بكثير من علماء عصره . وصنف عددا من الكتب يهمنا منها هنا كتاب معجم الادباء . وقد أفدت منه في موضوع الحياة الاجتماعية ، والحياة العقلية ، وفي عدد آخر من المواضيع .

ابن العديم ، كمال الدين عمر بن احمد (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م — ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) .

عاش ابن العديم في عصر عامر بالمؤرخين والعلماء والمدرسين . وممن التقى بهم وصاحبهم وأفاد منهم وأفادهم ياقوت الحموى ، والقفطي ، وابن خلكان . وابن العديم ينتمي الى اسرة كثر منها العلماء والقضاة والادباء وكتاب الخط . وقد أخذ كمال الدين من كل علم من علوم عصره بطرف ، وكانت له مكانة مرموقة في بلده ، خاصة عند الملك الظاهر غازى ، صاحب حلب . وقد سافر ابن العديم وهو صغير بصحبة والده الى دمشق وبيت المقدس ، ولما كبر سافر الى مصر والعراق واجتمع بالعلماء والادباء فيهما . وسفر كمال الدين بين الحكام ، اذ ارسله الملك الناصر يوسف ، صاحب دمشق ، في مهمة الى بلاط الخليفة المستعصم ، كما وفد على مصر رسولا من صاحب دمشق ، يطلب النجدة على التتار . كل هذا يبين لنا سعة اتصالات ابن العديم وسعة

افق معلوماته . ويهمنا من مصنفات ابن العديم كتابان ، سنذكر احدهما هنا ، وهو كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب ، الذى مازال مخطوطا في احدى مكتبات استنبول، ويضم هذا الكتاب تراجم الحلبيين ، او الذين زاروا حلب ، ومن بينهم عدد ليس بالقليل ممن عاشوا في العصر السلجوقي . وكما فعل ابن خلكان وابن عساكر ، لم يحصر ابن العديم تراجمه في نوع واحد من انواع التخصص ، بل ذكر طوائف من رجال الحكم والعلم والادب وغيرهم . وقد افدنا من كتاب ابن العديم في عدة مواضيع ، نظرا لتنوع اعيانه الذين يترجم لهم .

السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م ـ ٧٧١هـ/١٧٠م)
مصرى المولد ، تلقى العلم بمصر اولا ، ثم رحل الى الشام وتلقى عن علمائها وخالط الكثرين منهم وامعن في طلب الحديث وواظب على الاشتغال بالفقه واصول الدين واللغة العربية واجاد في الخط والنثر والنظم واصبح مفتيا وتولى التدريس في معظم مدارس دمشق ، وتولى الاشراف على دار الحديث ثم اصبح رئيسا للقضاة بالشام . وللسبكي عدد من المصنفات يهمنا منها كتاب طبقات الشافعية الكبرى . ويهمنا من هذا الكتاب المجلد الرابع ، الذى ترجم فيه لرجال القرنين الخامس والسادس من اعيان الشافعية . ورغم ان السبكي متأخر عن العصر الذى ندرسه ، الا ان سعة اطلاعه ومقدرته النقدية تجعل تراجمه مصدرا هاما من مصادر العصر السلجوقي . وتراجم السبكي موسعة ، في اغلب الاحيان ، تضم معلومات متنوعة . وقد افدنا منه في عدة مواضيع ، خاصة في الحياة العقلية ، وفي نظم الحكم والادارة .

القفطي ، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف (٥٦٨ هـ/١١٧٣ م ـ ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)
ولد القفطي في بلدة قفط ، بصعيد مصر . وقد بلغ والده مرتبة الوزارة عندما استوزره الملك الاشرف موسى ، صاحب حران ، وسافر علي بصحبة والده ، وانتهى به الامر الى ان استقر بحلب ، وبها توفى ودفن . وقد اجتمع القفطي بعدد من علماء حلب ، واستفاد منهم وافادهم . ثم انه شغف بالكتب ، واقتنى منها الكثير ، حتى ان قيمة كتبه عند وفاته قدرت بخمسين الف دينار . وقد استوزره الامير ميمون القصرى ، صاحب حلب ، على كره منه . وعند وفاة ميمون اعتزل ، ولكنه الزم بالعودة الى الديوان من جديد . وكان علي متبحرا في علوم النحو واللغة والقراءات والفقه والحديث والاصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل . وقد صنف عددا كبيرا من المصنفات يهمنا منها اثنان :

١ـ انباه الرواة على انباه النحاة ، وهو يضم تراجم لمشاهير النحويين ،ومن ضمنهم عدد كبير من نحويي العصر السلجوقي • ونظرا لتعدد تخصصات العلماء فقد كان بين مترجميه من اعيان العصر السلجوقي اناس اختصوا بالحديث والكلام والشعر والتاريخ والتنجيم • وقد استفدت من هذا الكتاب خاصة في موضوع الحياة العقلية ،والحياة الاجتماعية •

٢• اخبار العلماء بأخبار الحكماء : وقد ترجم فيه للاطباء والفلاسفة الذين عرفت اخبارهم في ايامه • ولكن المنتمين منهم الى العصر السلجوقي قليلون ،لا يزيدون عن بضعة عشر • وقد استفدت من هذا الكتاب في موضوع الحياة العقلية •

السمعاني ، عبد الكريم بن محمد بن منصور (٥٠٦هـ /١١١٢م/٥٦٢هـ/١١٦٧م)
كان السمعاني من اشهر رجال عصره ،بل والعصور التي تلته ،وقد لاحظت ان كثيرا من المؤرخين ومصنفي كتب التراجم ينقلون عنه • وكان رحّالا في طلب الحديث ، دار العراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وخراسان والجبال وما وراء النهر ،وغيرها من البلاد ،ويقال ان عدة شيوخه بلغت اربعة الاف • وقد صنف كثيرا من الكتب ، يهمنا منها كتاب الانساب • وقد ذكر ابن خلكان ان ما كان بايدي الناس من هذا الكتاب في ايامه مختصر من الاصل • ولعله هو الذي وصل الى ايدينا • وهو ليس كتاب تراجم ،غير انه يحتوي على عدد كبير من التراجم ،ومن ضمنها عدد كبير من تراجم اعيان العصر السلجوقي الذي كان المؤلف واحدا من علمائه • ورغم قصر تراجمه فقد استفدت منها واستندت اليها في نقاط متناثرة خلال مواضيع هذا البحث •

ابن ابي يعلى الفراء ، محمد بن محمد (٤٥١ هـ/١٠٥٩م ـ ٥٢٦هـ/١١٣٢م) •
وهو ابن القاضي ابي يعلى الفراء ،صاحب الاحكام السلطانية ،وكبير الحنابلة في عصره سمع ابن ابي يعلى الحديث وبرع في الفقه وافتى وناظر ،وكان عارفا بالمذهب الحنبلي ،وصنف عددا من الكتب ، يهمنا منها كتابه طبقات الحنابلة ،خاصة الجزء الثاني منه ، لان المترجمين في الجزء الاول ينتمون الى عصور سابقة • واهمية هذا المصدر بالنسبة لموضوعنا انه عاش كل حياته ضمن العصر السلجوقي ،فضلا عن انه كان من اهل العلم ،وقد ترجم لرجال عاصروه ،وعرفهم عن كثب في اغلب الاحوال • وابن ابي يعلى ،الحنبلي المتعصب ،يغالي في تشويه صورة خصوم مذهبه كما يبالغ في رفع شان الحنابلة ،ورغم ذلك فان الباحث يستطيع ان يتجنب مزالقه ،وان يستخلص منه صورة حية لتفكير الحنابلة الذين كانوا اقوى الجماعات المذهبية السنية ،من حيث عددهم وقوتهم

وقد افادنا هذا الكتاب فى معرفة صراع مذاهب السنة ، وفى موضوع الحياة العقلية بشكل عام .

ابن رجب ، ابو الفرج عبد الرحمن بن احمد (ت ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣م)

بغدادى الاصل والمولد ، سافر الى دمشق صبيا ، وسمع بها ،كما سافر الى مصر والحجاز وسمع بهما . وقد اخذ عن المشاهير فى عصره امثال الشيخ زين الدين العراقي وابن قيم الجوزية . وقد برع ابن رجب فى الفقه وفى فروع علم الحديث . وترك لنا عبد الرحمن موءلفات كثيرة يهمنا منها كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ، الذى ذيل فيه على كتاب ابن ابي يعلي ، المذكور قبله . ويضم المجلد الاول من هذا الكتاب سبعا وتسعين ترجمة لاعيان الحنابلة الذين توفوا كلهم بين سنتي ٤٦٠هـ — ٥٤٠ هـ باستثناء الترجمات الاربعة الاخيرة التى لم تذكر تواريخ وفاة اصحابها . وهو ينحو نحو ابن ابي يعلى فى تشديده النكير على خصوم الحنابلة ، ومدحه للاصحاب ، وقد استفدنا منه فى معرفة صراع اتباع المذاهب السنية ، وفى دراسة الحياة العقلية وبدرجة اقل فى مواضيع اخرى .

الكاتب الاصفهاني ، محمد بن محمد ،الملقب بالعماد (٥١٩ هـ/ ١١٢٥م — ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) . تفقه العماد فى المدرسة النظامية ببغداد ،وكان يلقى عناية من الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ،الذى ولاه النظر فى البصرة ،ثم فى واسط . وبعد وفاة ابن هبيرة تعرض الكاتب الاصفهاني للاذى ،ثم انتقل الى بلاد الشام ودخل خدمة نور الدين محمود . وعندما سطع نجم صلاح الدين الايوبي امسى العماد لصيقا به . وقد ترك الاصفهاني عددا من التصانيف يهمنا منها اثنان ، سنذكر احدهما ضمن كتب التراجم ،وهو كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ،الذى ترجم فيه للشعراء الذين عاشوا فى القرن السادس ،حتى سنة ٥٧٢هـ /١١٧٧م .

لقد عاش العماد فى العصر السلجوقي ،وانخرط فى الاعمال الحكومية ،وتولى الوظائف واتصل بالحكام والاعيان ومدحهم ،وكان عمه العزيز من كبار الاداريين في الدولة السلجوقية ،وقد نقل العماد عن عمه الكثير من اخبار الحياة السياسية . والعماد ،فى كتابه هذا ،معنى بالشعر والشعراء ، وهو يركز على حشد نماذج من اشعار المترجم لهم . اما الترجمة فلا تعدو بضعة سطور مرصعة بالسجع الذى لايفيد الموءرخ شيئا . لذلك فقد كانت استفادتنا من هذا الكتاب محدودة المقدار ،وفى نقاط قليلة جدا ، لكنها متناثرة فى مواضيع هذا البحث .

ابن ابي الوفاء ، عبد القادر بن محمد بن محمد (٦٧٦هـ /١٢٧٧ م ــ ٧٧٥هـ/١٣٧٣م)
ولد في القاهرة ،وبها توفي ،وتلقى العلم عن ائمة عصره وسمع بمكة • وكان ابن ابي الوفاء جامعا للعلوم ، كما يقول اللكنوى ، وقد بلغ درجة الافتاء ، وتولى التدريس ، وصنف عددا من الكتب في تاييد المذهب الحنفي والدفاع عنه • ويهمنا كتابه الجواهر المضية في طبقات الحنفية ورغم انه يتضمن عددا كبيرا من تراجم الاحناف الذين عاشوا في العصر السلجوقي الا انه تراجمه يغلب عليها الاختصار الشديد • وقد استفدت من هذا الكتاب في موضوع القضاء ،كما انني استندت اليه في عدة نقاط من هذا البحث ، لكنها قليلة ومتناثرة •

ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين ابو العباس احمد (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣ م ــ ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) • ولد في دمشق ، وكان والده كحالا ،اى طبيب عيون • بدأ دراسته الطبية في دمشق ثم سافر الى مصر لاستكمالها ،والتحق بالمارستان الناصرى ،الذى انشأه صلاح الدين الايوبي • وهناك اتصل بالطبيب المشهور ابن البيطار • وقد ترك لنا موفق الدين مؤلفه الفريد في نوعه واهميته ،وهو كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء • وقد استطعت ان اميز عددا قليلا من الاطباء الذين عاشوا في العصر السلجوقي من بين تراجمه التى تزيد على اربعماية • بيد ان تراجم ابن ابي اصيبعة مطولة وافية ، وقد استفدت منها في موضوع الحياة العقلية • واستندت اليها في نقاط قليلة اخرى متفرقة •

كتب التاريخ العام :

ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد (٥٥٥هـ/١١٦٠م ــ ٦٣٠هـ ١٢٣٤م) • ولد ابن الاثير في جزيرة ابن عمر في منطقة الموصل ،واليها ينسب احيانا • وقد تلقى تعليمه في الموصل وعاش فيها معظم حياته ، بيد انه سافر في طلب الحديث والتاريخ معا ،فورد بغداد عدة مرات وذهب الى القدس وحج الى مكة • وقد اعتزل الحياة السياسية وعكف على العلم ، واصبح بيته مجمع العلماء وقبلة القاصدين منهم • وقد قابله ابن خلكان في حلب واثنى على تواضعه • عاش ابن الاثير طفولته في اواخر العهد السلجوقي ، ولكنه نقل الكثير من المعلومات عن والده واقاربه ومعارفه الذين عاشوا الاحداث وعاصروها وكانوا من الاعيان البارزين • هذا فضلا عن اسفاره الكثيرة ،واستفادته من علماء عصره • وممن سبقوه • ويهمنا من مصنفات ابن الاثير العديدة كتابان : اولهما كتابه الضخم : الكامل في التاريخ ، وقد استفدنا من اربع من مجلداته ، اذ

افادنا المجلد الثامن بمعلومات عن العهد البويهي ، وكذلك القسم الاكبر من المجلد التاسع اما بقية المجلد التاسع والمجلدان العاشر والحادى عشر فقد اعتمدنا عليها في معظم فصول هذا البحث ، واكثر مواضيعه .

ابن الجوزى ، ابو الفرج عبد الرحمن (٥١٠هـ/١١١٦م-٥٩٧هـ/١٢٠١م) .
الامام ابن الجوزى بغدادى ، عاش حياته في بغداد ، واصبح من المع شخصياتها العلمية والدينية ، وكان اكبر فقهاء الحنابلة في عصره . وكان الخلفاء والوزراء يحضرون مجالس وعظه ، وقد حظى عند بعض الخلفاء والوزراء كما اخبر هو نفسه . وترك ابن الجوزى عددا ضخما من المصنفات ، في مواضيع شتى ، وقد استفدنا من بعضها في بحثنا ، بيد ان اهمها بالنسبة الينا هو كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والامم . ويقع هذا الكتاب في عشر مجلدات ، الا ان ما تعلق منه بهذا البحث هي المجلدات الثلاثة الاخيرة فقط . وتاريخ ابن الجوزى ، رغم عنوانه الذى يوحي بالشمول ، يركز بصفة خاصة على البلاد العراقية ، خاصة بغداد ، بيد انه يخرج من هذه الدائرة احيانا ، والواقع ان بامكاننا ان نعتبر كتاب ابن الجوزى كتاب تراجم ايضا ، اذ انه يخصص ، بعد احداث كل سنة حيزا لتراجم الاعيان المتوفين فيها يفوق ما يخصصه للاحداث الجارية . وقد بلغ عدد الاعيان الذين ترجم لهم ممن توفوا بين سنتي ٤٥٧ هـ/ ٥٧٤ هـ تسعمائة وثلاثة وثلاثين شخصا ، معظمهم من العراقيين ، لكن فيهم نسبة قليلة من خارج العراق . وكانت المجلدات الثلاثة التى اشرنا اليها من كتابه من اهم المصادر التى اعتمدنا عليها في جميع فصول هذا البحث .

من كتب الرحلات :

ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن احمد (٥٣٩هـ/١١٤٥م-٦١٤هـ/١٢١٧م)
قام ابن جبير ، الاندلسي ، برحلة قصد فيها الحج الى مكة ، وابتدأ رحلته اواخر سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م ، حيث ركب البحر الى الاسكندرية ، ثم توجه الى صعيد مصر ، وركب البحر ثانية من ميناء عيذاب على البحر الاحمر الى جدة ، على الشاطئ الحجازى . وبعد الحج رافق قافلة الحج العراقية ، فمر بالعراق من جنوبه الى شماله ، وبمنطقة الموصل وحلب ودمشق ، ثم اجتاز الحدود مع الصليبيين برفقة قافلة تجارية ووصل الى ميناء عكا ، وزار مدينة صور التى كانت تحت حكم الصليبيين ، ثم ركب البحر عائدا الى بلاده ، وختم رحلته في المحرم من عام ٥٨١هـ/١١٨٥م .
ويهمنا من رحلته وصفه لمشاهداته في بلاد العراق والجزيرة والشام ، بما في ذلك المناطق

الصليبية التى زارها . وابن جبير وصاف دقيق الحس ، محقق لا يقبل بالروايات على علاتها . وقد ذكر انه كان يسمع بان عين زمزم تزيد مياهها فى ايام محددة من موسم الحج رغم كثرة مايؤخذ منها فقاسها هو واصحابه قبل ان تحل تلك الايام ، ثم قاسها ثانية فى اثنائها ، فوجد انها تنقص ولا تزيد . ورحلة ابن جبير من اهم المصادر التى اعتمدت عليها فى جميع فصول هذا البحث تقريبا ،خاصة فى مواضيع الزراعة والتجارة والصناعة والفنون ،التى ضنت علينا كتب التراجم بالمعلومات الكافية عنها . ورغم بلاغة ابن جبير فانه كثيرا مايحاول الاستدراك على تعميماته ويحددها .

مصادر اخرى متنوعة

ابن القلانسي ، حمزه بن علي بن محمد (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) . كان حمزه احدى الشخصيات الهامة بمدينة دمشق ورئيس الديوان فيها . وقد ذيل على تاريخ دمشق الذى الفه هلال الصابي ،وسمى كتابه : ذيل تاريخ دمشق . ويبدأ الجزء الذى وصل الينا من هذا الكتاب بالتاريخ لاحداث سنة ٣٦٣ هـ ، وينتهي قبيل وفاة المؤلف . وقد افدت من هذا الكتاب بالنسبة لاحداث البلاد الشامية عامة ودمشق بصفة خاصة . ومع ذلك فانه قد يخرج احيانا من هذه الدائرة ،فيذكر احداثا وقعت خارج بلاد الشام . واهمية هذا المؤرخ انه عاش حياته كلها فى العصر السلجوقي ،وشهد الاحداث بنفسه ،وعاصرها ونقلها عن قرب . وهو دقيق ومعتدل فى احكامه .

ابن العديم ، كمال الدين عمر (٥٨٨هـ/١١٩٢م —٦٦٠هـ/١٢٦٢م) وقد تحدثنا عن ابن العديم قبل قليل . لابن العديم كتاب آخر ،هو كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب . وهو كتاب يعني بتاريخ مدينة حلب من اقدم الازمنة حتى نهاية العهد الذى ندرسه . ولكنه يتعرض لاحداث بلاد الشام بصفة عامة وبعض الاحداث الخارجية . ويسير المؤلف فى كتابه على النظام السنوى . وقد افدنا من القسم الاخير من المجلد الاول ،ومن المجلد الثاني بكامله . وقد اعتمدنا عليه فى معرفة اوضاع مدينة حلب من عهد المرداسيين وفي العهود التى تلته ،وافدنا منه فى فهم الصراعات السياسية بين الامراء العرب والحكام المسلمين ،وبين هؤلاء من ناحية والصليبيين من ناحية اخرى ، كما افدنا منه فيما يتعلق باخبار جماعات الاحداث ، وغير ذلك مما يرى القارئ اشارة اليه فى حواشي صفحات هذا البحث .

ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد (٥٥٥هـ/١١٦٠ــ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) .
وقد تحدثنا عن شخصيته . والكتاب الثاني الذى يهمنا من كتبه هو كتاب التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيه . وهو مخصص ، كما هو واضح من عنوانه ، لتاريخ الاتابكة فى الموصل وحلب ودمشق . بيد ان المؤرخ الكبير يسقط هنا ضحية الاسراف فى مدح رعاته ملوك الموصل واسلافهم ، وذلك بشكل ظاهر لا يخطئه الناقد . ورغم ذلك فقد استفدت منن هذا الكتاب فى اكثر فصول هذا البحث متجنبا اتباعه فى مدائحه واحكامه ، الا اذا صدقت تلك الاحكام مصادرا اخرى لم تنقل عنه .

الغزالي ، حجة الاسلام ابو حامد محمد بن محمد (٤٥٠هـ/١٠٥٨م ــ ٥٠٥هـ/١١١٢م)
تلقى الغزالي العلم بطوس ، مسقط راسه ، ثم انتقل الى نيسابور ، حيث اخذ عن امام الحرمين الجويني ، وتخرج عليه ، وبرع فى مذهب الشافعي ، وفى الخلاف والجدل واصول الفقه والدين ، وفى المنطق والفلسفة . وقد ارسله الوزير نظام الملك مدرسا فى المدرسة النظامية ببغداد ، فظل سنوات ، ثم مال الى الزهد والتصوف . والغزالي اشهر من ان يحتاج الى تعريف . وقد خلف عددا كبيرا من المؤلفات ، استفدنا بطائفة منها :

١ـ المنقذ من الضلال روى الغزالي فى هذا الكتاب قصة انتقاله من الايمان بطريقة الفقهاء الى الايمان بالتصوف . وقد استفدنا منه فى موضوع الحياة العقلية .

٢ـ فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة : وفى هذا الكتاب خطّأ الغزالي غلو معاصريه فى تكفير بعضهم بعضا ، وبين الحدود التى يمكن ان يعد المسلم كافرا اذا تخطاها ، وذلك من وجهة نظره ، بطبيعة الحال ، وقد استفدنا من هذا الكتاب فى موضوع الصراع بين اهل الفرق والمذاهب ، والحياة العقلية بصفة عامة .

٣ـ فضائح الباطنية : وقد خصصه لكشف سوءات اتباع المذهب الاسماعيلي ، ودحض حجج الخلافة الفاطمية وانصارها . وقد استفدنا منه فى حدود معرفة شيء عن الاسماعيلية .

٤ـ وقد استفدنا من الجزء الاول من كتابه احياء علوم الدين ، خاصة فى موضوع الحياة العقلية .

الشهرستاني ،ابو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م) .
تلقى الشهرستاني العلم بطوس ،ونبغ منذ كان يافعا ،وطوف بالبلاد الاسلامية ، ثم حج عندما بلغ الثلاثين ،وبعدها سافر الى بغداد وتولى التدريس في المدرسة النظامية لمدة سنوات ثلاث . وكان الشهرستاني متضلعا في الفلسفة الى جانب سعة معلوماته الفقهية ، ومعرفته بالعقائد والاديان . ويهمنا من مؤلفاته الكثيرة كتابه الملل والنحل . وقد استفدنا من هذا الكتاب في موضوع الفرق الاسلامية ،خاصة ماتعلق بفرقة الاسماعيلية .

وهناك عدد كبير من المصادر الاخرى التي استفدت منها في بعض جوانب هذا البحث لا اجد ضرورة الى اطالة هذه المقدمة بالحديث عنها ، سيجدها القارئ ضمن قائمة المصادر والمراجع ، وسيلاحظ ذكرها في حواشي هذا البحث .

ومهما قلنا عن دقة المؤرخين الذين اعتمدنا على مصنفاتهم فانهم جميعا ، تقريبا يشتركون في قبول الروايات المتعلقة بالخوارق والمعجزات المنسوبة الى المتصوفة والعباد والزهاد اما فيما عدا ذلك فالغالب هو تحرى الدقة والنقد .

الفصل الاول

الحضارة العربية
قبل عصر السلاجقة

الحضـــارة العربية قبـــل عصر السلاجقة

اتسمت حياة الدولة العربيـــة الاسلامية الاولى التي أسس صرحها النـبي صلى الله عليه وسلم سنة ست مئة وثنتين وعشرين للميلاد بالبساطة ، سواء من الناحيــة السياسية او الادارية او الاجتماعية . لقد شمل سلطان تلك الدولة — في بداية عهده — بلدة يثرب فقط ، ولكنه أخذ يتسع ، فيفرض ظله على القبائل الضاربة في البوادى المحيطـة بالمدينة الى ان تيسر للمسلمين فتح مكةوالطائف ، ثم الامتداد الى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية . وكان هذا السلطان معنويا اكثر منه فعليا ، اذ لم يكن للدولة الجديدة جهـــاز ادارى متغلغل في تلك النواحي ، كما لم يكن للنبي ممثلون يمارسون السلطة نيابة عنه فـي المناطق القبلية خارج الحجاز ، وان كان قد اشتهر عنه انه أرسل بعض العمال ليمثلوا سلطة الدولة الجديدة في بعض المناطق . وقد تمثل خضوع القبائل في مجيء وفود من شيوخـــها الى الرسول صلوات الله عليه ، تعلن ولاءها وطاعتها . وليس أدل على ضعف ذلك الولاء من الانتقاض السريع في ما عرف بالردة ، التي تطلب اخمادها معارك وضحايا تفوق ما سبقها في حياة الرسول . وكانت غالبية سكان شبه الجزيرة من البدو والرعاة الرحل الذين كان الرعــي والغزو محور حياتهم . أما القسم الاخر منهم فقد عاشوا في الحواضر الصغيرة ، كمكة والمدينة والطائف ، وبعض الواحات ، يمارسون الزراعة البسيطة التي تسمح بها التربة والاجواء الشحيحة ، كما احترف بعضهم — خاصة أهل مكة — التجارة . على ان المزارعين والتجار لم يتخلصـوا من أثر البداوة المحيطة بهم ، والتي تحدرت منها أصولهم ، فكانوا يشاركونها في كثير من العادات والتصورات ، والنظرة العامة للحياة . وبعد وفاة المصطفى (ص) بدأت حركة الفتوح والتوسع التي امتدت طوال فترة تقارب مئة سنة ، تخللتها بعض أوقات من التراخي ، او التوقف الكامل ، نتيجة لما نشب من صراع داخلي . ثم ان زخـم حركة الفتـوح ما لبث ان خمـد ، بســـبب كثير من العوامـل الذاتيـة والخارجيـة .

وقبل وفاة النبي (ص) كان هو الحاكم وهو المشرع ، باعتبار انه يتلقى كلمة الله مباشرة ويبلغها للناس ، ويحدد لهم طرائق حياتهم ومواقفهم . وبغيابـه عن مسرح الحياة اصبح من

واجب خلفائه ، وقادة المجتمع الجديد ان يعتمدوا على أنفسهم في قضايا التشريع والادارة . وتحقيقا لذلك جعلوا مصدر أحكامهم ونبراس تصرفاتهم كتاب الله ، وسنة رسوله ، أى ما وعته الذاكرة من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله .

وعندما بلغت حركة الفتوح مداها كان العرب قد سيطروا على بلاد الشام والشمال الافريقي والاندلس ، كما فرضوا سلطانهم على بلاد فارس ، وأواسط آسيا ، وأطراف الهند . لقد خرجوا من بيئتهم الصحراوية المحدودة الافق وخضعت لهم بلاد اصطبغت قرونا طويلة بطابع الحضارة الهلينستية ، فضلا عن استيلائهم على مواطن الحضارة الساسانية . وهكذا حلوا في بيئات تفوقهم في العلم والثقافة والفنون ، ولديها من النظم الادارية وأجهزة الحكم ما لم يعرفوه . وحيث ان العرب لم تكن لديهم نظم ادارية بديلة ، ولا جهاز من الموظفين يخلف موظفي العهود البائدة ، فقد أبقوا الاوضاع على ما كانت عليه في معظم جوانب الحياة .

كذلك وجد العرب المسلمون في مواطنهم الجديدة ثقافات وفلسفات ، وعلوم ومهارات ، لم تكن معروفة لديهم ، فنتج عن ذلك بدء عملية الاقتباس والترجمة ، فضلا عن التأثر التلقائي . وقد ظل العرب طوال عهد الخلفاء الراشدين والعهد الاموى من بعده ، في عزلة نسبية عن الشعوب التي حكموها ، اذ انهم بقوا جنودا وحكاما . ولكن هذا الانغلاق ظل ينفرج ببطء الى ان زال بزوال الحكم الاموى ، الذى كان قد استند الى العنصر العربي بالدرجة الاولى . وبمجيء العباسيين انفتحت الشعوب بعضها على بعض ، سيما وأن جو الصدمة قد زال ، وأن الاجيال التي شهدت معارك الفتوح قد انطوت ، فأخذت هذه الشعوب تتبادل ما لديها من تراث ومعارف وخبرات وثقافات .

واستلزمت الظروف الجديدة مواجهة كثير من المشاكل الادارية والدينية التي لم تكن موجودة في العهد النبوى ، وتطلبت مواجهة هذه المشاكل قدرا من التفكير والاجتهاد . وأدى اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب ودخول الكثيرين من العرب وغيرهم في الاسلام الى اختلافات في فهم النصوص القرآنية وتفسيرها . زد على ذلك ان القرآن لم يجيء بنظام مفصل شامل للنظم الحياتية

البشرية ، من سياسية واجتماعية ، اذ تضمن — في كثير من الحالات — مجرد مبادئ عامة ، تحتمل وجوها من التفسير وتتسع لاكثر من صورة من صور التطبيق . ومن هنا استشعر قادة المجتمع الجديد ضرورة العثور على الاجابات المقنعة لكل التسأولات حول المسالك التي تتفق مع المثل العليا للامة ، النابعة من المبادئ القرآنية .

وتحقيقا لهذه الغاية ظهرت حركة علمية ما لبثت ان نمت واتسعت ، فقد اعتنى العلماء بالسيرة النبوية لفهم القرآن الكريم والسنة معا ، واهتموا بتاريخ الامم والاديان السابقة التي تعرض لها القرآن ، كما اهتموا بتاريخ العرب السابق على النحو ذاته . ثم ان دخول الكثيرين من الاعاجم في الاسلام واختلال المعرفة باللغة من جراء ذلك وجه العلماء الى دراسة الشعر الجاهلي ، باعتباره النموذج العربي المبرأ من عدوى العجمة ، وهو الذى تحدد على ضوئه معاني ألفاظ القرآن الكريم . ونظرا لان الصحابة رضوان الله عليهم هم الذين شاهدوا الرسول ورافقوه ، وشاركوه جهاده ، فقد أصبحت أخبارهم وسيرهم موضع اهتمام الباحثين ، الامر الذى أدى الى ظهور كتب الطبقات .

سارت النهضة الحضارية — اذن — في ثلاثة اتجاهات :

١— توسع سياسي هائل ، وتوحيد سياسي لعدد كبير من الشعوب

٢— اقتباس واستفادة من تراث الحضارات السالفة واكتساب علومها وفنونها

٣— حركة علمية ذاتية ، نابعة من الاصل الاسلامي ، تصوغ الاوضاع الجديدة في قالب يرضاه الاسلام .

بيد ان النهضة الحضارية العربية لم تسر في هذه الاتجاهات الثلاثة بسرعة متساوية ، كما ان ثمار هذه الجهود لم تنضج كلها في وقت واحد . وبالمثل فان ذبولها وانهيارها حدث في أوقات مختلفة .

فالتوسع السياسي ، وعملية التوحيد ، وقيام الدولة الكبيرة المستقرة الثرية كان هو الاسبق من حيث النضج ومن حيث الذبول والانهيار . أما العلوم العربية ، الدينية واللغوية ، وأما الفلسفة والثقافة والفنون والصناعات ، فقد تأخر نضجها ، نظرا لان نموها وتطورها يستغرق وقتا أطول مما

يحتاجه التطور السياسي ، ونظرا لانها بدأت بعد انتهاء فتح معظم ما فتح من أقطار. لقد كان القرنان الاول والثاني هما عصر القوة والازدهار من الناحية السياسية . ثم تهدمت الوحدة السياسية ، وخارت قوى الدولة منذ النصف الاول من القرن الثالث الهجرى . ومن ناحية اخرى كان القرنان الثالث والرابع للهجرة هما اللذان بلغ فيهما رقي الفكر والعلوم والفنون والصناعات ذروة الازدهار.

لقد بدأت عوامل الهدم على شكل صراع سياسي على الحكم اندلع منذ اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، واستمر الصراع فأدى الى سقوط الامويين وقيام دولة بني العباس سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م) . وكان قيام الدولة الاموية في الاندلس (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) هو أول انفصام واع وعلني للوحدة السياسية للامة . وبعد ذلك بسنوات نشأت في المغرب الاقصى دولة الادارسة العلويين (١٧٢ هـ / ٧٨٨م) ، وكانت كل من هاتين الدولتين مستقلة تماما عن الخلافة العباسية .

ومن ناحية أخرى كان أمراء الولايات المعينون من قبل الخلفاء العباسيين يحرصون على تأسيس اسرات حاكمة شبه مستقلة ، لا تربطها بالسلطة المركزية في بغداد سوى بعض الشكليات ، كالخطبة والسكة . ومن هذه الامارات شبه المستقلة امارة الاغالبة التي قامت في شمال أفريقيا سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م ، وامارة الطولونيين في مصر (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م) ، ومن بعدهم أمارة الاخشيديين (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) . وفي القسم الشرقي من أراضي الخلافة نشأت الامارة الطاهرية سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م ، وخلفتها الامارة الصفارية (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م) ، ثم الامارة السامانية عام ٢٦٦هـ/ ٨٧٤م ، وتفرعت عن هذه الاخيرة الدولة الغزنوية (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) .

وقد استطاع دعاة الشيعة ان يؤسسوا الدولة الفاطمية في المغرب ، وأن يقضوا على الامارة الاغلبية الموالية للعباسيين سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م ، ثم تمكنوا من انتزاع مصر نفسها من سلطان الخليفة العباسي سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م . ولم تكن هذه الدولة الجديدة مستقلة عن الخلافة العباسية فحسب ، بل كانت مناوئة لها ومزاحمة في ما ادعته كل من هاتين الاسرتين أحقيتها بالاستئثار بمنصب الخلافة . وما لبث الخليفة الفاطمي ، المعز لدين الله ، ان نقل مركز حكمه الى مصر ، وجعل القاهرة ، التي بناها قائده جوهر الصقلي ، عاصمة للخلافة الفاطمية ، التي تحدت العباسيين وانتزعت منهم بلاد الشام .

ولو ان الامر اقتصر على الانحلال السياسي لكيان الدولة الواحد اذن لهان الخطب ، ولأمكن

التغلب على العلل التي اصابت الخلافة العباسية ، بيد ان هذا الانحلال السياسي لم يكن الا مظهرا لانحلال روح الامة وتمزق المجتمع بحيث لم يعد قادرا على اصلاح نظامه السياسي .

فقبل ان يتم العرب انجازهم الكبير (١) تأسيس الحضارة العربية الاسلامية استطاع حداثهم ان يقودوهم صفا واحدا ، يجمعهم الولاء للامة والعقيدة والقيادة السياسية . ولكن الاطماع ما لبثت ان سيطرت على النفوس ، وغدا شعور كثيرين من الافراد برغباتهم وتطلعاتهم الشخصية اكبر من شعورهم بمصلحة الجماعة ومستقبلها وتطلعاتها ، وهكذا بدأ التمزق في داخل النفوس ، وتلاه التمزق السياسي ، ثم اخذ هذان النوعان من) انواع الانحلال يتفاعلان فيزيد كل منهما في حدة الاخر .

وكما تفتقت بلاد الخلافة الى دول وامارات تقطعت الامة فرقا ومذاهب وشيعا واحزابا زاد عنف الصراع في تباعدها وتناكرها وتجاحدها . فالصراع الذى اندلع بين علي ومعاوية خلّف فرقة الخوارج ، وفرقة الشيعة ، ثم ظهرت فرقة المرجئة في العهد الاموى . كذلك ظهرت فرق الجبرية ، والقدرية ، والمعتزلة ، والاشاعرة والماتريدية . وقد تشعبت بعض هذه الفرق الى عدد من الشعب . وكانت الاختلافات في الرأى تدور حول مسائل سياسية واعتقادية ، كمسألة الخلافة ومسألة مرتكب الكبيرة ومسألة القدر وغير ذلك . ولقد رمى الكثيرون من اتباع الفرق مخالفيهم بالكفر واباحوا دماءهم ، الامر الذى زاد من حدة الصراع وعمق الانقسام .

وهكذا تقطعت اواصر الوحدة الشعورية في الامة ، وتمزقت اوصال الكيان السياسي لدولة الخلافة ، وعم الصراع ميداني الفكر والحكم . وقد بدأ هذا الانقسام منذ ايام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، كما ذكرنا ، وظلت دائرته تتسع حتى شملت كل اقاليم الدولة تقريبا .

ورغم ما تسببه اخبار التمزق السياسي والاجتماعي والفكرى من الم للباحث والقارئ على السواء ، فان هذا الشعور بالالم ينبغي الا يصرفنا عن ادراك ان ذلك التمزق لم يعدم بعض اثر ايجابي ، ذلك ان تعدد الحكام وصراعهم المستمر دفعهم الى التسابق في رعاية العلماء والادباء والشعراء ،

../..

سعيا وراء الذكر الحسن ، وما يمكن ان يجنى من ورائه من نفوذ سياسي . هذا فضلا عن ان تعدد الفرق والمذاهب يساعد على تحريك العقول وشحذ الافكار في سبيل الدفاع عن الاراء المعتنقة ونشرها ، ودحض الاراء المخالفة والقضاء عليها .

وبجانب هذه الفرق تأسست مذاهب فرقة اهل السنة الاربعة ، الحنفي نسبة الى ابي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠ هـ) ، والمالكي نسبة الى مالك بن انس (ت ١٧٩ هـ) ، والشافعي نسبة لمحمد بن ادريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، والحنبلي ، نسبة لاحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) . فضلا عن مذاهب سنية اخرى لم تعمر طويلا ، كمذهب الاوزاعي ، نسبة للامام عبد الرحمن الاوزاعي (ت ١٥٧ هـ) والمذهب الجريري ، نسبة للامام محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) .

ورغم ان التنافس بين هذه المذاهب لم يبلغ حدة الصراع بين بعض الفرق التي ذكرنا ، فانها ، اى المذاهب ، ولدت روح التقليد والجمود ، حتى غدت قيودا لا انعتاق منها . وقد تشدد الكثيرون من اتباع هذه المذاهب في اعتقاداتهم حتى قادهم التزمت الى محاولة الحجر على آراء مخالفيهم من المذاهب السنية الاخرى .

وعندما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ هـ القى بكل ثقله ضد المعتزلة ، انصار حرية الفكر والارادة ، ومن يومها اشتد التضييق عليهم الى ان اختفوا من الميدان نهائيا .

ولكن فترات الاستقرار السياسي النسبي التي شهدتها الدولة في المدة الواقعة بين وفاة النبي وارتقاء المتوكل كل عرش الخلافة العباسية هيأت الفرصة المناسبة لانجازات في ميادين العلوم والفنون والصناعات ، والفكر والادب ، وقد ظهرت هذه الانجازات في اقوى صورها خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ، اى بعد ان اصبح التمزق الاجتماعي والسياسي ظاهرا للعيان . ويبدو لي ان السبب في اقتران التدهور السياسي والاجتماعي بالانتاج المجلي في الجوانب التي ذكرنا يعود الى ان حدوث النماء السياسي والاقتصادى اسرع من حدوث النماء الفني والصناعي والعلمي ، ولكن النماء والاستقرار السياسي والاقتصادى من الشروط الضرورية لحدوث الصنف الاخر من جوانب التقدم ،

لذلك فان انجازات القرنين الثالث والرابع مدينة الى حد كبير للاستقرار الذى كان في القرنين الاول والثاني ، وحيث ان هذا الاستقرار قد انتهى قبل منتصف القرن الثالث ، فان الفرصة لم تعد مهيئة لشوط او دورة اخرى من دورات النماء الفكرى والعلمي والفني ، وظل خط السير بالنسبة لهذه الميادين منحدرا حتى استقر في حضيض الجمود والتخلف في العصر العثماني .

اضطراب الاوضاع في حاضرة الخلافة

عندما شرع دعاة العباسيين في تاسيس دولتهم اعتمدوا على الفرس اعتمادا كبيرا ، وعندما نجحوا في الاجهاز على الدولة الاموية كان للعنصر الفارسي من اتباعهم الدور الاول في احراز هذا النصر . وقد تبع ذلك انخفاض مكانة العرب كاداريين ومقاتلين ، ورجحان كفة العنصر الفارسي عليهم . وعندما انتصر الخليفة المامون على اخيه الامين كانت القوات الخراسانية هي عماد انتصاره ، وبذلك زاد نفوذ الفرس في الدولة الى حد شعر معه المعتصم بخطورة الموقف ، فلجأ بمعالجته بالاعتماد على عنصر آخر ، واستقدم المرتزقة الاتراك من المماليك ، واستكثر منهم حتى اصبحوا يشكلون القوة الرئيسية في الجيش العباسي .

ولكن هذه القوات الاجنبية التي ظن الخلفاء انها ستكون اداة طيعة لتنفيذ اغراضهم ، وسلاحا فتاكا لقهر اعدائهم ومن تحدثه نفسه بالتمرد على حكمهم ، ما لبثت ان اصبحت هي نفسها المصدر الاول للخطر ليس على صلاحيات الخليفة فحسب ، بل وعلى حياته كذلك . لقد شعروا بانهم هم القوة الحقيقية الوحيدة في الدولة ، فتسلطوا على دار الخلافة ، ولم يترددوا في الاقدام على قتل الخليفة المتوكل حين لمسوا منه ما اثار مخاوفهم حين اهملهم وحط مراتبهم ، وضم الى وزيره عبيدالله بن يحي بن خاقان نحوا من اثني عشر الفا من العرب والصعاليك .. (١) وجعل يبحث عن طريقة للتخلص منهم . وقد تم لهم القضاء عليه حين تآمر معهم ابنه محمد ، في شوال ٢٤٧ هـ/ كانون اول ٨٦١م (٢)

---

(١) ابو الحسن على بن الحسين المسعودى ، التنبيه والاشراف (بيروت : دار التراث ، ١٩٦٨) ، ص٣١٢ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما .

ومنذ قتل المتوكل حتى احتلال بغداد على أيدى البويهيين سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م تولى الخلافة اثنا عشر من بني العباس، كان اكثرهم العوبة بأيدى المتصارعين من قادة الجنود المرتزقة، والمتنازعين على الوزارة والمناصب الهامة.[١] ويبدو ان هيبة الخلافة قد سقطت بعد حادثة الفتك بالمتوكل، فقد كثر تمرد العمال وعصيانهم السلطة المركزية.[٢] " ولما كثر الاضطراب تأخرت أموال البلدان ونفد ما في بيوت الاموال، فوثب الاتراك بكرخ سر من رأى، فخرج اليهم وصيف (أحد القائدين المسيطرين على دار الخلافة)، ليسكنهم، فرموه فقتلوه ... ،، سنة ٢٥٣هـ، وتفرد بغا بالتدبير،[٣] وزادت الاضطرابات في عاصمة الخلافة[٤]، وكان من أسوأ مظاهر الانحلال سيطرة النساء والخدم على بعض الخلفاء وتبديدهم لاموال الدولة، حتى ان جارية تدعى ثمل القهرمانة " كانت تجلس للنظر في مظالم الخاصة والعامة، ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم ".[٥] وليس أدل على مقدار الفوضى التي تردت اليها أوضاع الدولة العباسية من أن الخلفاء الاثني عشر الذين تولوا في الفترة بين قتل المتوكل ومجيء البويهيين مات أولهم مسموما بعد ستة أشهر من خلافته، وخلع الثاني ولم تمض عليه اربع سنين، وقتل الثالث والرابع بأيدى القادة والمتآمرين في عاصمة الخلافة[٦]، وخلع خليفة آخر، وهو المقتدر، مرتين ثم قتل. وقد قتل عبد الله ابن المعتز الذى استخلف كمنافس للمقتدر عند خلعه اول مرة.[٧] وبعد المقتدر خلع القاهر، وسملت عيناه، ثم خلع المتقي وسملت عيناه.[٨]

ودخل البويهيون بغداد في عهد الخليفة المستكفي، فكان نصيبه الخلع والسمل على أيديهم، بعد أيام من مجيئهم.[٩]

---

(١) أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي (بيروت، دار بيروت ودار صادر، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م)، مجلد ٢، ص٤٩٣ و ٤٩٩ و ٥٠٢، المسعودى، ص٣١٥ و ٣١٦ — ٣١٧ و ٣٢٨.

(٢) اليعقوبي، مجلد ٢، ص ٤٩٤ — ٤٩٩ و ٥٠٠ — ٥٠٦، المسعودى ٣١٩، — ٣٢٤ و ٣٣٠ — ٣٣٥.

(٣) اليعقوبي، مجلد ٢، ص ٥٠٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٠٢ و ٥٠٦، المسعودى، ص ٣١٧ — ٣١٨ و ٣٢٧.

(٥) المسعودى، ص٣٢٨ — ٣٢٩.

(٦) المصدر نفسه، ص٣١٤ — ٣١٦ و ٣١٨.

(٧) المصدر نفسه، ص٣٢٦ — ٣٢٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٣٦ و ٣٤٤.

(٩) المصدر نفسه، ص٣٤٥.

البويهيــــــــون :

في المحرم من سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م توفي الامير توزون التركي ببغداد فشغر منصب امارة الامراء ، فاتفق الجند على تولية ابي جعفر بن شيرزاد ، وحلفوا له وهنأه الناس . ثم ان ابن شيرزاد طلب من الخليفة " المستكفي ان يحلف له يمينا بحضرة القضاة والعدول تسكن نفسه اليها ، ففعل المستكفي ذلك ، ثم ساله اعادة اليمين بحضرة وجوه الاتراك والديلم ، فاشتد ذلك عليه ثم فعله . " ولكي يرضــي ابن شيرزاد الجند من الاتراك والديلم زاد في ارزاقهم ، وحتى يفي بهذه المطالــــب المالية " اخذ في المصادرات ، وقسّط على الكتاب والعمال والتجار وسائر طبقات الناس ببغداد مالا لارزاق الجند . " (٢) وكان له عيون ينقلون له اخبار من " عنده قوت من حنطة او عدة لعياله .. "(٣) فتكبس داره ، ويؤخذ منها ما ادخره ، " فلحق الناس .. امر عظيم ، وكذلك من الضرائب فانها كثرت ، حتى تهارب التجار من بغداد وعاد هذا الفعل بالخراب .." (٤)

وبينما بغداد تعاني من هذه الفوضى وذلك العسف ، اذا باحمــد بن بويه يصل الى مدينة السلام على راس جيوشه ، فيستقبله الخليفة المستكفي مظهر السرور بمقدمه ، ثم خلع عليه ولقبــه بمعز الدولة ولقب اخاه ابا الحسن علي بن بويه بعماد الدولة واخاه ابا علي الحسن بن بويه بركن الدولة ، " وامر ان تضرب القابهم وكناهم على الدنانير والدراهم .. ونزل الديلم والجيل والاتراك دور الناس ، فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة ، وصار رسما عليهم " (٥) وبعد احد عشر يوما من وصول احمد بن بويه الى بغداد ، على النحو الذى ذكرنا ، دخل على الخليفة في مجلسه وحوله اعيان الدولة ، فقبــل الارض ثم قبل يد الخليفة وجلس ، وبعد هنيهة تقدم اثنان من الديلم نحو الخليفة فمد ايديهمــا اليه ، فظــن انهما يريدا تقبيل يده فمدها اليهما فجذباه " وطرحاه على الارض

---

(١) احمد بن محمد المعروف بمسكويه ، كتاب تجارب الامم ، بعناية هـ.ف. آمدروز (القاهــرة مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر ، ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م) ، جـ ٦ ، ص ٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

ووضعا عمامته في عنقه وجراه ، فنهض حينئذ معز الدولة ، واضطرب الناس ... وساق الديلميان المستكفي بالله ماشيا الى دار معز الدولة ، واعتقل فيها ونهبت داره، وولى معز الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر الخلافة في اليوم ذاته ، الثاني والعشرين من جمادى الاخرة سنة ٣٣٤/ ٩٤٦م .(١)

ولم يمض شهران على دخول معز الدولة أحمد بن بويه للعاصمة العباسية حتى تحولت المدينة الى ساحة قتال بين جنود ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل ، وجنود معز الدولة .(٢) وقد "لحق الناس في السواد من الجانبين ضرر عظيم بتسلط الجند على غلاتهم ، فانهم كانوا يحصدونها ويدرسونها ويحملونها الى معسكرهم ."(٣) وقد نهب الديلم من جنود معزالدولة الجانب الشرقي من بغداد ، وأحرقوا كثيرا من نواحيه ، وقتلوا من العامة كثيرين ، وهرب الناس حفاة في الحر الشديد خارجين نحو عكبرا ، فمات عدد كبير من الرجال والنساء والصبيان في الطرقات .(٤) وقد "أفرط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتة ، وأكل الناس الموتى والحشيش والميتة والجيف ، وكانت الدابة اذا راثت اجتمع على الروث جماعة ففتشوه ، ولقطوا ما يجدون فيه من شعير واكلوه ... وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهر الطريق وهو تالف ضرا فيصيح : الجوع ، الجوع ، الى ان يسقط ويموت ... ولكثرة الموتى ، وأنه لم يلحق دفنهم كانت الكلاب تأكل لحومهم ."(٥) ولم تنته المعارك في بغداد الا بعد أربعة أشهر ، في المحرم من سنة ٣٣٥هـ/ آب ٩٤٦م .

هكذا افتتح العهد البويهي ، وتلك كانت بعض صور من أحداث أشهره الاولى . وقد تولى الخلافة في العهد البويهي ، بعد خلع المستكفي ، أربعة هم : المطيع ، والطائع ، والقادر ، ثم القائم . وقد خلع أولهم نفسه اثر مرض اصابه ، وخلع الثاني على نحو مزر ، اذ جذبه اصحاب بهاء الدولة بن بويه عن سريره في مجلس الخلافة ، وطرحوه أرضا ، ولفوه في كساء وأخذوه الى دار الملك البويهي .(٦) وظل القادر في سدة الخلافة الى ان توفي عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م . وكان منصرفا الى التعبد والقراءة والامور الفقهية ، ولم يكن له من الخلافة الا اسمها .(٧) أما القائم ، الذى بويع بعد وفاة أبيه القادر ، فقد ظل في الخلافة الى ان توفي في العهد السلجوقي ، سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٦ — ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٩ — ٩٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٧) ابوبكر احمد بن علي الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد او مدينة السلام (القاهرة: مكتبة الخانجي ، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م) ، مجلد ٤ ، ص ٣٧—٣٨ .

وقد عزا ابن الاثير تطاول الملوك البويهيين على مقام الخلافة الى انهم كانوا شيعة مغالين في التشيع .(١) ويذكر الهمداني ان معز الدولة بن بويه عزم "على ان يبايع ابا الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوى ..." (٢) ولكن أحد خواصه صرفه عن الفكرة محذرا اياه بقوله : "اذا بايعته استنفر عليك اهل خراسان وعوام البلد ، وأطاعه الديلم ورفضوك، وقبلوا أمره فيك ." (٣) وقد أورد ابن الاثير رواية قريبة من رواية الهمداني ، ونقل من قول ذلك المشير على معزالدولة : "انك اليوم مع خليفة تعتقد انت وأصحابك انه ليس من اهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد انت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه." (٤)

ويصف المسعودى حالة الدولة العباسية في أواخر النصف الاول من القرن الرابع الهجرى بقوله ان الخلفاء "كالمولى عليهم ، لا أمر لهم ينفذ . أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثرها المتغلبون ... واقتصروا على مكاتبتهم بامرة المؤمنين والدعاء لهم على وأما بالحضرة ، فتفرد بالامور غيرهم . فصاروا مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة ، ورضوا بالسلامة." (٥) كل ذلك، "قلة العمارة، وانقطاع السبل ، وخراب كثير من البلاد ، وذهاب الاطراف ، وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من ثغور الاسلام ومدنه ." (٦)

وكان العهد البويهي طافحا بالصراع والفتن والحروب ، نزاعا على الحكم بين الامراء البويهيين انفسهم ، (٧) وبين عناصر الجيوش البويهية من الاتراك والديلم . (٨)

---

(١) ابو يعلى حمزة بن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق (بيروت : مطبعة الاباء اليسوعيين ، ١٩٠٨م) ص ١٠٧ .

(٢) عزالدين ابوالحسن علي بن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر ودار بيروت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م) ، مجلد ٨ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

(٣) محمد بن عبد الملك الهمداني ، تكملة تاريخ الطبرى، تحقيق البرت يوسف كنعان (بيروت: ١٩٥٩م) ، مجلد ١ ، ص ١٨٢ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٨ ، ص ٤٥٢ .

(٦) المسعودى ، ص ٣٤٦ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ .

(٨) مسكويه ، ج ٦ ، ص ٣٤٢ — ٣٤٨ ، ٣٤٨ ، ٣٧٠ — ٣٧٠ و٣٨١ ، ابن الاثير، الكامل مجلد ٩ ص ٤٨ و٤٥٥ .

(٩) مسكويه ، ج٦ ص ٤٩٦ ، ابن الاثير، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٩ و٦٣ و٣٣٦ و٣٦٦ و٤٧١ .

ومع ذلك فانه لم يخل من صفحات مشرقة ، كان ابرزها اصلاحات عضد الدولة بن بويه حين عمر ما خرب من بغداد ، واعاد حفر ما اندثر من القنوات ، ورعى العلوم والاداب والفلسفة (١) .

وحين مضى على البويهيين ما يقرب من قرن من الزمان وهت قوتهم . وقد بلغ من ضعفهم ان اكرادا لقوا بعض جنود جلال الدولة بن بويه فاخذوا دوابهم فلم يستطيعوا عن انفسهم دفعا (٢) وعندما اشرفت ايام الدولة البويهية على الانقضاء كانت بغداد قد وقعت تحت سيطرة قائد تركي من قادتهم يدعى ارسلان البساسيرى ، الذى اصبحت له السيطرة على العراق (٣) . وفي سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤ م طالب الجند الاتراك وزير الملك الرحيم ابي كاليجار بمبالغ كبيرة من المال ، والحوا في الطلب ، فاختفى الوزير بدار الخلافة ، فثار الجند ، وقاموا بالكثير من اعمال السلب والنهب ، ونشروا الفوضى والذعر في بغداد ، وعجز الخليفة ، كما عجز البساسيرى عن تسكينهم . ولم تهدأ ثائرتهم الا بعد ان تسلموا ما ارادوا من اموال (٤) وانحدر البدو العقيليون ، من اتباع قريش ابن بدران ، صاحب الموصل ، فنهبوا بعض المواضع ، كما نهبوا دوابا وجمالا تخص البساسيرى . وقد اشتد الذعر ببغداد " وعظم انحلال امر السلطنة بالكلية . " (٥)

ظهور السلاجقة :

وكانت قد ظهرت في الشرق قوة جديدة استطاعت تثبيت اقدامها في منطقة خراسان ، تلك هي قوة السلاجقة . وينسب السلاجقة الى جدهم سلجوق بن تقاق . ويروى ان تقاق والد سلجوق كان شجاعا ، وقد اهلته شخصيته القوية لان يصبح مقدم الاتراك الغز فيما وراء النهر . وكان تقاق في خدمة ملك الترك ، فاراد ذلك الملك ان يغزو ديار الاسلام ، ويقال ان تقاق نهاه عن ذلك

---

(١) مسكويه ، ج ٦ ، ص ٤٠٤ ــ ٤٠٨.
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٤٠.
(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥٥ و ٥٥٩ و ٥٩٦ و ٦٠١ ــ ٦٠٢.
(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٩٧ ــ ٥٩٨.
(٥) المصدر نفسه ص ٥٩٨ .

وتجادلا ، فاغلظ الملك لتقاق القول ، فغضب هذا ولطم الملك وشج رأسه ، واشتبك في عراك مع الخدم والحرس واغاثه اصحابه فمنعوه . والارجح ان رواية اصطدام تقاق بالملك للسبب المذكور اختلقت فيما بعد ، عندما صار للسلاجقة سلطنة ، ذلك لان تقاق لم يكن قد اعتنق الاسلام في ذلك الحين ومهما تكن اسباب خلاف هذا الزعيم مع ملك الترك ، فانهما تصالحا ، واقام تقاق في خدمة الملك ، وانجب ابنه سلجوق (١) .

ولما كبر سلجوق ظهرت قوته وشجاعته ، فقربه ملك الترك واعطاه لقب شباشي ، اى قائد الجيش . بيد ان سلجوق ما لبث ان تخوف من غدر الملك به ، ففارقه ، ودخل ديار الاسلام واعتنق ديانة المسلمين . ولما توفي سلجوق ترك من الاولاد ارسلان وميكائيل وموسى . وقد قتل ميكائيل في احدى غزواته لاراضي الترك غير المسلمين ، وخلف من الاولاد بيغو وطغرلبك وجغرى بك . وقد اطاعت العشائر التركية اولاد ميكائيل (٢)

وبعد احداث يطول شرحها رأى محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة ، قوة السلاجقة ، واحس بخطرها ، فكاتب ارسلان بن سلجوق واستماله واغراه بالمجيء الى خدمته ، ولكنه سرعان ما قبض عليه عند وصوله ، واعتقله . وقد اشير على محمود بقطع ابهامات السلاجقة حتى يعجزوا عن استعمال النشاب ، او ان يغرقهم في جيحون ، فاستفظع ذلك ، وفرقهم في نواحي خراسان وفرض عليهم الضرائب . وقد ظلوا ساكنين الى ان امتدت اليهم ايدى العمال بالجور والاساءات ، فهاجرت جماعات منهم الى كرمان حيث دخلوا في خدمة اميرها البويهي الذى لم يلبث ان توفي (٣)

وبعد وفاة الامير البويهي انتقل السلاجقة الى اصفهان ، وكان صاحبها تابعا للسلطان محمود بن سبكتكين ، فامره سيده بالايقاع بهم . ولكن الاشتباك لم يقض عليهم ، فاتجهوا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٧٣ — ٤٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، والصفحات ذاتها .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحات ذاتها ، ابو العباس شمس الدين احمد بن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، د ٠ ت) مجلد ٤ ص ١٥٥ — ١٥٧ .

الى اذربيجان.[١] وظلت جيوش محمود الغزنوى تطاردهم الى ان توفي . وبعد وفاته احتاجه ابنه ووريثه مسعود الى استخدامهم ، فعفا عنهم ،[٢] ثم انه اضطر للتوجه الى الهند لمواجهة بعض الاضرابات في أملاكه هناك ، فخلا الجو للسلاجقة .[٣]

وبعد نضال طويل وشاق استطاع السلاجقة ان يستولوا على مرو ، حوالي سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م ، فخطب فيها لداود بن سلجوق ، ولقب بملك الملوك .[٤] وفي سنة ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م أنزل السلاجقة بمسعود بن محمود الغزنوى هزيمة ساحقة ، ففر في مائة من أصحابه عائدا الى غزنة.[٥]

وبعد هذا الانتصار واصل السلاجقة توسعهم غربا وجنوبا . وفي سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م تمكنوا من السيطرة على جميع انحاء خراسان ، وأشاعوا القتل في أرجائها .[٦] وفي سنة ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٤م وجه الخليفة القائم القاضي أبا الحسن الماوردى الى طغرلبك زعيم السلاجقة في رسالة تتضمن استنكار ما سببه من تخريب في خراسان ، وأمرا " بالاحسان في الرعية . فمضى الماوردى ، وخرج طغرلبك فتلقاه على أربعة فراسخ ، اجلالا لرسالة الخليفة." [٧]

وفي سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م وصل الى بغداد وفد مرسل من قبل السلطان طغرلبك ، يحمل الى الخليفة العباسي ووزيره وحاشيته مبالغ من المال والهدايا ، وينقل شكر السلطان السلجوقي على الخلع والالقاب التي كان القائم قد منحها له .[٨]

وهكذا أصبح السبيل ممهدا لقدوم هذه القوة الفتية لتحرر الخلافة السنية مما لحق بها من اهانات على أيدى البويهيين الشيعة ، ولتحميها من الاخطار التي كانت محدقة بها . ولم يواف شهر رمضان من عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م حتى كان طغرلبك قد حل ببغداد ، كما سنرى بعد قليل .

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٥ــ١٥٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .
(٣) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٨٠ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٨٢ــ٤٨٣ .
(٦) ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، المنتظم في تأريخ الملوك والامم (حيدرآباد : مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٩/ ١٩٤٠م) ، مجلد ٨ ، ص ١٠٧ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ١١٦ .
(٨) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٥٨٠ .

الفصل الثاني

نظم الحكم والادارة

الخـــــلافـــــة

تولى منصب الخلافة في الفترة التي ندرسها ثمانية من ابناء الاسرة العباسية • وقد كان المنصب ـ كما هو معروف ـ يتداول بالتوارث ، اذ تلك كانت حاله طوال عهد الاسرتين الاموية والعباسية • وعند بداية العهد السلجوقي كان ابو جعفر ، عبد الله ، الملقب بالقائم بأمر الله هو المتولي لمنصب الخلافة منذ سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م • وقد عين القائم ابنه محمد ، الملقب بذخيرة الدين ، وليا للعهد ، ولكن هذا الابن توفي في حياة أبيه ، (١) سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٥م • وعندما بلغ ابو القاسم عبد الله بن محمد الذخيرة سن الرشد اصبح وليا لعهد جده القائم ، وعند وفاة القائم ورث الخلافة ولقب بالمقتدى ، سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م (٢) وعند وفاة المقتدى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ورث منصبه ابنه ابو العباس احمد المستظهر • ولما توفي المستظهر هذا ، سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م شغل المنصب من بعده ولده ابو منصور ، الفضل ، الملقب بالمسترشد • وبعد قتل المسترشد ، عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م بويع ابنه الراشد منصور ، ابو جعفر • وحين خلع الراشد عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م اختير عمه ابو عبد الله الحسين بن المستظهر الذى لقب بالمقتفي • وقد حل المستنجد يوسف محل ابيه المقتفي عند وفاته سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ، وكذلك كان حال المستضيء ، ابي محمد ، الحسن ، الذى نصبه قتلة ابيه المستنجد ، سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م • (٣)

وهكذا نرى ان الخلافة كانت عباسية وراثية ، تداولها الابناء عن الاباء ، وأن المبدأ الوراثي كان مسلما به لبني العباس ، حتى عندما أقدم السلطان السلجوقي مسعود على خلع الخليفة الراشد ، اذ نراه اختار عم الخليفة المخلوع لشغل المنصب • (٤)

وقد جرت العادة بأن يعين الخليفة ولي عهده في حياته ، وأن يخطب لولي العهد على المنابر • فالخليفة القائم بأمر الله خطب له بولاية العهد في حياة ابيه القادر ، ثم جددت له البيعة بعد موت والده • (٥) وعين القائم ابنه محمد وليا للعهد ، ولما توفي محمد وبلغ ابنه سن الرجولة جعل القائم حفيده هذا وليا لعهده ، وهو الذى لقب بالمقتدى • (٦) وكـــان

---

(١) ابن القلانسي ، ص١٠٧ •
(٢) المصدر والصفحة ذاتهما ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص٩٦ ـ ٩٧ •
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص٨١ و١٩٧ ـ ٢٠٠ ومجلد ١٠ ، ص٤٩ ـ ٤٠ و ٦٠ ـ ٦١ و١٩٢ و٢٣٢ •
(٤) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص٦٠ •
(٥) عبد الرزاق بن الفوطي ، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ، تحقيق مصطفي جواد (دمشق : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، د • ت •) ، المجلد الرابع ، قسم ٣ ، ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧ •
(٦) ابن القلانسي ، ص١٠٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٩٦ ـ ٩٧ •

المستظهر وليا للعهد في حياة أبيه المقتدى.[١] وقد خطب للمسترشد بن المستظهر بولاية العهد ثلاثا وعشرين سنة ، ثم جددت له البيعة بعد وفاة أبيه.[٢]

والواقع ان هذا التقليد ظل مرعيا ، مالم تتدخل لتعطيله ظروف غير اعتيادية ، مثلما حدث عند خلع الراشد بعد حوالي سنة من خلافته ، وتولية عمه المقتفي بدلا منه سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م.[٣]

ورغم ان الخلافة كانت وراثية ، وان كل خليفة كان يعين ولي عهده ، فقد احتفظ بمظهر من مظاهر الشورى ، دون جوهرها ، أعني بذلك عملية المبايعة. فبمجرد وفاة الخليفة كان الوزير وكبار الموظفين يتشاورون في كيفية اعلان النبأ وتدبير امر انتقال الخلافة الى ولي العهد ، ثم يبايعونه ، وبعدئذ يجلس الخليفة الجديد للبيعة العامة التي يحضرها الوزير ونقباء الاشراف والقضاة وكبار الفقهاء ومشايخ الصوفية وغيرهم.[٤] وكان الخليفة الجديد يحرص على أخذ البيعة من السلطان السلجوقي المعاصر له عن طريق رسول يبعث به اليه لهذا الغرض.[٥]

أما سلطات الخليفة فقد كان المفروض — من الناحية النظرية — انه رأس الدولة ، وصاحب السلطة الفعلية ، يقود المسلمين في أمور الدين والدنيا معا ، يؤمهم في الصلاة ويقودهم في الحرب ، ويقيم العدالة ويعين العمال والقضاة لينوبوا عنه في حكم الاقاليم. ذلك كان حال الخلافة أيام قوتها. أما في الفترة التي ندرسها ، او في القسم الاكبر منها ، بتعبير أدق ، فاننا لا نجد أثرا لهذه السلطة الخليفية الا من الناحية النظرية ، وفي ما أودعه بعض الفقهاء بطون ما صنفوه من كتب[٦] ظلت تلقى الاحترام بين اهل العلم طوال الفترة التي نعنى بها ، وقرونا

---

(١) علي بن محمد بن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م) ، ص ١٣.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٥٣٦.

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٦٠.

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ، ص ٨٠ — ٨١ و١٩٧ ومجلد ١٠ ، ص ١٩٢ — ١٩٣.

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٩٧ و ٢٣١.

(٦) ابو الحسن علي بن محمد الماوردي ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية (القاهرة : ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م) ، ص ١٥ — ١٦ ؛

ابو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، الاحكام السلطانية ، بعناية محمد حامد الفقي (القاهرة : ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م) ، ص ٢٧ — ٢٨.

أخرى بعدها ، كما تمثلت هذه السلطة النظرية فيما كان يصدره الخليفة من مراسيم بتقليد السلاطين والامراء باقامة الخطبة لهم على منابر بغداد ، وحرص اولئك السلاطين على الحصول على ذلك التقليد وتلك الخطب.(١) وفضلا عن ذلك فقد كان الخليفة هو الذى يعين قاضي القضاة ببغداد ، وهو الذى كان يعزله.(٢)

لقد تعرض منصب الخلافة في العهد السلجوقي الى هزات وتبدلات كثيرة ، بيد ان بامكان الباحث ان يميز بين ثلاث فترات ضمن هذا العهد ، اختلف وضع الخلافة في كل فترة منها عن وضعها في الفترتين الاخريين:

الفترة الاولى : من سنة ٤٤٧هـ الى سنة ٤٨٥هـ (١٠٥٥ـ١٠٩٢م) ، أى منذ دخول السلاجقة بغداد حتى وفاة السلطان ملكشاه بن ألب ارسلان .

الفترة الثانية : من سنة ٤٨٥هـ الى سنة ٥٤٧هـ (١٠٩٢ـ١١٥٢م) ، أى منذ وفاة السلطان ملكشاه حتى وفاة السلطان مسعود .

الفترة الثالثة : من سنة ٥٤٧هـ الى سنة ٥٦٧هـ (١١٥٢ ـ ١١٧١م) ، أى منذ وفاة السلطان مسعود حتى ظهور صلاح الدين الايوبي .

ففي الفترة الاولى كانت الخلافة خاضعة مستسلمة ، وكان السلاطين الثلاثة ، طغرلبك وألب ارسلان وملكشاه ، أعظم سلاطين السلاجقة . وقد حكموا العراق نفسه حكما مباشرا ، بما في ذلك بغداد ذاتها ، عن طريق نوابهم .(٣) بل لقد تدخل بعض السلاطين ووزراؤهم في شئون الخلافة الخاصة ، مثل ارغام

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ و ٦٢ـ٦٣ ؛ ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٦٢ ؛ ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢١٦و١٢١٨ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٥ ؛ ياقوت الحموى الرومي ، معجم الادباء ، راجعته وزارة المعارف العمومية (القاهرة : د .ت .) ، مجلد ١٦ ، ص ٢١ـ٢٢ ؛ تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي (القاهرة : ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م) ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٣ ؛ ابو محمد عبد القادر بن ابي الوفاء ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية (حيدرآباد : ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ ؛ ابو الفرج عبد الرحمن بن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، بعناية هنرى لاووست وسامي الدهان (دمشق : ١٩٥١م) ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

(٣) انظر الفصل الخاص بوظيفة الشحنة ، ص ١٢٠ ـ ١٢٥ فيما يلي .

الخليفة القائم على تزويج ابنته الى السلطان طغرلبك ، ومثل جمل المقتدى على عزل وزيره ابي شجاع (١) وحمله على عزل ابنه الاكبر من ولاية عهده ، ليصبح ابنه الاصغر وليا للعهد ، لمجرد كون الطفل ابن الخليفة من زوجته بنت السلطان ملكشاه (٢)

ورغم هذه الاستطالات يمكن القول بان مركز الخلافة في فترة الخضوع هذه اصبح افضل مما كان عليه في العهد البويهي ، فهناك زالت هيبة الخلافة تماما[٣]، فضلا عن كون بني بويه من اتباع المذهب الشيعي (٤) وقد جاء السلاجقة باسم انقاذ الخلافة السنية من سيطرة البويهيين ، وبالتالي فقد عملوا على ان يستعيدوا لها بعض الاحترام . وكان الوزير نظام الملك (٤٥٥ - ٤٨٥ هـ) يحرص على حماية الخلافة من عسف السلطان ، وعلى رفع مكانتها (٥) ، ولكن في حدود لا تتعارض مع حرصه على المحافظة على حقوق السلطة في السيطرة الكاملة على شؤون الحكم والادارة في العراق بل وفي بغداد نفسها . اسوة باقاليم السلطنة الاخرى . ومعنى ذلك ان الخلافة اكتسبت قدرا من الاحترام المعنوى ، دون ان يسمح لها بممارسة سلطات تعتبر من حقوق السلطنة .

اما في الفترة الثانية فقد تقلب مركز الخلافة بين حالتي الضعف والقوة ، ذلك ان وفاة السلطان ملكشاه ، آذنت بانقضاء عهد الاستقرار والقوة بالنسبة للسلطنة السلجوقية ، واصبح صراع ابناء البيت السلجوقي على المنصب يستنفد كل جهودهم تقريبا ، واذ ذاك بدأ مركز الخلافة يتحسن . وحينما تسنم كرسي الخلافة رجل من اقوى الشخصيات العباسية ، هو الفضل بن احمد ، المسترشد ، حاول ان يجعل من الخلافة قوة حقيقية ، فجعل لها جيشا خاصا بها وتحكم في العراق كلما خلا له الجو (٦) وباشر الحرب بنفسه فقاد الجيوش ضد مناوئيه ، ووقف من السلاطين مواقف حازمة ، حتى قال عنه بعض المؤرخين انه استبد بالعراق ، ولم يكن للسلطان معه سلطة تذكر (٧)

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٨ و ٣٧٥ ، السبكي مجلد ٤ ، ص ١٣٩ .
(٢) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٥ .
(٣) ابن الاثير ، الباهر ص ١٥ ، وانظر ص ٢٣ - ٢٤ اعلاه .
(٤) الهمداني ، مجلد ١ ، ص ١٨٢ ، ابن الاثير ، الكامل مجلد ٨ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .
(٥) ابن الجوزى المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٦ .
(٦) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٧ - ٥١ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠ - ٥١ .

بيد ان هذا الخليفة ما لبث ان لقي مصرعه بعد هزيمته في معركة حربية ضد السلطان مسعود ، وعادت الخلافة الى حالة الاستسلام السابقة ، واصبح الخليفة يعتمد على اقطاعه واملاكه الخاصة من جديد (١)

اما في الفترة الثالثة فقد زال تسلط السلاجقة على العراق ، واستقلت الخلافة بادارته (٢) رغم ان السلطان سنجر ، صاحب خراسان ، ظل يخطب له بالسلطنة على منابر بغداد حتى وفاته سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م (٣) ، بيد ان هذه الخطبة لم تعن اكثر من سلطة معنوية .

ولكن اذا كانت الخلافة قد استطاعت التخلص من نير السلاجقة فان خلاصها لم يكن بفضل قوتها الذاتية بقدر ما كان ناتجا عن انهيار معسكر اعدائها وتمزق قوتهم . والحقيقة ان مرض الخلافة المزمن كان وصل الى اعماق العظام منذ عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ — ٨٦١ م) ولم تكن صحوة الخلافة في الفترة الاخيرة من العصر السلجوقي الا صحوة الموت ، ولم يكن مظهر القوة الذى انخدع به المعاصرون الا غشاء شفافا اخفى تحته كل عوامل الضعف والانهيار .

لقد حرمت الخلافة من ولاء الشعب الذى كان المفروض فيه ان يحميها في الملمات ، وتخلف — بدلا من الولاء القوي — نوع من العطف الاتكالي الواهن الذى يريد ان ياخذ من الخلافة ولا يعطيها . والسبب في ذلك هو ما جرته الخلافة على نفسها ، او ما جره على هذا المنصب المتصارعون في الحلبة للاستئثار به ، فلم تعد الخلافة مجاهدة للكفار اعداء الامة وراء الحدود ، ولم تعد في الداخل كافلة الهدوء والاستقرار والامن والنظام ، ولم تظل كما كان يرجى منها ، ديدبان العدالة وحامية الحق حتى يضحي الناس بارواحهم دفاعا عنها ، وانما صارت غنيمة ومرتعا للكسالى الراغبين في حياة الترف واللذة والمجون ، خلال فترة مديدة ، تبخرت اثناءها حماسة عامة الناس للخلافة شيئا فشيئا ، حتى درجة العدم . ولعل اعتماد الخلافة على الجنود المرتزقة الاجانب كان السبب الرئيسي الذى اضعف الروح العسكرية ، حتى

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص٥٤ .

(٢) محمد بن محمد العماد الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، وهو مشتمل على كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة ، اختصر الفتح بن علي البندارى ، وقام على نشره M. TH. Houtsma (ليون : مطبعة بريل ، ١٨٨٩ م) ، ص٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم مجلد ١٠ ص١٦٤ و ١٧٨ .

اذا صحت الخلافـة صحوة الموت التي وصفنا وجدت نفسها مضطرة للاعتماد على اولئك الجنود المرتزقـة الاجانب ، ولم تجد مجالا للتفكـير في تجنيد العامة .

ومصداق ما ذهبنا اليه في حكمنا على الخلافة بالضعف رغم مظاهر القوة هو ما كانت عليه الاوضاع في بلاط الخليفة المستنجد (ت ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م) . فقد كان مقدم امراء دولة الخليفة هو قطب الدين قايماز ، وكان مملوكا ارمنيا ، "وقد عظم شأنه وعلا مكانه واستولى على البلاد وتحكم في الدولة ... وعمد الى اكابر امراء الدولة فزوجهم ببناته ، وكان بينه وبين الوزير مماراة (١)" فتآمر الاثنان على الخليفة وهو مريض ، وتآمر معهم طبيب الخليفة ، فاجبروا المستنجد على دخـــول الحمام واغلقوا عليه بابه وتركوه حتى مات (٢) فالخلافة اذن ما زالت اسيرة في يد المرتزقة الغرباء والمغامرين من الوزراء .

هذا ، وقد كان الخليفة يحظى باحترام وعطف من جانب العلماء والفقهاء السنة ، ومن رجال السنة البارزين وعامة اهل بغداد السنة : فعندما كان الخليفة المسترشد في حرب مـــع السلطان محمود كان بعض كبار فقهاء الحنابلة يرونّ منامات واحلاما مفادها انهم رأوا — في احلامهم — احمد بن حنبل وصاحبه ذاهبين لمعاونة الخليفة المسترشد في حربه ، والدعاء له بالنصر ، وتضيـــف الرواية ان الخليفة انتصر (٣) واذا ضربنا صفحا عن العنصر الغيبي الخرافي في القصة فان دلالتها العامة تبين مدى العطف على الخليفة . ومثل هذا المعنى نجده في وصف ابي الوفاء بين عقيـــل (ت ٥١٣ هـ) ، كبير الحنابلة في ايامه ، لاجتماعه بالخليفة المسترشد ومبايعته له (٤) وعندما بايـــع القاضـــي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الخليفة المقتفي سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م ، نيابـــة عن عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل ، قال ، اى الشهرزوري : " هذا امير المؤمنيـــن

---

(١) موفق الدين ابو العباس احمد بن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء (بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ م) ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٢) المصدر نفسه والصفحات ذاتها ، ابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٠٠٩ — ١٠١٠ .

(٣) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٣ .

قد صار اليه خلافة الله في ارضه..." (١) كذلك وصف الكاتب الاصفهاني الخليفة بانه خليفة الله في ارضه حين قال عن حصار السلطان محمد لبغداد بان السلطان وجنده " قاتلوا الله تعالى بقتال خليفة في الارض..." (٢) وعندما اراد السلطان محمود اخضاع الخليفة المسترشد ونزل بعسكره الجانب الشرقي من بغداد كان العامة بالجانب الغربي " يسبون الاتراك ويقولون : يا باطنية ، يا ملاحدة ، عصيتم امير المؤمنين ، فعقودكم باطلة وانكحتكم فاسدة .. " (٣)

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص٥٤ .
(٢) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص٢٤٧ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص٢٥٩ .

الخلفاء العباسيون في العهد السلجوقي

١- القائم بأمر الله ، عبد الله بن القادر احمد ٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣١-١٠٧٤م (١)

٢- المقتدي بأمر الله ، عبد الله بن محمد بن عبد الله ٤٦٧-٤٨٧هـ/ ١٠٧٤-١٠٩٤م (٢)

٣- المستظهر بالله ، احمد بن عبد الله بن محمد ٤٨٧-٥١٢هـ/ ١٠٩٤-١١١٨م (٣)

٤- المسترشد بالله ، الفضل بن احمد بن عبد الله ٥١٢-٥٢٩هـ/ ١١١٨-١١٣٤م (٤)

٥- الراشد بالله ، منصور بن الفضل بن احمد ٥٢٩-٥٣٠هـ/ ١١٣٤-١١٣٦م (٥)

٦- المقتفي لامر الله ، محمد بن احمد المستظهر ٥٣٠-٥٥٥هـ/ ١١٣٦-١١٦٠م (٦)

٧- المستنجد بالله ، يوسف بن محمد بن احمد ٥٥٥-٥٦٦هـ/ ١١٦٠-١١٧٠م (٧)

٨- المستضيء بالله ، الحسن بن يوسف بن محمد ٥٦٦-٥٧٥هـ/ ١١٧٠-١١٧٩م (٨)

---

(١) ابن القلانسي ، ص١٠٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص١٠٧ و ١٢٥-١٢٦.

(٣) المصدر نفسه ، ص١٢٦ و٢٠٠.

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص٥٣-٥٤.

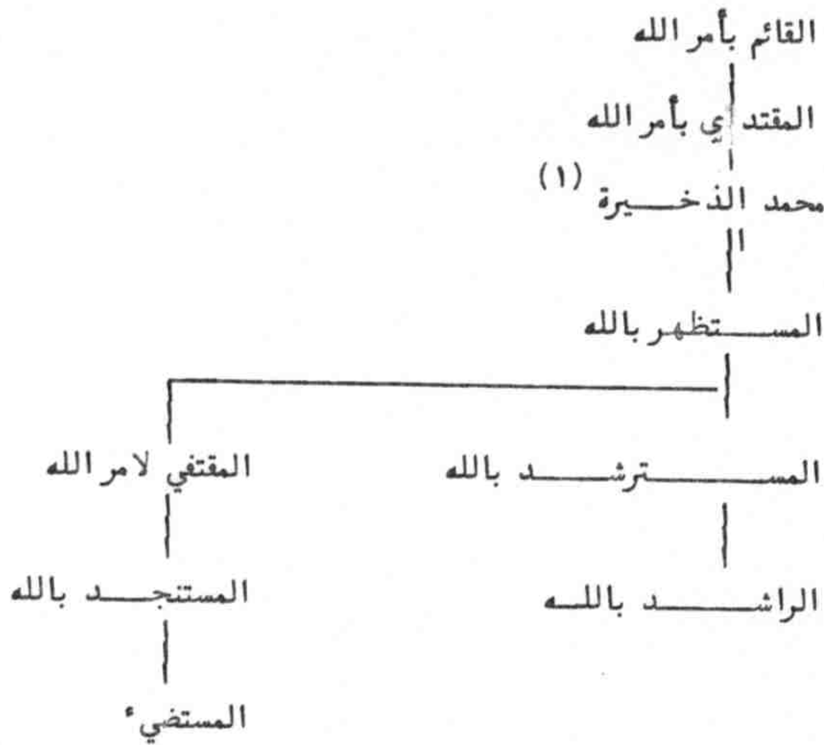
(٥) المصدر نفسه ، ص٥٠ و٦٠ . وقد توفي الراشد بعد خلعه بسنتين تقريبا ، اى سنة ٥٣٢هـ.

(٦) المصدر نفسه ، ص٦٠ - ٦١ و ١٩٢.

(٧) المصدر نفسه ، ص١٩٢ و ٢٣٢.

(٨) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص٣٦١ و٤٥٩.

علاقة النسب بين الخلفاء في العهد [illegible]
السلجوقي



(١) كان وليا للعهد ، ولم يل الخلافة ،لانه توفي في حياة أبيه ٠ انظر ابن القلانسي ،ص١٠٧٠

السلطـــــنة :

دخل السلاجقة بغداد لاول مرة بقيادة السلطان طغرلبك ، في شهر رمضان سنة سبع واربعين واربعمائة للهجرة ، الموافق كانون الاول خمس وخمسين والف للميلاد . وكان الخليفة القائم هو الذى راسل طغرلبك واستدعاه ، بعد ان شعر بالخطر من جانب ابي الحارث ارسلان البساسيرى ، المتحكم في شئون الخلافة آنذاك (١) وكان طغرلبك قد اصبح سلطانا للسلاجقة منذ ان احتلوا الرى سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م ، واصبح " اليه الامر والنهي في السلطنة (٢) ..." ومنذ تنصيب طغرلبك ظل شاغل المنصب يعتبر رئيسا للبيت السلجوقي ، واستمر الامر كذلك الى ان اصبح للسلاجقة سلطانان اثر النزاع الذى نشب بين ورثة ملكشاه والطامعين في العرش من بعده ، وكان تتش اخو ملكشاه ، الذى كان ملكا على بلاد الشام بتولية اخيه له ، هو اول من تلقب بلقب سلطان ، مزاحما بن اخيه الذى حمل اللقب بعد وفاة والده ملكشاه (٣) والحقيقة ان منصب السلطنة كان مقلقلا منذ بداية دخول السلاجقة الى بغداد ، وقد جاء الخطر من جهة افراد البيت السلجوقي نفسه ، الذين تولى كبارهم نواحي السلطنة ، وحمل كل منهم لقب ملك ، وجمع له جيشا من المماليك والمرتزقة واخذ يتحين الفرص للوثوب الى منصب السلطنة . ويكاد تاريخ السلاجقة ، من اوله الى آخره ، ان يكون مجرد قصة صراع ابناء البيت السلجوقي على هذا المنصب ، فالسلطان طغرلبك ، مؤسس الدولة نفسه ، ثار عليه اخوه ابراهيم ينال ، ونشبت الحرب بينهما قرب همذان ، واستعان كل منهما بنفر من الزعماء السلاجقة . ولكن طغرل ظفر باخيه ، وخنقه (٤) وبعد وفاة طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م نشب الصراع الدموى من جديد بين ابن اخيه سليمان ، الذى خلفه في السلطنة ، وبين الب ارسلان ، اخي

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٧ ، وجمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٥ م) ، مجلد ٥ ، ص ٥٦ و ٦٥ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٧ .

(٣) ابو القاسم علي بن الحسن بن عساكر ، التاريخ الكبير ، اعتنى بتهذيبه عبد القادر بدران (دمشق : مطبعة روضة الشام ، ١٣٣١ هـ/ ١٩١٣ م) مجلد ٣ ، ص ٣٤٠ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦٣٩ ــ ٦٤٠ و ٦٤٥ .

سليمان نفسه ، ثم بين الب ارسلان وبين عمه قتلمش ، الى ان انتهى الامر بانتصار الب ارسلان .[(١)] وعندما قتل البارسلان سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م وانتقلت السلطنة الى ابنه ملكشاه ، طمع فيه عمه قاورت بك ، واندلعت الحرب بينهما ، الى ان ظفر ملكشاه بعمه فقتله .[(٢)] وما ان توفي ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ، وخلفه احد ابنائه ، حتى هب اخوه تاج الدولة تتش ، يجمع الجيوش ، ويعلن نفسه سلطانا ، ثم يلتحم في معارك ضد ابناء أخيه حتى لقي مصرعه سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م.[(٣)] ثم عمت الفوضى دولة السلاجقة ، وغدا من النادر ان يستقر احد سلاطينهـا في كرسية . ويذكر ابن الجوزى في ترجمته للسلطان بركياروق (ت٤٩٨هـ/ ١١٠٥م) ، ان الخطبة لهذا السلطان قد قطعت ست مرات في بغداد .[(٤)] ويصف ابن الاثير حياة بركياروق ، خلال ترجمته له ، انها تقلبت بين الرخاء والشدة ، وانه كان يشرف على الهزيمة الماحقة ، ثم يكون له النصر ، وحينا يكون في قمة مجده فينزل به خصومه مرارة الهزيمة وذل الانكسار .[(٥)] كما يذكر ابن الاثير نفسه ، في ترجمته للسلطان محمد بن ملكشاه (ت٥١١هـ/ ١١١٧م) ان خطبته قطعت عدة مرات أيضا .[(٦)]

وقد جرت العادة ان يوصي السلطان السلجوقي بمن يخلفه بعد موته ، فطغرلبك ، أول سلاطينهم ، أوصى بالمنصب بعده لابن أخيه سليمان ، لان طغرلبك نفسه لم يخلف أولادا ، ولانه كان قد تزوج من أرملة أخيه ، أم سليمان هذا . لذلك أوصى له بالسلطنة رغم كونه صبيا ، ورغم ان أخاه البارسلان كان الاكبر والاكفأ لشغل المنصب .[(٧)] كذلك فان الب ارسلان اوصى بالسلطنة بعده لابنه ملكشاه ، الذى كان اهلا لها ، وأوصى به وزيره نظام الملك .[(٨)]

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٦٠ و١٦٢ .

(٢) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٤٨ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٠ـ٢٧١ .

(٣) ابن عساكر ، مجلد ٣ ، ص ٣٤٠ ، وابن الاثير ، الباهر ، ص ١٢ـ١٣ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤٤ ، وابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢١٨ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣٨١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٢٦ .

(٧) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٩ـ١٦٢ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .

اما ملكشاه فقد عين ولي عهده في حياته ، وطلب من الخليفة ان يخطب لولي عهد السلطنة على المنابر في الجوامع ، بعد ذكر الخليفة والسلطان ، فتم له ذلك (١) ومحمد بن ملكشاه (ت ٥١١ هـ/ ١١١٧) حرص على ان يجلس ابنه على العرش قبيل موته ، عندما احس بقرب انقضاء حياته (٢) . ولكن وصية السلطان الراحل لم تكن تلقى الاحترام الا اذا كان الموصى له ذا كفاءة تمكنه من تسنم عرش السلطنة (٣) وفي بعض الحالات كانت اراضي الدولة السلجوقية تقسم بين ابناء السلطان المتوفي ، ولكن الصراع كان ينشب ، مع ذلك ، للاستئثار بمنصب السلطنة (٤) وبعد وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ابن البارسلان سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م اصبح منصب السلطنة لعبة بيد قادة الجند المرتزقة فاخذوا يولون سلطانا ثم يعزلونه ويولون غيره ، وصارت حيازة احد ابناء السلاجقة من قبل احد قادة الجند ، حتى ولو كان ذلك السلجوقي طفلا ، تعتبر ورقة رابحة ، اذ ان ذلك القائد يحارب باسم ذلك الامير ليستولي على البلاد ويغنم الاموال ويتصرف بالملك لنفسه (٥) وقد ساعد على نشوء هذا الوضع انه كان من عادة بعض السلاطين ان يسلموا ابناءهم الى بعض كبار رجال الدولة ليتربى في كنفه ، فالسلطان محمد بن ملكشاه تسلم ابنه مسعود سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م الى الامير مودود صاحب الموصل ، ليربيه . ولما قتل مودود سنة ٥٠٧ وتولى الامير آق سنقر البرسقي مكانه تسلم سعود اليه . وبعد البرسقي سلم السلطان مسعود الى جوش بك ، صاحب الموصل ايضا (٦) وكان عند عماد الدين زنكي اثنان من ابناء السلطان محمود بن محمد

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ٣٨ .
(٢) ابن خلكان ، مجلد ٤ ص ١٦٤ - ١٦٥ .
(٣) مثال ذلك ان وصية السلطان طغرلبك لابن اخيه الطفل ، سليمان ، لم تحترم اذ انتزع اخوه الكبير البارسلان السلطنة منه . انظر ابن خلكان مجلد ٤ ، ص ١٦١ - ١٦٢ ؛ ولم تحترم وصية ملكشاه بعد البارسلان ، اذ سرعان ما اندلع الصراع بين اخيه تتش واولاده ، وبين اولاده انفسهم بعضهم ضد البعض الاخر . انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ٦٣ و ٧٦ - ٧٧ - و ٨٤ - ٨٥ .
(٤) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٠ .
(٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٠٥ - ٢١٠ ، وابن خلكان ، مجلد ٣ ص ٢٧٦ ، ومجلد ٤ ، ص ٢٨٨ . وابن المغوطي ٤ قسم ٢ ص ١٢١٦ ، وابن الاثير ، الباهر ، ص ١٠٨ و ١١٤ - ١١٥ .
(٦) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٨٨ .

ابن ملكشاه بن الب ارسلان ، وكان احدهما معتقلا بسنجار والاخر معتقلا بالموصل .[١]

كانت دولة السلاجقة دولة عسكرية ، وكانت القوة والسيطرة وحدهما تربطان البلاد التي دانت لهم . فالسلاجقة الاتراك الذين قدموا من وراء النهر ليستقروا في خراسان ، ثم لينطلقوا منها فيخضعوا ما يعرف الان بايران والعراق وسوريا واجزاء من تركيا لم تكن تربطهم بشعوب هذه البلاد سوى رابطة الدين . وصحيح ان تلك الرابطة كانت اقوى الروابط الانسانية في تلك العصور ، بيد ان اكثر الحكام السلاجقة لم يشتهر عنهم الحرص على المثل الدينية في تعاملهم مع الشعوب التي حكموها ، بل على العكس من ذلك ، فقد اشتهر عن الكثيرين منهم العسف والظلم ومصادرة الاموال . لذلك لا يبدو غريبا الا يجد الباحث اثرا للتعاطف بين السلاجقة ورعاياهم ، وكان التنافر هو السمة البارزة .[٢]

وكان السلطان بالضرورة رجلا عسكريا ، وكان بقاؤه في منصبه مرهونا بقدرته العسكرية وتحركه المستمر ، وكان فن الحكم بالنسبة اليه هو فن الحصول على الجنود المرتزقة ،[٣] وتجميع المحاربين الاقوياء المغامرين في معسكره . ولعل مما يرتبط بذلك اننا نجد السلاطين في حركة شبه دائمة ، وهذه ظاهرة تلفت النظر ، فالسلطان الب ارسلان والسلطان ملكشاه ، وهما اقوى سلاطين السلاجقة ، وهما اللذان تمتعت الدولة في عهدهما بأكبر قدر من الاستقرار ، هذان السلطانان لم يشذا عن قاعدة الحركة المستمرة هذه .[٤] ويبدو ان منشأ هذا الميل نحو التحرك الدائم هو طبيعة السلاجقة البدوية . ولعل أولئك الرجال

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٠٥ـ٢٠٧ .

(٢) سنعود الى بحث هذه الظاهرة اثناء محاولتنا لتقويم الحضارة العربية في العهد السلجوقي .

(٣) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٧١ـ٢٧٤ .

(٤) لا يتسع المجال للتأريخ لتحركات سلاطين السلاجقة ، لان تتبعا من هذا القبل يخرجنا من نطاق هذه الدراسة الحضارية . ويمكن الرجوع الى المجلدين العاشر والحادى عشر من كتاب الكامل في التأريخ ، لابن الاثير ، لاجراء مثل هذا التتبع .

الذين كانوا يحركون تلك القوات العسكرية حركة شبه مستمرة كانوا يدركون ان الجيوش ان لم تشغل بالغزو او الحركة اشتغلت بالفساد والافساد . وفي عهد السلطان الب ارسلان وعهد ابنه السلطان ملكشاه (٤٥٥ ـ ٤٨٥ هـ) نتج عن هذه التحركات فتوح وتوسيع لرقعة الدولة ، وتم انتزاع بلاد الشام من ايدى الفاطميين الذين كانوا يخالفون العباسيين والسلاجقة في المذهب . اما في عهد من خلفهما من السلاطين فقد غدت هذه التحركات تطاحنا داخليا هائلا خرب البلاد وحطم قواهلـ

والظاهرة التي تثير الدهشة حقا هي ان حكم السلاجقة ، منذ دخولهم العراق ، لم يرتكز الى عصبية عائلية او قومية او دينية ، فرجال الاسرة السلجوقية كانوا في عراك شبه مستمر فيما بينهم ، وكان معظم قادة جيوشهم ، وجنودهم ، ان لم يكونوا كلهم ، من المماليك والمرتزقة ، تركا واكرادا وارمنا واحباشا في بعض الاحيان . اما وزراؤهم وكتابهم فكانوا من الفرس . فقد كان قسيم الدولة اقسنقر مملوكا للسلطان الب ارسلان . وعندما تولى ولده ملكشاه السلطنة اصبح آقسنقر اكبر امراء السلطان ، حتى انه كان يقف بجانبه ، وكان يهين اخاه تتش امامه احيانا (١) وكان من كبار الامراء التابعين لملكشاه ابو نصر ساوتكين سرهنك بن عبد الله الخادم الجلالي الامير ، وقد سلم اليه السلطان ملكشاه " ممالك خراسان فضبطها احسن ضبط واحبه اهل ولايته ..." (٢) وساوتكين هذا رقيق خصي (٣) وعندما دارت المعركة بين السلطان ملكشاه وعمه قاورد سنة ٤٦٥ كان ضمن المقاتلين في جيش ملكشاه مسلم بن قريش العقيلي ، صاحب الموصل ، ومنصور بن دبيس الاسدى ، صاحب الحلة ، ومن معهما من المقاتلين العرب والاكراد . وعندما حكم ملكشاه على عمه بالموت خنقا تولى التنفيذ مملوك ارمني (٤)

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص٤ ـ ٥ ، وابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ورقة ٢٦٧ ق ـ ٢٦٩ و.
(٢) ابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص٧٣٣ .
(٣) ذكر السمعاني (الانساب ، ٥ ، ص٤ ـ ٥) ان لقب الخادم يطلق على المماليك الخصيان الذين كانوا يخدمون في القصور .
(٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص٤٨ .

وكان مجاهد الدين بهروز الذى ولي شحنكية العراق اكثر من ثلاثين سنة "خادما روميا أبيض اللون ... وكان خادم السلطان محمد ...".[(١)] وناهيك بأهمية منصب الشحنة الذى يعتبر نائبا للسلطان في العراق . وكانت تكريت اقطاعا بلبهروز هذا ، وقد كان في خدمته نجم الدين أيوب ، الكردى ، وقد جعله دزدارا لقلعة تكريت .[(٢)] وكان السلطان سنجر يشترى المماليك ، فاذا اعجبه احدهم اشترى له مماليكا ، ربما بلغوا الفا ، وجعله أميرا ، وأقطعه اقطاعات.[(٤)] وكان غلمان عماد الدين زنكي وحرسه الخاص من الترك والارمن والروم .[(٥)] وقد عمل اسامة بن منقذ فترة في خدمة الامير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن ارتق ، السلجوقي ، وكان من قادة جيش قرا أرسلان هذا خادم افرنجي .[(٦)] وكان في جند اسامة عدد من الاكراد .[(٧)] وبعد وفاة رضوان بن تتش بن الب ارسلان ، صاحب حلب ، خلفه ابنه الصبي ألب أرسلان ، وكان المشرف والمدبر لشئون دولته هو خادم ابيه ، الخصي لؤلؤ البابا .[(٨)] بل اننا نجد خصيا حبشيا من كبار أمراء السلطان ، وهو مسعود البلالي ، يصبح شحنة للعراق ، ونائبا للسلطان في بغداد .[(٩)] وثمة خصي حبشي آخر اسمه جوهر الخادم ، أحد مماليك السلطان سنجر ، قيل انه كان متوليا على المملكة متحكما فيها ، وقد اغتاله الباطنية سنة ٥٣٤هـ.[(١٠)]

أما عن العصبية الدينية فان اغلب حروب السلاجقة كانت ضد مسلمين آخرين ، او ضد بعضهم البعض . وفيما يتعلق باتخاذ وزراء من الفرس يكفي ان نذكر من هؤلاء الوزراء عميد الملك الكندرى ،[(١١)] ونظام الملك ،[(١٢)] وأن السلاطين استوزروا خمسة من أولاد نظام الملك وعددا من احفاده.[(١٣)]

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٦ ، ص ١٤١ .
(٢) انظر ما يلي .
(٣) ابن خلكان ، مجلد ٦ ، ص ١٤١ .
(٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٠٨ .
(٥) اسامة بن منقذ ، ص ٨٣ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ٤٨ — ٤٩ .
(٧) ابن عساكر ، مجلد ٣ ص ٩٤—٩٥ .
(٨) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٣٠ ، ابن خلكان ، مجلد ٥ ص ٢٧٥ .
(٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٨٧ .
(١٠) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣١ .
(١١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٤—٦٨ .
(١٢) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
(١٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٣٥ ، الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٩ و ٢٤١ .

ويبدو ان اللغة الفارسية كانت لغة البلاط السلجوقي ، فالسلاطين استوزروا رجالا من الفرس، وقد وردت بضع اشارات الى استعمال السلاطين لهذه اللغة ،[١] ولكنها قليلة ، ولا تكفي لتأكيد صحة هذا الغرض، بيد انني لم اعثر على ما ينفيه . وربما كان السلاطين قد ادركوا قصور اللغة التركية في صورتها الدارجة في ذلك العصر عن الاتساع لاغراض الحكم والادارة .

وحيث اشتغل السلطان السلجوقي بالامور العسكرية ، في حالة كونه سلطانا قويا ، وبانتهاب اللذات ، كما هي حالة بعض السلاطين المتأخرين ، فقد ترك لوزيره وكبار موظفيه تدبير ادارة مملكته، حتى انه قيل عن ملكشاه نفسه ، انه لم يكن له من الامر شيء بجانب وزيره نظام الملك ، وكان منصرفا الى الصيد ، بينما التدبير كله للوزير.[٢] ويصف السبكي مدى اعتماد السلطان ملكشاه على وزيره فيذكر ان وزارة نظام الملك كانت فوق السلطنة ، وأنه بالرغم من الاتساع العظيم لدولة ملكشاه فانه "لم يكن له مع نظام الملك غير الاسم والابهة والتنوع في اللذات ، وكان مشغولا بالصيد واللذة ، ونظام الملك هو الامر المتصرف ، لا يجرى جليل ولا حقير الا بأمره ، مستبد بذلك .[٣] وربما كان في هذا الكلام بعض المبالغة من حيث درجة انصراف ملكشاه الى اللذات ، سيما اذا اخذنا بعين الاعتبار ان السبكي وابن خلكان ونظام الملك ينتمون جميعا الى المذهب الشافعي ، وان هذين المؤرخين ربما قصدا رفع شأن الوزير على حساب السلطان . ولكن ، بالرغم من ذلك فان هذا الوصف يؤكد لنا اعتماد السلطان على وزيره ، في كثير من الاحيان ، الى درجة كبيرة . وكان للسلطان بجانب الوزير عدد من الموظفين الهامين ، كالحاجب ، والطغرائي ، والمستوفي ، وصاحب المخزن .[٤] ولا تنحصر أهمية هؤلاء الموظفين فيما كانوا يقومون به من واجبات منصبهم الرسمي ، بل تتعدى ذلك الى المشاركة في النشاط السياسي الظاهر والخفي ، في بلاط السلطان ، حيث التنافس والكيد والدس لا تكاد تتوقف.[٥]

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ٣٥، الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق، ص ٥٩ و٢٤١ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ١، ص٣٩٥ — ٣٩٧ .

(٣) السبكي ، مجلد ٤، ص٣١٧ .

(٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٥٩ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ١، ص ٣٩٨ و٤٤١، ومجلد ٤، ص ٧٧، ابن الفوطي ، مجلد ٤، قسم ١، ص ٤٠٤، السبكي ، مجلد ٤، ص ٣٢٦ .

العلاقة بين الخليفة والسلطان

في أواخر العهد البويهي برزت شخصية أبي الحارث ارسلان البساسيري التركي ، أحد مماليك عضد الدولة بن بويه، [١] وقد استفحل امر البساسيري " فاستولى على البلاد ، وطار اسمه وتهيبته امراء العرب والعجم ، ودعي له على كثير من المنابر العراقية ... وجبى الاموال ولم يكن القائم بأمر الله يقطع أمرا دونه. " [٢] وفي سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م اتهم رئيس الرؤساء ، وهو وزير الخليفة ، البساسيريّ بأنه كاتب صاحب مصر . وقد شهد جماعة من الاتراك عند الخليفة ان البساسيرى أخبرهم بعزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة . وعند ذلك تحقق القائم من سوء نيته ، فكاتب " طغرلبك امير الغز ، وهو بنواحي الرى ، يستنهضه على المسير الى العراق. [٤] وما ان حل شهر رمضان من تلك السنة حتى اقبل طغرلبك بجحافل السلاجقة على بغداد ، فوصلها في الخامس والعشرين من ذلك الشهر. وأرسل الخليفة وزيره على رأس موكب عظيم لاستقبال طغرلبك، واستحلفه الوزير على الاخلاص للخليفة ، وللملك الرحيم ، آخر البويهيين . [٥] ولكن فتنة ما لبثت ان نشبت بين عامة بغداد وجند السلاجقة ، الذين دخلوا البلاد لشراء حاجياتهم ، فقبض طغرلبك على الملك الرحيم واتهمه بتدبير مؤامرة على عساكره . وقد عتب طغرلبك على الخليفة ، وعتب الخليفة عليه ، لان الملك الرحيم كان قد استجار بالقائم ، فتعهد له بحماية حياته . وقد هدد الخليفة بترك بغداد ، [٦] فكان هذا اول احتكاك بين الخلافة وبين السلطان السلجوقي .

وفي شهر ذى الحجة من سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م استقبل الخليفة سلطان السلاجقة ، وقال له بلسان وزيره : " ان أمير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنس بقربك ، وقد ولاك

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٨٢ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٤) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦١٠ — ٦١١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٦١٣ .

جميع ما ولاه الله من بلاده ، ورد عليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك في ذلك ، واجتهد في نشر العدل ، وكف الظلم واصلاح الرعية ... وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب ، واعطي العهد وخرج ، وارسل الى الخليفة خدمة كثيرة ، منها خمسون الف دينار ، وخمسون مملوكا اتراكا من اجود ما يكون ، ومعهم خيولهم وسلاحهم ، الى غير ذلك من الثياب وغيرها (١)

وكان طغرلبك بعيد دخوله بغداد ، قد امر بتعمير دار المملكة (٢) ثم شرع الان يمارس سلطاته في بغداد والعراق ، بموجب هذه الولاية الرسمية الشكلية ، فضمن البصرة والاهواز بثلاثمائة الف وستين الف دينار (٣) . وفي سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م نجد السلطان طغرلبك يضمن واسط بمائتي الف دينار ، ثم يضمن البصرة (٤) وفي السنة التالية نراه يولي محمود بن الاخرم الخفاجي على الكوفة ، ويضمنه خواص السلطان فيها باربعة الاف دينار في السنة بعد صرف واليها السابق (٥) . وفي سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م يجعل من جملة ما قدمه مهرا لابنة الخليفة بعقوبة ، بالاضافة الى ما كانت تملكه زوجة السلطان المتوفاة من ارض العراق (٦) وفي سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م نجد السلطان يعقد " ضمان بغداد على ابي سعيد القايني بمائة وخمسين الف دينار .. (٧) ولكننا نلاحظ انه اقتصر في تلقيب طغرلبك على لقب " ملك المشرق والمغرب " وكان اول من لقبه الخليفة بالسلطان رسميا هو الب ارسلان ، الذى خلف طغرلبك في منصب السلطنة (٨) وقد بدأ سلاطين السلاجقة يعينون

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦٣٤ .

(٢) ابو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد او مدينة السلام (القاهرة: مكتبة الخانجي ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١ م) ، مجلد ١ ، ص ١٠٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦١٣ — ٦١٤ .

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص ٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢٥ — ٢٦ .

(٨) كمال الدين عمر بن احمد بن العديم ، بغية الطلب من تاريخ حلب ، مصور عن مخطوطة/ محفوظة في مكتبة احمد الثالث باستنبول تحت رقم ٢٩٢٥ ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٧٩ ق .

ممثلا لهم في بغداد ، يعرف ب " الشحنة " هو بمثابة حاكم عسكرى ونائب للسلطان يحفظ مصالحه (١) وهكذا يصبح بامكاننا ان نحدد اسس العلاقات بين الخليفة والسلطان بالنقاط التالية :

أ — كان الخليفة هو صاحب السلطة من الناحية النظرية

ب — ان حكم السلطان وسلطاته ما هي الا منحة وتفويض من الخليفة ، وذلك من الناحية النظرية ايضا .

جـ — ان مركز الخليفة الديني واستقرار نظرية حق العباسيين في الخلافة ، في نفوس المسلمين من اهل السنة ، وعدم تصور انتقال الخلافة الى السلاجقة ، وحاجة هؤلاء الى اكساب حكمهم وتسلطهم صفة الشرعية الدينية في نظر الشعوب التي انطوت تحت لوائهم كل ذلك هو الذى مكن الخلافة العباسية من الاستمرار في عهد السلاجقة .

د — اعتبرت بلاد الخلافة التي يصل اليها سلطان السلاجقة ، بما في ذلك مدينة بغداد نفيها ، تحت حكم السلطان المباشر ، يتصرف فيها اداريا وماليا كيف شاء ، ولكن في حدود الشريعة والمصلحة ، ولو من الناحية النظرية .

هـ — كانت الخلافة في الفترة الاولى من العهد السلجوقي مستضعفة مغلوبة على امرها ، عارية من كل سلطة حقيقية .

هكذا بدأت العلاقات بين الخليفة والسلطان منذ السنة الاولى . بقيت نقطة ربما تحتاج الى ايضاح ، وهي : ما هي الالتزامات المالية التي كانت للخليفة على السلطان ؟ اورد ابن الجوزى في حوادث سنة ٤٨٧ هـ ان السلطان بركيا روق بن ملكشاه قدم بغداد و " تقرر مع الخليفة المقتدى بان يحمل السلطان اليه المال الذى ينسب الى البيعة . وان يخطب له

---

(١) هذا الوصف خاص بشحنة بغداد ، اما اختصاصات صاحب المنصب في المدن الاخرى فهي اقرب الى اختصاصات صاحب الشرطة ، التي كانت تدخل ضمن مهام شحنة بغداد ايضا (انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥)

بالسلطنة على رسم ابيه . (١) وفي عبارة " المال الذى ينسب الى البيعة " ما يوحي بان ما كان يدفع هو مجرد مبلغ مقطوع وقت تولى السلطان الجديد فقط (٢) وثمة اشارات اخرى تقول ان السلاطين كانوا يحددون للخليفة اقطاعا ينفق من داخله (٣) . ومن هنا يمكن ان نستنتج ان السلطان كان يقدم مبلغا من المال عندما يقلده الخليفة ويخلع عليه بالطريقة التقليدية ، وانه ، اى السلطان ، كان يحدد للخليفة اقطاعاً يدر دخلا دائما . ولكن الخليفة الجديد كان يدفع للسلطان مالا عند مبايعة الاخير له ، فقد جاء في رد الراشد على السلطان مسعود عندما بعث يطالبه بالمال " .. واما مال البيعه فلعمرى الا انه ينبغي ان تعاد الي املاكي واقطاعي حتى يتصور ذلك .." (٤) وعندما قدم السلطان ملكشاه الى بغداد سنة ٤٨٠ هـ بعث " الى الخليفة صندوقين فيهما مال .." (٥) وفي سنة ٥١٣ هـ بعث السلطان سنجر الى بغداد بكتاب فيه اقطاع للخليفة بخمسين الف دينار ، مع ثياب وهدايا اخرى (٦)

ومن هنا يمكن القول : ان السلطان كان يقدم للخليفة مالا وهدايا عندما يحصل منه على التقليد بالسلطنة ، وان الخليفة كان يدفع للسلطان والقادة المتنفذين ، في حالة ضعف السلطان ، مبالغ من المال عند مبايعته بالخلافة وان السلاطين كانوا يقدمون — احيانا — بعض الهدايا على سبيل المجاملة والتودد ، في اوقات غير محددة ، عندما يكون جو العلاقات بين الطرفين حسنا .

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص٨٠ .
(٢) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص٦٥ .
(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص٥١ ، ابن الطقطقي ، ص٢٧٦ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ص٥٤ ، وانظر مجلد ٨ ، ص٥٩ نقيه مثل اخر .
(٥) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ، ص٣٦ .
(٦) المصدر نفسه ، ص٢٠٦ .

بقي ان نذكر ان هيئة السلطنة السلجوقية لم تدم الا ما يقارب اربعين سنة (٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ـ ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م) ، هي التي كان خضوع الخلافة للسلطنة فيها تاما ، وهي المدة التي شغل منصب السلطنة فيها طغرلبك والب ارسلان وملكشاه ، وعندما تفجر النزاع داخل الاسرة السلجوقية ، ذلك النزاع الذى لم ينقطع الا بانقطاع دولتهم ، لم تتمكن الخلافة من التحرر بسهولة ، الا انها صارت تجد الفرصة لاستعادة بعض النفوذ ، وممارسة بعض الضغوط ، غير انها ـ من ناحية اخرى ـ لم تسلم من عبثهم . وقد سبق ان قسمنا العهد السلجوقي الى ثلاث فترات عند بحثنا لتطور مركز الخلافة ، والواقع ان هذا التطور كان مرتبطا ـ بالدرجة الاولى ـ بنوع العلاقة بين الخلافة والسلطنة . لذلك فان هذا التقسيم ينبغي ان يظل في الحسبان اثناء بحث العلاقة بين الخليفة والسلطان .

ومنذ بداية العهد السلجوقي حاول الخلفاء توثيق ارتباطهم بالسلاجقة ، وتاكيد ولاء السلاطين لهم . وكانت المصاهرة هي التي تذرع بها الخلفاء لتحقيق هذه الغاية . ففي سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦ م تزوج الخليفة القائم بابنة اخي السلطان طغرلبك (١) ثم انه زوج ولي عهده المقتدى بابنة السلطان الب ارسلان وذلك سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م (٢) كذلك خطب الخليفة المقتدى ابنة السلطان ملكشاه بن الب ارسلان سنة ٤٧٤ هـ/ ١٠٨١ م حيث زفت اليه عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧ م . غير انه لم يلبث ان اعرض عنها ، فطلبت العودة الى كنف ابيها بعد ان كانت قد انجبت طفلا . ويبدو ان هذا الزواج الفاشل لم يحقق الغرض المرجو منه ، فقد جاء ملكشاه الى بغداد بعد حرد ابنته عازما على خلع الخليفة ، الا انه مات قبل ان ينفذ وعيده (٣) . وفي سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م

---

(١) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص١٦٩ ـ ١٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٣) تاج الدين ابو طالب علي بن انجب بن الساعي ، نساء الخلفاء ، المسمى جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والاماء (القاهرة: دار المعارف ، د . ت) ص١٠٩ ـ ١١٠ .

ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص٣٧٤ ؛ السبكي مجلد ٤ ص٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

نجد الخليفة المقتفي يتزوج بنت السلطان محمد بن ملكشاه ، اخت السلطان مسعود ،[١] غير انه لا يمكن القول ان رتابة العلاقات بين الخليفة والسلطان خلال الفترة الاولى نتجت بالضرورة عن هذه المصاهرات ، بل ان الاهم من ذلك هو قوة السلطان وثبات مركزه من ناحية ، وضعف الخليفة وخضوعه من ناحية اخرى . ويمكن ان يضاف الى ذلك ان الوزير نظام الملك ، الذى كان صاحب الامر النافذ في دولة السلاجقة طوال ثلاثين سنة ، بذل جهودا كبيرة في تحسين العلاقة بين الطرفين .[٢] وكان الخلفاء يحفظون له هذه المكرمة .[٣] على ان هذه العلاقات الهادئة لم تسلم من بعض الزوابع العابرة ، فقد تعرضت للخطر عندما رفض الخليفة القائم تزويج ابنته من طغرلبك ، فاضطر الى الرضوخ والموافقة على الزواج ،[٤] كما ان السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك تدخلا في اجبار الخليفة على عزل وزيره ابي شجاع.[٥] وفي سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م كان السلطان ملكشاه قد قدم الى بغداد بنية خلع الخليفة ـ كما ذكرنا ـ الا ان موته حال دون حدوث الصدام .

وبموت ملكشاه وغياب وزيره المصلح القوى ، نظام الملك عن مسرح الاحداث ، نشب الصراع بين أبناء البيت السلجوقي ، وبدأت حقبة جديدة في علاقة الخلفاء بالسلاطين . فعند موت ملكشاه حرصت زوجته تركان خاتون على ان يكون الامر لابنها محمود . وكانت من قوة الشكيمة والجلد بحيث استطاعت ان تضبط الجيش وتمنع اللطم والعويل ، ثم تفرق الاموال لارضاء الجند ، وترتب الامر مع الخليفة المقتدى ليقلد ابنها محمود ، ذا الخمس سنوات والعشرة أشهر ، منصب السلطنة . وخطب لمحمود الطفل على منابر بغداد ، وأفاض الخليفة عليه الخلع . ويبدو ان المقتدى كان يترقب فرصة ضعف من السلاجقة ليستعيد للخلافة شيئا من هيبتها وسلطتها ، اذ نراه يبذل قصارى جهده ليكون بيده هو تعيين أمير الجيوش ومتولي شئون العمال وجباية الاموال . وحرصت أرملة ملكشاه من جانبها على ان يكون ذلك من اختصاصات ابنها . ويبدو ان المساومة كانت عنيفة ، اذ

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٤، ص ١٦٥ .

(٢) السبكي ، مجلد ٤، ص ٣٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢٢ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(٥) السبكي ، مجلد ٤، ص ١٣٩ .

لجأ الطرفان الى الفقهاء ، فافتى الغزالي بعدم جواز ما تطلبه تركان خاتون ، وافتى بعض الفقهاء بجواز ذلك " فغلب قول الغزالي (١) " وقد عملت ام محمود للقبض على بركيا روق ، الاخ الاكبر لابنها ، وهو من ام ثانية تدعى زبيدة خاتون ابنة عم ملكشاه ، فارسلت تركان احد القادة الى اصبهان ومعه خاتم زوجها الراحل ، وامرت ذلك القائد باعتقال بركيا روق وضبط المدينة ، خشية مطالبته بالسلطنة ومنازعته لابنها . وعندما شاع نبأ موت السلطان ملكشاه ، ووصل الى حامية اصبهان ثار مماليك نظام الملك واقتحموا معتقل بركيا روق وحرروه ، وخطبوا له باصبهان ، وذلك لان تاج الملك ابا الغنائم الذى اصبح وزيرا للسلطان الطفل محمود ، هو الذى اوغر صدر ملكشاه على سيدهم نظام الملك واغراه بقتله (٢) وسارت تركان خاتون بقواتها الى اصبهان ، فخرج منها بركيا روق بجنده ، ثم انتصر على امرأة ابيه بعد ان انضم اكثر قادة جيشها اليه ، فطارد شرائم خصومه الى سور اصبهان ، وضرب عليها الحصار . وفي داخل المدينة تمرد بعض مماليك نظام الملك ولم يهدأوا الا بعد ان قتلوا الوزير تاج الملك ابا الغنائم ومثلوا به ، انتقاما لسيدهم وذلك في محرم ٤٨٦ هـ/ شباط ١٠٩٣ م (٣) .

وفي بلاد الشام ، حيث كان الملك تاج الدولة تتش بن الب ارسلان واليا من قبل اخيه الراحل ملكشاه ، خطب تتش لنفسه بالسلطنة ، ثم استولى على الرحبة ، ودخل في طاعته آق سنقر قسيم الدولة صاحب حلب ، وبوزان متولي الرها . ثم طلب من الخليفة ان يقلده السلطنة فلم يجبه (٤) وفي اواخر تلك السنة ، اعني سنة ٤٨٦ هـ/ اوائل ١٠٩٤ م ، وصل

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٢ _ ٣ ؛ وابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٠ _ ٢١٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ ؛ وقد ذكر ابن الجوزي في ترجمته لبركيا روق (المنتظم ، ٩ ، ص ١٤٤) ان تركان خاتون نفسها دبرت ، او اشتركت في التدبير ضد نظام الملك ، لانه حذر السلطان من جعل ولاية العهد لابنها بسبب صغر سنه .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ _ ٢١٦ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٦ _ ٧٧ . وابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٩ _ ٢٢٠ .

بركيا روق بن ملكشاه الى بغداد مطالبا الخليفة بالخطبة له ، ومتعهدا بدفع مبلغ من المال . وقد تم الاتفاق بينهما بالفعل وامر الخليفة كاتب انشائه ان يعد العهد لبركيا روق ، فاعده ، وجلس المقتدى يقرأه قبل اعلانه ، وهو يتناول طعامه ، وقهرمانته شمس النهار قائمة على راسه ، واذ به يتلاشى فجأة ويسقط فاقد النطق والحركة (١) وقد اتهمت القهرمانة بدس السم للخليفة (٢) وذلك امر محتمل جدا ، سيما في وسط هذه الدوامة من التآمر والدسائس والصراع . والمرجح ان هذه المؤامرة ان كانت صحيحة قد نفذت لصالح تركان خاتون ، ام محمود ، التي كانت ما تزال باصبهان تواصل مساعيها الخرقاء لاستخلاص عرش السلطنة لابنها الطفل . ففي شعبان من سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣ م دعت احد امراء السلاجقة ، وهو اسماعيل بن ياقوتي بن داود ، ابن عم ملكشاه ، وخال بركيا روق ، دعته الى اصبهان ، واعدة اياه بان تتزوج منه وان تجعل كل السلطات الفعلية بين يديه . وقد استجاب ذلك الامير الاحمق لاغراء تلك النمرة ، واشتبك مع ابن اخته في معركة كان نصيبه منها هزيمة منكرة ، حيث فر للاحتماء باسوار اصبهان ، ومع ذلك فقد تلقته تركان خاتون بالاكرام وامرت بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم ابنها ، كما انها ضربت اسمه على السكة . ولكن قادة جيشها خاصة الامير انر ، اكبرهم ، عارضوا مشروع الزواج هذا ، واضطروا اسماعيل لمغادرة اصبهان ، فقتله بعض رجال بركيا روق (٣) ثم توفيت تركان خاتون سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م " فانحل امر ابنها محمود بموتها ، وعقد الامر لبركيا روق (٤) ..." الذى كان قد خطب له بالسلطنة في بغداد اوائل السنة ذاتها (٥) ثم اندلعت نيران الحرب بين بركيا روق وعمه تتش بن الب ارسلان ، فحلت الهزيمة ببركيا روق قرب اصبهان ، حتى انه اضطر للجوء الى اسوار المدينة وهي تحت حكم اخيه وعدوه اللدود محمود . وقد ادخله رجال محمود خدعة ليقبضوا عليه ، بعد ان كانوا قد عارضوا في دخوله . ولقد حاولوا سمل عينيه ، ولكن محمود وقع آنذاك فريسة مرض الجدرى ، فنصح الطبيب ابن التلميذ رجال محمود

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٠ _ ٨١ .
(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٢ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٤ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٤ .
(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٩ .

ان يبقوا على بركياروق ،حتى اذا ما اصاب سيدهم مكروه نصبوه مكانه .[١] وابتسم الحظ لبركياروق اذ مات اخوه بعلته بعد ايام ،فتسنم هو عرش أصبهان . ثم حالفه الحظ ثانية عندما تمكن من هزيمة عمه تتش وقتله قرب الري ،وذلك في صفر من سنة ٤٨٨هـ/ شباط ١٠٩٥م .[٢] ويورد ابن الجوزي عبارة يفهم منها ان خطبة بركياروق كانت مقطوعة في بغداد اوائل عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م،[٣] واشارة اخرى مفادها ان علاقة هذا السلطان بالخلافة كانت حسنة في رمضان من تلك السنة .[٤] وفي سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م وصل السلطان محمد بن ملكشاه الى بغداد مصطحبا أخاه سنجر ،وجلس لهما الخليفة المستظهر في قبة التاج ،وخلع على محمد "الخلع السبع التي جرت عادة السلاطين بها ، والبس الطوق والتاج والسوارين ، وعقد له الخليفة اللواء بيده ،وقلده سيفين ، وأعطاه خمسة أفراس بمراكبها ،وخلع على أخيه سنجر خلعة أمثاله ،وخطب لمحمد بالسلطنة في جامع بغداد ... وتركوا الخطبة لبركياروق ... ثم قوى أمره واستظهر ، وجرى بينه وبين أخيه محمد المصاف على الري ، وانكسر محمد ..." [٥] ثم يأتي بركياروق الى بغداد في صفر ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م فيستقبله وزير الخليفة ،ويدخل المدينة ،ويقيم بدار السلطنة .[٦] ثم قطعت الخطبة للسلطان بركياروق في رجب من السنة ذاتها ،وأعيدت للسلطان محمد [٧] وكان ذلك بسبب هزيمة بركياروق . وخلاصة القول ان خطبة بركياروق قطعت ست مرات[٨] خلال مدة سلطنته التي دامت اثنتي عشرة سنة وأشهرا . (٩)

وعندما توفي بركياروق عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م [١٠] صفا الجو للسلطان محمد ،ولم يبق له منازع ،حتى توفي عام ٥١١هـ/ ١١١٧م .[١١]

---

(١) المصدر نفسه ،ص ٢٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ،ص ٢٣٤و ٢٤٤-٢٤٥ .

(٣) ابن الجوزي ،المنتظم ،مجلد ٩ ،ص ٨٤ .

(٤) المصدر نفسه ،ص ٨٧ .

(٥) ابن خلكان ،مجلد ٤ ،ص ١٦٣ .

(٦) ابن الجوزي ،المنتظم ،مجلد ٩ ،ص ١١٢ .

(٧) المصدر نفسه ،ص ١١٣ .

(٨) ابن الجوزي ،المنتظم ،مجلد ٩ ،ص ١٤٤ .

(٩) ابن خلكان ،مجلد ١ ،ص ٢٤٣ .

(١٠) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(١١) المصدر نفسه ،مجلد ٤ ،ص ١٦٤ .

وهكذا نرى ان السنوات الثلاث عشرة التي تلت وفاة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك كانت طافحة بالفوضى والحروب والدمار، وأن الخلافة عانت مر المعاناة من تصارع المطالبين بلقب السلطنة والخطبة بأسمائهم على المنابر. وفي مثل هذا الجو كان من المحتم ان تفكر الخلافة في محاولة استرداد شيء من هيبتها وسلطانها ، حتى بالرغم من استكانتها واستنامتها في الفترة الاولى من حكم السلاجقة . وربما كان مما شجع الخلفاء على هذا النحو من التفكير ان قاعدة الحكم السلجوقي الرئيسية كانت خارج العراق . هذا بالاضافة الى الصراع الدامي الذى دار بين الجيوش السلجوقية باسم الملوك والسلاطين الاطفال الذين كانت تحركهم النساء والوزراء والقادة المغامرون الطامعون في مغانم الحكم.[١] ويبدو لي ان الخلافة تلمست طريقها نحو التحرر بحذر شديد ، سيما بعد سقوط السلطان محمود الطفل ، الذى تمكن الخليفة ان يحرز على حسابه بعض السلطات. ومن نشاط الخليفة في هذا الميدان محاولاته اغراء السلاجقة بعضهم ببعض ، فنراه ينهض لمناصرة السلطان محمد في حربه مع بركياروق سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م بل ويجمع السفن للقتال ، ويتخذ الاستعدادات للدفاع.[٢] وفي سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م نجد الخليفة المقتدى يتجرأ فيأمر بقطع الخطبة للسلاطين المنازعين جميعا ، وبعدم ذكر احد غير الخليفة ، وذلك بعد ان كانت الخطبة قد اعيدت لبركياروق في المحرم من السنة ذاتها.[٣]

ولم يكد السلطان محمد بن ملكشاه يقضي نحبه سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م حتى بدأت حلقة جديدة من حلقات الصراع على منصب السلطنة ، بين سنجر بن ملكشاه ، الذى كان واليا على خراسان من قبل أخيه بركياروق ثم محمد ، ويحمل لقب ملك ، وبين ابن أخيه محمود بن محمد ، الذى تولى السلطنة بعد وفاة أبيه .. لقد استنكف سنجر ان يكون تابعا لابن أخيه ، فقامت بينهما حروب كان النصر النهائي فيها حليف سنجر، الذى كان قد اعلن نفسه سلطانا واقيمت له الخطبة ببغداد اثر اول انتصار احرزه ضد ابن أخيه.[٤] ثم انه رق لابن أخيه ، وصالحه

---

(١) كان عمر محمود بن ملكشاه خمس سنوات وأشهرا ، ويذكر ابن الجوزى (المنتظم ٩، ص ١٤٤) ان عمر بركياروق عند وفاته بلغ أربعا وعشرين سنة وشهرين . وقد ذكر ابن خلكان (مجلد ١، ص ٢٤٣) ان بركياروق مكث في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأشهرا . ومعنى ذلك انه تسلطن وعمره اثنتا عشرة سنة ، أو أقل من ذلك بقليل .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٤ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٥٤٨ ـ ٥٥٣ .

وجعله ولي عهده ، واعاد عليه ما كان انتزعه من من بلاد ، باستثناء الري ، ثم ان سنجر أمر بأن يخطب للسلطان محمود على المنابر بعده ، وطلب من الخليفة تنفيذ ذلك.(١) وهكذا ، ولاول مرة بدأ يخطب لسلطانين سلجوقيين معا ، في آن واحد وموضع واحد .(٢)

ولكن اذا كان النزاع بين سنجر وابن أخيه قد انتهى بالصلح على النحو الذى ذكرنا فانه احتدم من جديد بين السلطان محمود بن محمد وأخيه مسعود .(٣) وبعد موت السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣١م نشبت الحرب بين مسعود وعمه سنجر،(٤) ثم بين طغرل بن محمود وأخيه داود ، ثم بين مسعود وطغرل ، مما لا يتسع المجال لتفصيله في مثل هذه الدراسة .

أما في جانب الخلافة فان شخصية قوية تسنمت العرش ، أعني الفضل بن المستظهر ، الذى لقب بالمسترشد ، وتولى سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م،(٥) والصراع على أشده بين المتنازعين على كرسي السلطنة ، وهو صراع عجزت معه الخلافة عن ارضاء اى من الاطراف المتعاركة في حلبته ، لان تلك الاطراف تبادلت النصر والهزيمة مرارا ، ولانه كان على الخلافة ان تذعن للمنتصر على الدوام . ويبدو ان المسترشد عقد العزم على استرجاع سلطة الخلافة وهيبتها والتخلص من نير السلاطين . ويصف ابن الاثير المسترشد بقوله: "تمكن في خلافته تمكنا عظيما ... فانه استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الاوقات سوى الخطبة . واجتمعت عليه العساكر ، وقاد الجيوش وباشر الحروب ..."(٦) ولكن المسترشد كان

---

(١) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ٢١٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠، ص ٥٦٢، وابن خلكان ، مجلد ٤، ص ٢٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ١٩٧ .

(٦) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٥٠ـ٥١ .

— على ما يبدو — بعد العدة للتخلص من السلاجقة منذ وقت مبكر ، فيرسل الرسل الى مختلف الجهات التي تتبع الخلافة العباسية ، ويتصل بالقوى التي ينتظر منها العون والتاييد ، ففي سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢م نصادف رسولا من قبل المسترشد عند بني منقذ بشيزر ، قرب حماه . وبالرغم من اننا لا نعرف طبيعة المهمة التي جاء من اجلها ابو طالب الواعظ ، سوى انه " وصل الى حلب رسولا من الخليفة المسترشد سنة ستعشرة وخمس مائة ، واجتمع بني منقذ (١) .." فان معرفتنا بطموح هذا الخليفة تشجع على ترجيح ما استنتجناه . وفي سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣٢م تعرضت بغداد للحصار على يد السلطان مسعود ومعه عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل ، ودافع المسترشد عن بغداد ، كما انه قام بالاتصال بصاحب فارس ، قراجا الساقي ، الذى خف لنجدة الخليفة ، فانهزم المهاجمون (٢) وفي السنة التالية نجد الخليفة المسترشد يحاصر الموصل التي جاء صاحبها معاونا للسلطان مسعود على حصار بغداد ، ولكن زنكي كان قد حصن الموصل وترك فيها نائبه يدافع عنها ، فارتد المسترشد الى بغداد دون ان يتمكن من فتح المدينة (٣) وفي سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م نجد السلطان مسعود في بغداد وقد ساء مركزه ، حيث ان اخاه طغرل تفوق عليه . ويشعر مسعود بالضعف فيطلب من الخليفة المسترشد ان يمده ، فيزوده المسترشد بالمال والرجال ، ومع ذلك بدا منه التخاذل . وهنا نلاحظ مدى شعور المسترشد بقوته ، اذ نراه يوجه شحنة بغداد ، جاولي القسيمي ، الى السلطان مسعود ليحضه على الخروج الى محاربة اخيه ، كما اوصى الخليفة الشحنة ان يهدم خيمة مسعود ان رأى منه عدم امتثال . فارتاع مسعود وعجل بالرحيل صوب همدان . بيد ان خبر وفاة اخيه طغرل اراحه من عناء القتال فاغذ السير صوب همدان واستولى عليها . ثم ان بعض رجال مسعود تمردوا عليه وجاءوا الى المسترشد وشجعوه على مهاجمة مسعود (٤) ، بيد انهم تخلوا عن الخليفة في لحظة الشدة وانهزموا . ويبدو ان مسعودا استمالهم او اغراهم ، فهزم جيش الخليفة واسر هو نفسه ، ثم اغتيل ، واتهم السلطان بتدبير اغتياله ، وذلك سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥م (٥) ولكن قتل المسترشد على الصورة التي وصفنا لم يوقف الصدام بين الخليفة والسلطان ، فقد قامت الحرب

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٨ ، ورقة ١١٣/ ق ، و ١١٤/ و .
(٢) ابن خلكان ، مجلد ٦ ، ص ١٤٢ .
(٣) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٢١٥ .
(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٨ — ٥٠ .
(٥) محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١) ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٨ — ٢٥٠ .

بين مسعود وبين الخليفة الراشد الذي خلف اباه المسترشد ، وانهزم الخليفة ، ودخل مسعود بغداد ، وغادرها الراشد ، واقدم السلطان على خلع الخليفة وتولية آخر مكانه ، هو عمه المقتفي بن المستظهر ، وذلك في ذي القعدة ٥٣٠ هـ/ آب ١١٣٦ م . ومضى الراشد الى الموصل ، ثم اخرج منها وكان مصيره الاغتيال ، كمصير ابيه ، سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م (١) وقد كان اسر المسترشد ثم قتله ، وخلع الراشد بعده ، في سنتين متتاليتين ضربة ساحقة نزلت بالخلافة وحطمت قوتها ، فقد استولى السلطان مسعود على كل اموال المسترشد ثم فعل الشيء نفسه بالنسبة للراشد ، بل ونهب اثاث دار الخلافة وتصرف في دار الضرب واخذ التركات ثم طالب الخليفة الجديد ، المقتفي بمائة الف دينار ، فرد المقتفي بانه لم يبق للخلافة شيء " سوى الدار " وما بقي الا ان نخرج من الدار ونسلمها (٢) .. " وعندما بويع المقتفي اشترط عليه مسعود ان " لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر (٣) " كذلك فقد " استحلف على انه لا يشترى مملوكا تركيا . وكان يقتني مدة خلافته اما ارمنيا او روميا ، ولم يكن له من الاتراك الا ترشك ، ملكه قبل الامامة (٤).. "

ورغم هذه الضربة التي اصابت مكانة الخلافة وقوتها ، فقد وجدت بغداد في الخليفة المقتفي خير من يقيلها من عثارها . وقد اسعفه الحظ برجل صلب سديد الرأى كان كاتبا في الديوان ، فاظهر من الحكمة ونفاذ البصيرة ما اهله لتولي الوزارة وهكذا اصبح ابو المظفر عون الدين يحي بن هبيرة يد المقتفي اليمنى فيما نذر نفسه له من انقاذ الخلافة (٥) وكان المقتفي " شجاعا يباشر الحروب بنفسه ، ويبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد ، لا يفوته منها شيء (٦) ويبدو ان عدم استقرار اوضاع السلطان مسعود ساعد المقتفي ووزيره فيما كانا بصدده . فقد جاء رجال السلطان مسعود المتردون عليه وهددوا بغداد وحاولوا ابتزاز

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٥٦ و ٢٥٩ و ٢٦٧

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٦٠ـ٦١ .

(٣) المصدر نفسه والصفحتان ذاتهما .

(٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٣٥ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧ .

(٦) ابن الاثير الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٥٦ .

اتاوة من الخليفة حتى ينصرفوا ، ولكن الخليفة جمع بالمبلغ جنودا وتمكن من طرد اولئك الامراء الذين كان من ضمنهم ابن اخي السلطان نفسه (١) وكانت وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م هي الحد الذى انتهى عنده تسلط السلاجقة على الخلافة ، اذ بمجرد وفاة ذلك السلطان صمم الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة على التحرر نهائيا من كابوسهم ، فكونت الخلافة لها جيشا ، واصلحت اسوار العاصمة وتحصيناتها ، واعيد حفر الخندق المحيط بها ، وعين الخليفة عمالا للولايات وبعث بعيونه الى كل صقع وناحية ، ثم انه طرد شحنة بغداد ، وممثل السلطان المعين من قبله ، والذى يمكن اعتباره ، حسب المصطلحات الحديثة ، حاكما عسكريا ومندوبا ساميا في العراق . وعندها سار الشحنة الى ناحية الحلة وجمع جيشا لتحطيم قوة الخلافة النامية . ولكن قوات بغداد استطاعت ، بقيادة الوزير ابن هبيرة ، ان تمزق ذلك الجيش وتقضي عليه (٢)

وهكذا انتهت الفترة الثانية من فترات النضال بين الخلافة والسلطنة بانتصار الاولى ، بعد ان عانت من الخضوع والاستكانة والاهانة والاذلال والتنكيل طوال مائة عام . ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد ، فقد كان ما زال على الخلافة ان تستقبل بضع حملات سلجوقية سنرى انها تنجح في دفع خطرها .

كان مسعود قد اوصى بولاية عهده لابن اخيه ملكشاه بن محمود (٣) وقد نصب هذا في السلطنة ، ولكن قادة الجيش ما لبثوا ان عزلوه وعينوا بدلا منه اخاه محمد شاه . وبعد ان قتل محمد شاه الامير خاصبك بن بلنكرى ، اكبر قادة الجيش ، وهو الذى كان السبب في تعيينه ، ارسل الى الخليفة المقتفي يطلب اقامة الخطبة له ببغداد . ولما اهمل الخليفة طلبه عول على الزحف على بغداد . وخرج الخليفة على راس قواته ، ونشبت المعركة في بجمزا ، وتمكن جيش الخليفة من الحاق الهزيمة بالقوة الغازية (٤) وفر محمد عائدا الى همذان ، ورجع الخليفة الى بغداد

---

(١) الكاتب الاصفهاني تواريخ آل سلجوق، ص ٢٢٢ — ٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٤ — ٢٣٥.

(٣) ابن الاثير الكامل، مجلد ١١، ص ١٦١.

(٤) ابن الغوطي، مجلد ٤، قسم ٢، ص ١٢١٦؛ جعل ابن الغوطي هذه المعركة في اواخر سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م ، ولكن ابن الجوزى (المنتظم، ١٠، ص ١٥٣ — ٤) ذكرها ضمن حوادث سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م وابن الجوزى عاصر هذه الاحداث بنفسه وكان ببغداد وفي سن الرجولة ويؤيد ذلك ما اورده ابن الاثير (الكامل ، ١١ ، ص ١٦٢) من ان محمد تولى السلطنة سنة ٥٤٨ هـ

تسبقه بشائر النصر المؤزر .(١) ومع ذلك فقد ظلت الخلافة ، رغم انتصارها ، معنية بما يجرى في معسكر العدو ، عاملة على اضعافه بكل وسيلة . ففي سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م وصل الى بغداد احد المتسلطنين ، وهو سليمان بن محمد بن ملكشاه ، يطالب بالسلطنة ، الا انه لبس ثوب الخضوع والتذلل للخليفة حتى سمح له بدخول بغداد .(٢) وقد استقبل سليمان بوفد رسمي من قبل الخليفة ، وانزل في دار السلطنة ، وخطب باسمه على المنابر ، بيد ان استقباله كان دون ما جرت به العادة للسلاطين ، كما انه لم يحظ من الخليفة بلقب السلطنة ، اذ لم يمنح سوى لقب المعظم . ثم ان المقتفي عين لسليمان وزيرا ، وجهز له جيشا ووجهه الى اذربيجان لحرب السلطان محمد بن محمود . ولكن سليمان انهزم أمام خصمه ، وعاد قاصدا بغداد ، فاعترض طريقه زين الدين على كوجك ، نائب صاحب الموصل ، وقبض عليه واعتقل في قلعتها في شعبان ٥٥١هـ/ ١١٥٦م .(٣)

ولكن اذا كان الخليفة قد رفض منح سليمان لقب سلطان فقد ظلت الخلافة تعترف للسلطان سنجر بن ملكشاه ، صاحب خراسان ، بلقب السلطنة ، وظل اسم سنجر يذكر على منابر بغداد ، مقرونا بلقب سلطان حتى وفاته سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م .(٤)

وفي تلك السنة تعرضت بغداد لحصار شديد حين غزاها السلطان محمد ، يظاهره على كوجك نائب صاحب الموصل ، وانقطعت الطرق وتعرض الكثيرون من الحجاج للنهب والقتل ،(٥) وقد أشرف الخليفة ووزيره على القتال الذى دام عدة أيام ، صنعت خلالها ثمانية عشر الف قارورة للنفط ، استعملها جيش الخليفة والبغداديون في قذف عساكر محمد شاه .(٦) ثم اضطر الجيش المهاجم الى الانسحاب بسبب صمود المدافعين عن المدينة ، وبسبب ما وصل من أخبار من ان ملكشاه ، أخا محمد ، قد احتل

---

(١) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٩١ ــ ١١٩٢ .

(٣) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٤٠ ــ ٢٤٢ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٦٤ و١٧٨ .

(٥) محيي الدين ابو محمد عبد القادر بن ابي الوفاء ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية (حيدر آباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، د .ت .) ، جا ، ص ٨٧ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٦٨ ــ ١٧٥ .

همذان ، ونهب اموال محمد واسرنساء واطفال قادته وجنوده (١) . وكان الخليفة المقتفي قد حرض اصحاب الاطراف على مهاجمة بلاد الملك محمد واقطعهم اياها سلفا (٢) وهكذا نجحت الخلافة سياسة وحربا . ومما يجدر ذكره ان السلطان محمد حاول ، عندما احس بعجزه عن احراز نصر عسكري على الخلافة ، ان يلجأ الى الدسائس" وكان الطبيب النصراني المشهور ابن التلميذ يداوي الخليفة من مرض الم به ، وفي الوقت نفسه مرض السلطان محمد فاستدعى له ابن التلميذ . فعرض وزير السلطان على الطبيب عشرة الاف دينار لكي يسم الخليفة ولكنه ابى رادا بان ذلك يخرج عن حدود مهنته كطبيب (٣)

وفي سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م توفي المقتفي وورث الخلافة ابنه المستنجد الذي وصف بانه كان "صارما متيقظا فتاكا (٤) وقد اقر وزير ابيه يحي بن هبيره على الوزارة (٥) وكان الصراع بين الخليفة والسلطان قد خفت حدته ، بسبب التطاحن المستمر بين السلاجقة على منصب السلطنة وقد حاول ملكشاه بن السلطان محمود ، الذي حالف الخليفة ضد السلطان محمد وكان لاقتحامه عاصمته همدان حين كان محمد يحاصر بغداد اثر كبير في اجباره على تركها ، حاول ان يعيد نفوذ السلاجقة الى بغداد ذلك انه عندما قويت شوكته وكثرت جموعه وجه رسولا الى بغداد وطلب ان يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ، ويعيدوا القواعد بالعراق الى ما كانت اولا ، والا قصدهم (٦) ويبدو ان الوزير ابن هبيره لم يشأ ان يجازف بحملة عسكرية لتاديب هذا السلجوقي المتجرئ فعمد الى الاسلوب الذي كان شائعا في ذلك العصر ، وهيأ لملكشاه من قضى عليه بالسم (٧) وفي اواخر سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م قتل سليمان شاه على يد رجاله (٨) وعلى اثر ذلك قطعت خطبته في بغداد في

---

(١) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
(٢) ابن الاثير، الباهر، ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٣) ابن ابي اصيبعة، ص ٣٤٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٧ .
(٥) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ١٠ ، ص ١٩٣ .
(٦) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١١، ص ٢٦٣ .
(٧) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
(٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٧ .

المحرم من العام التالي (١) وهوآخر سلجوقي خطب له في العاصمة العباسية وان كان قد حرم من لقب سلطان كما ذكرنا (٢) ثم كانت خاتمة جهود السلاجقة لاسترداد نفوذهم مجيء قائد تركماني اسمه شملة ، على راس قوة سلجوقية . وطلب شملة من الخليفة ان يسلمه بعض المناطق العراقية(٣) باعتبارها اقطاعا لسيده الملك السلجوقي ، منحه اياه سلطان السلاجقة انذاك ، ارسلان شاه . وقد رفض المستنجد ، بطبيعة الحال ، هذا الطلب الصفيق ، ولم يجد صعوبة في طرد القوة الغازية (٤)

رابعا : الحكم في الاقاليم :

بلغت دولة السلاجقة ذروة اتساعها في عهد السلطان ملكشاه بن الب ارسلان (ت ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م) ، اذ امتدت " من كاشغر .. الى بيت المقدس طولا ، ومن القسطنطينية الى بلاد الخزر عرضا."(٥) وسنقتصر في حديثنا عن حكم الاقاليم على الجزء العربي من هذه الامبراطورية ، وهو الذى يشمل العراق والجزيرة وبلاد الشام .

والذى يلاحظه الدارس لهذه الحقبة من تاريخ هذه المنطقة هو ان البلاد لم تكن مقسمة الى اقاليم ادارية محددة وثابتة ، وانما كانت المدن الكبيرة وما يتبعها من بلدان وقرى هي المعالم البارزة للتقسيمات الادارية . وكانت الوحدات الادارية تكبر وتصغر حسب راى السلطان وظروف حكمه او حسب ما يحرزه امراء الاقاليم في محاولاتهم الدائمة للتوسع بعضهم على حساب بعض .

فاذا ما جعلنا امر التغيير المستمر في وضع الاقاليم الادارية وحجمها في حسابنا فاننا نستطيع القول ان الاقسام الادارية الرئيسية في المنطقة العربية من سلطنة السلاجقة هي :

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٩٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .
(٢) انظر ما سبق ص ٦٠ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٠ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ص ٣٢٨ — ٩ .
(٥) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٠ .

ا - العراق
ب - الموصل
ج - حلب
د - دمشق

ولعل من المفيد أن نوجز في سطور قليلة تطور الوضع السياسي لكل ولاية من هذه الولايات، وعلاقاتها، الواحدة منها بالاخرى، وعلاقة كل منها بالسلطنة. ويتعذر علينا التوسع في دراسة كل اقليم على حدة، لان مثل هذا العمل يستلزم دراسة خاصة مستقلة، لكل منها.

ولاية العراق:(١)

لم تكن حدود العراق في القرنين الخامس والسادس الهجريين تنطبق على حدود العراق الحالية، بل كانت تطابق تلك التى عرفها الجغرافيون العرب في القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى). فقد ظل التعريف معولا عليه، اذ نجد أبا الحسن الماوردى (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) وأبا يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م) وياقوت الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) يلتزمونه تقريبا، مع اختلاف بسيط. وحسب هذا التعريف يكون حد العراق من حديثة الموصل، أو من العلث، أو تكريت،

---

(١) اعتبر السلاجقة العراق احدى ولايات سلطنتهم، وقد ورد في المصادر ما يسند هذا القول، انظر: ابن الاثير، الباهر، ص٣١، وسبط بن الجوزى، مجلد ٨، ص٣٧ و١٦٣ و١٨٦، وأبو شامة، مجلد ١، قسم ٢، ص٣٢٩، وانظر الفصل الخاص بوظيفة الشحنة، ص ١٢٠ - ١٢٥ فيما يلي.

في الشمال الى عبّادان في الجنوب طولا ، ومن عذيب القادسية الى حلوان عرضا (١)

ومنذ ان دخل السلاجقة بغداد وخلع الخليفة على زعيمهم طغرلبك وقلده على ما جرت به العادة ، كان معنى ذلك التقليد ان الخليفة فوضه ممارسة الحكم والادارة في اراضي الخلافة العباسية ، وفي كل ما يمكن ان تمتد اليه سلطة السلاجقة من اراض . ومنذئذ تصرف طغرلبك على ضوء هذا المفهوم ، فاقطع المناطق العراقية وضمن اموال جباياتها الى ضامنين ، بما في ذلك بغداد نفسها (٢) وامر بتعمير دار المملكة التي كانت للبويهيين (٣) كما عين ممثلا له في بغداد يحمل لقب الشحنة (٤) ويمارس سلطات مدير الشرطة والمحافظ والحاكم العسكري في المصطلح الحديث (٥) كما سبق أن ذكرنا .

وكان وضع اقليم العراق في العهد السلجوقي ، باستثناء عهد الب ارسلان وملكشاه في غاية الاضطراب . ففي الجنوب كانت القبائل العربية عسيرة القياد على معظم الحكام ، وكثيرا ما عاث البدو فسادا ونهبا وتخريبا في تلك النواحي (٦) وكان بنو اسد هم اقوى تلك القبائل ، فتحالف شيوخهم مع السلاطين السلاجقة وخدموهم في بداية عهدهم (٧) ثم اصبحوا يتقلبون عندما ولى النظام والانضباط من دولة السلاجقة وافسحا الطريق للفوضى والعبث (٨) وقد استطاع

---

(١) ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحيني (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م) ، ص ٥٦ ، ابو القاسم بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الارض (بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، د. ت) ، ص ٢٠٨ ، الماوردى ص ١٧٣ الفرا ، ٤٠٣ ـ ٢٠٤ ، ياقوت الحموى الرومي ، معجم البلدان (بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م) ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ص ٦١٣ ـ ٦١٤ ومجلد ١٠ ص ٨ ، ١٢ ، ٢٥ ـ ٢٦ .

(٣) الخطيب البغدادى مجلد ١ ص ١٠٦ .

(٤) اول شحنة عين في بغداد هو الامير برسق ، عينه طغرلبك سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ انظر ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ص ٨ ـ ٩ .

(٥) تنطبق هذه الصفات على شحنة بغداد ، اما لقب الشحنة بصفة عامة ، فهو اقرب الى (صاحب الشرطة او من يقوم مقام المحافظ انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ .

(٦) انظر ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٨٣ و ٢١٧ و ٣٥٦ و ٤٠٠ ـ ٤٠٢ مثلا .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(٨) المصدر نفسه مجلد ١٠ ، ص ٣٧٧ و ٤٠٢ ، ومجلد ١١ ، ص ٣٠ و ٣٦ ، والباهر ، ص ٢٣ .

بنو اسد في بعض الاوقات ، السيطرة على جنوب العراق بكامله ، وهددوا بغداد ، وضربوا عليها الحصار (١) وكثيرا ما تحدوا السلاطين فجرد هؤلاء عليهم الحملات العسكرية (٢) اما في الشمال فقد كان الامراء العقيليون يحكمون الموصل ومنطقتها ، معترفين بالتبعية للسلطان ، بيد انهم مدوا حدودهم في فترة من الفترات الى تخوم بغداد (٣)

ومنذ ان بدأ النزاع على نطاق واسع بين الطامعين في منصب السلطنة من ملوك السلاجقة دأب الخلفاء العباسيون على بذل المساعي بمختلف الاساليب ، لاستعادة نفوذهم المغتصب ، وفرض سيطرتهم الفعلية على ما يستطيعون من اراض كما ذكرنا في موضع سابق (٤) وقد استمرت هذه الجهود التي بدأت بداية ضعيفة وحذرة ثم اخذت تقوى وتعنف ، منذ وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥ هـ/١٠٩٢م) الى وفاة السلطان مسعود (٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م) . وما ان انقضت هذه الفترة حتى اصبح العراق كله يخضع لسيطرة الخليفة وظل كذلك حتى نهاية الفترة التي ندرسها (٥)

ولايـــة الموصـــل :

كان الامير ابو الذواد محمد بن المسيب امير بني عقيل ، قد استولى على الموصل وحكمها منذ سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م (٦) ومنذ ذلك الحين ظل الامراء العرب العقيليون يحكمون تلك المدينة وتوابعها الى ان انتزعت منهم حوالي نهاية القرن الخامس الهجري (٧) وفي سنة ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤م ، اي قبيل دخول السلاجقة الى بغداد ، فتح الامير ابو المعالي قريش بن بدران العقيلي مدينة الانبار وضمها الى املاكه . ويبدو انه شعر انذاك بقوة السلاجقة الذين كانوا يقتربون من العراق فخطب

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ٢٣٢ — ٣ و ٢٣٥ و ٢٤٢ ، وابن الاثير ، الباهر ص ٢٥ .
(٢) ابن خلكان ، مجلد ٢ ص ١٨٢ — ١٨٣ .
(٣) ابن الاثير ، الباهر ص ١٥ — ١٦ .
(٤) انظر ص ٥١ — ٥٣ .
(٥) انظر الفصل الخاص بالعلاقة بين الخليفة والسلطان ص ٥١ — ٦٠ فيما سبق .
(٦) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٧٥ .
(٧) انظر ما يلي ص ٦٦ .

لطغرلبك في جميع البلاد التابعة له (١) ثم توسعت املاك صاحب الموصل في عهد شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي (ت ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م) فصارت تمتد من السندية ، وهي قرية من قرى بغداد على نهر عيسى حتى منبج ، وغدت تشتمل على ديار ربيعة والجزيرة باسرها ومدينة حلب ومنطقتها . وقد ظلت الموصل تحت حكم الامراء العقيليين حتى سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م حين انتزعها كربوقا ، احد الامراء الاتراك الموالين للسلطان بركيا روق ، وازال عنها عليّ بن شرف الدولة العقيلي (٢) وظل كربوقا يحكم ولاية الموصل حتى وفاته سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م . وتولاها بعده امير اخر اسمه موسى التركماني لم يلبث ان قتل فخلفه شمس الدولة جكرمش . وبعد جكرمش ولي عليها جاولي سقاووا . وقد نبذ جاولي هذا طاعة السلطان محمد بن ملكشاه فارسل السلطان اميرا اقطعه الموصل هو مودد بن التونتكين وذلك سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م . وقد اشترك مودود هذا ، اثناء حكمه في الموصل اشترك مع اتابك (٣) طغتكين ، امير دمشق في الحرب ضد الصليبيين ثم انه اغتيل بدمشق سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م (٤) وعندئذ ولى السلطان محمد على الموصل الامير جيوش بك ، ولكنه نقله بعد مدة اميرا على اذربيجان ، واقطع الموصل الى آق سنقر البرسقي سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م . وقد قتل البرسقي غيلة في جامع الموصل على يد الباطنية سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م فخلفه ابنه عزالدين مسعود الذى لم يلبث ان توفي سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م فخلفه ابنه الطفل تحت رعاية جاولي ، الذى كان مملوكا تركيا من مماليك البرسقي ، ثم تمكن عماد الدين زنكي بعد آق سنقر ان يقنع السلطان بتوليته الموصل بعد ان بذل قدرا مناسبا من الرشا والوعود . وعندما حصلت له الولاية دخل جاولي في خدمته (٥) وقد ظل عماد الدين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل مجلد ٩ ، ص ٦٠٠ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ص ٦ — ٧ و ١٥ — ١٦ ، وابن الغوطي مجلد ٤ قسم ٤ ص ٦١٢ — ٦١٣ .

(٣) ان لقب " اتابك " لقب شرفي عظيم معناه : الامير الوالد . ولعل اصل التسمية ان سلاطين السلاجقة اعتادوا ان يعهدوا بابنائهم الشباب الى كبار قادة جيوشهم فكان السلطان يبعث ابنه ليعيش في كنف امير كبير من امراء الاقاليم (انظر ص ٤١ فيما سبق) وقد فسر ابن خلكان (مجلد ١ ، ص ٣١٦ ، ومجلد ٢ ، ص ٨٠) لقب " اتابك " بانه الذى يربي اولاد الملوك بيد ان ابن الجوزى (المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٧٨) وابن الاثير (الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٨٠) فسراها ب " الامير الوالد " وقد فسر ابن خلكان في موضع اخر من كتابه (مجلد ١ ، ص ١٤٢) اللقب ب " الامير الوالد " واضاف عبارة : " وهو الاصح . " وهذا ما نؤيده .

(٤) ابن القلانسي ص ١٨٤ — ١٨٧ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ص ٣٥ .

زنكي يوسع امارته ويوطد نفوذه على حساب جيرانه وعلى حساب الصليبيين ، فاستولى على جزيرة ابن عمر ونصيبين وحلب وحماة وحاصر دمشق وبعلبك واستولى على الاخيرة وفتح حصن بارين وتوج اعماله بانزال ضربة صاعقة بالصليبيين يوم فتح مدينة الرها (١) ثم كانت نهاية عماد الدين زنكي عندما اغتاله مماليكه وهو نائم ، حين كان يحاصر قلعة جعبر (٢) سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م ، واذ ذاك انقسمت دولته بين ولديه : نورالدين محمود ، الذى امتلك حلب ، وسيف الدين غازى الذى امتلك الموصل (٣). وقد ظلت ولاية الموصل تحت حكم ورثة سيف الدين غازى بن زنكي الى ان جاء نور الدين محمود وحاصرها واستولى عليها سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧١م ثم ابقى اولاد اخيه على حكمها بعد ان اقروا له بالتبعية (٤)

ولايــة حلــب

كانت ولاية حلب ومنطقتها تخضع لبني مرداس الكلابيين منذ ان استطاع اميرهم صالح بن مرداس الاستيلاء على المدينة عام ٤١٥/ هـ/ ١٠٢٤م (٥) وقد توارث الامراء العرب المرداسيون حكم اقليم حلب حتى سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م حين اقبلت جحافل السلطان السلجوقي العظيم الب ارسلان ، نحو المدينة . وامام هذا الجيش السلجوقي اللجب لم يجد محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي مناصا من القدوم على السلطان ، هو ووالدته ، وتقبيل الارض بين يديه ، ووطء بساطه رمزا للطاعة والخضوع والتبعية . وقد رضي السلطان عن محمود واقره على ولاية حلب (٦) وفي سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦ م قتل نصر بن محمود ، امير حلب ، واختلف قومه على من يخلفه من اولاده . واستطاع سابق بن محمود ان يستولي على البلد وقلعتها .

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٧ ، ورقة ٢٠٦ ق ٢١٣ ق .
(٢) المصدر نفسه ، ورقة ٢١٣ و .
(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .
(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ١ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩ .
(٦) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٨٢ ق ـ ٢٨٣ و .

ولكن بني كلاب اجتمعت على أخيه وثاب ، وصمموا على تنصيبه وانتزاع المدينة من سابق . غير ان سابقا استطاع ان يوقع بمناوئيه ، مستخدما فرقة من المحاربين الاتراك ، الذين فاجأوا بني كلاب وغنموا اموالهم ومواشيهم ، وسبوا نساءهم وساقوها الى حلب . فسار اخوة سابق المنهزمون وأقاربه الى السلطان ملكشاه بن الب أرسلان وشكوا اليه ، وطلبوا معونته . فأكد ملكشاه حقهم باقطاعهم في الشام ، ثم أقطع الشام كلها لاخيه تاج الدولة تتش.(١) وقد أمر السلطان ان يسير مع تاج الدولة ، بالاضافة الى أمراء بني مرداس ، عدد من كبار الامراء الاتراك ، وكذلك الامير شرف الدولة ابو المكارم مسلم بن قريش العقيلي ، صاحب الموصل .(٢) وألقي الحصار على حلب مدة تقرب من أربعة أشهر ، ولكن مسلم بن قريش لم يكن مخلصا في معاونته لتتش . فأخذ يمهد السبيل للاستئثار بحلب لنفسه ، وقد استطاع ان يخذّل الكثيرين ممن اشتركوا في الحصار بما في ذلك الامراء المرداسيين ، كما راسل الامير سابق المحاصر بحلب ، وأمده سرا بالاقوات . ثم انسحب مسلم بن قريش وتبعه كثيرون ، فاضطر تاج الدولة تتش الى الرحيل عن حلب .(٣) وأخيرا نجح مسلم بن قريش ، فيما كان يمهد له ، واستطاع الاستيلاء على حلب لنفسه ، بعد ان حاصرها وجوع سكانها والمدافعين عنها ، وكانت تلك نهاية دولة بني مرداس بحلب . واتصل مسلم بن قريش بالسلطان ملكشاه ليحصل منه على اقرار لهذا التغيير ، وتعهد بحمل ما يطلبه السلطان من مال ، فأقره ملكشاه على حلب .(٤) وكان الامير العقيلي واسع الاطماع ، فجاست جيوشه في انحاء بلاد الشام ، وحاصر دمشق الا انه لم يستطع فتحها وارتد عنها . وكانت نهايته عند ما اصطدم بسليمان بن قتلمش السلجوقي ووقعت الحرب بينهما عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م ولقي مسلم بن قريش فيها مصرعه .(٥) وحاول سليمان بن قتلمش

---

(١) كان اقطاعهم منطقة حلب ، وعند اقطاع الشام لتتش أصبح اقطاع بني مرداس جزءا صغيرا خاصا بهم ضمن الكل الذى يخص تتش .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٥٣ ـ ٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٠ و ٧٥ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

الاستيلاء على حلب باعتبارها من أسلاب خصمه ، لكن أهلها حاولوا دفعه ، فاستثاروا تاج الدولة تتش بن الب ارسلان ، صاحب دمشق ، ,أطمعوه في حلب ، فجاء ,هزم جيش سليمان وقتله .(١) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة الا بعد حصار وقتال ، حيث ان اهلها نقضوا ما وعدوه اياه ، ووجهوا الرسل الى السلطان ملكشاه ليسلموا اليه المدينة ، فوصلها في شعبان من سنة ٤٧٩هـ/ كانون أول ١٠٨٦م ، وكان أخوه تتش قد غادرها الى دمشق حين شعر باقتراب جيوش أخيه السلطان مغذة السير الى حلب . وقبل ان يغادر السلطان حلب ولى عليها واحدا من أكبر قادته ، وهو قسيم الدولة آق سنقر .(٢)

وعندما توفي السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م أعلن آق سنقر ولاءه لتاج الدولة تتش الذى خطب لنفسه بالسلطنة ، بيد انه لم يلبث ان غير هذا الولاء حين فارق تتش وانضم الى بركياروق بن ملكشاه في الصراع الذى حدث بين العم وابن أخيه . ولقي قسيم الدولة آق سنقر حتفه اثر معركة دارت بينه وبين تتش قرب حلب ، وذلك سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م .(٣) وتبع ذلك استيلاء تتش على حلب .(٤)

وبعد ان تم لتتش ما أراده بالنسبة لحلب سارعنها لتحقيق أمله في تسنم عرش السلطنة السلجوقية . وكان منافسه الرئيسي عليها ابن أخيه بركياروق . والتقى جيش تتش بجيش ابن أخيه قرب الري ، فدارت الدائرة على تاج الدولة وجيشه .(٥) وقد قطع رأسه وحمل الى بغداد وطيف به في شوارعها ، وذلك سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م . وتملك حلب بعده ابنه رضوان ، بينما استولى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٩٦-٩٧ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٦٧ ق .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ ، وابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٧٠و .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ١١٧-١١٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١١٨ - ١١٩ .

ابنه الاخر ، دقاق ،على دمشق،[١] يعاونه ويدبر امره أتابك طغتكين .[٢] وتوارث أبناء رضوان حكم حلب الى ان وهنت قوتهم ، وتعرضت البلد لضغط عسكرى شديد من جانت الصليبيين . وكان ملك حلب من أبناء رضوان آنذاك هو سلطان شاه بن رضوان بن تتش (٥٠٨هـ/ ١١١٤م–٥١١هـ/ ١١١٧م) وكان عمره آنذاك تسع سنوات . فتطلع اهل حلب الى ايلغازى بن أرتق ، فكاتبوه ، فجاء ، ولم يلبث ان امتلك المدينة،[٣] وتوارثها أولاده من بعده حتى سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م حين استولى عليها عماد الدين زنكي بن آق سنقر، صاحب الموصل . وعندما اغتيل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م وانقسمت مملكته كانت حلب من نصيب نورالدين محمود بن زنكي ، وظلت في حكمه الى حين وفاته سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م .[٤]

ولاية دمشق :

ظلت بلاد الشام تتبع الخلافة الفاطمية حتى سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م . وفي تلك السنة ظهرت الجيوش السلجوقية في هذه البلاد ، فخضعت حلب للسلاجقة وخطبت للخليفة العباسي . وفي السنة التالية تقدم أتسز بن أوق ، وهو قائد احدى الفرق السلجوقية بالشام ، نحو فلسطين فاستولى على الرملة والقدس، ثم انثنى الى دمشق يضيق عليها الخناق الى ان استسلمت له في شهر ذى القعدة من عام ٤٦٨هـ/ تموز ١٠٧٦م . ثم حاولت القاهرة استرداد بلاد الشام ، فوجهت حملة كبيرة بقيادة نصر الدولة الجيوشي ، استولت على أعمال فلسطين ، وأعمال دمشق وحاصرت دمشق نفسها سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٩م وضيقت عليها الخناق لدرجة اضطر معها أتسز ان يستنجد بالملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الذى كان أخوه السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام ، وتعهد أتسز ان يكون في طاعة تتش . فانسحبت الحملة الفاطمية ، بيد ان تتش لم يكد يدخل دمشق حتى بادر بقتل أتسز ، وامتلك دمشق وأعمال فلسطين .[٥]

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢، ص ١٧٢–١٨٦ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ١، ص ١١٨ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٣١ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ١٨٨ و ، ابن خلكان ، مجلد ٤، ص ٢٧١ .

(٥) ابن عساكر، ج٢، ص ٣٣١ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠، ص ٦٨ و ٩٩–١٠٠ .

ولما قتل تتش سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م واقتسم ولداه مملكته ، كما ذكرنا ، كانت دمشق وتوابعها من نصيب ابنه دقاق ، وقد تولى تدبير امورها له اتابكة طغتكين . وعند وفاة دقاق (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م) خطب بالملك لابنه الطفل تتش الذى كان عمره سنة واحدة ، وبذلك اصبح مركز طغتكين اقوى من ذى قبل . ثم ما لبث تتش بن دقاق ان توفي سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٥م فصار طغتكين هو الحاكم الاصيل لولاية دمشق من الناحيتين النظرية والعملية . وقد توارث ابناؤه الولاية من بعده الى ان اصاب حكمهم الوهن حتى دفعوا الجزية للصليبيين ، واذ ذاك تمكن نور الدين محمود بن زنكي الذى كان قد اتخذ حلب قاعدة لملكه من الاستيلاء على دمشق (١) سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م وبذلك تمكن من توحيد ولايتي حلب ودمشق كما سبق ان اشرنا فظلتا مرتبطين بهذه الوحدة حتى ما بعد نهاية الفترة التي ندرسها .

ولاة الاقاليم :

كان تعيين ولاة الاقاليم من اختصاص السلطان السلجوقي . وعندما دخل السلاجقة المنطقة العربية كانت هذه المنطقة خاضعة لحكم عدد من القوى ، منها بنو مرداس في حلب وبنو عقيل في الموصل والبويهيون في بغداد ، كما كان من هذه القوى بنو اسد واميرهم دبيس بن مزيد . وقد قضى السلاجقة على حكم البويهيين وكان هذا امرا طبيعيا ولكن طغرلبك ابقى على بني عقيل في الموصل واقرهم على حكم ما كان بيدهم سيما وان قريش بن بدران العقيلي كان قد خطب لطغرلبك (٢) منذ عام ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤م . وكذلك تسامح طغرلبك مع دبيس بن مزيد الاسدى واقره على ما بيده (٣) ولما توسع السلاجقة في بلاد الشام في الستينات من القرن الخامس الهجرى اقر السلطان الب ارسلان بني مرداس الكلابيين على حلب واعمالها .

---

(١) ابن خلكان مجلد ١ ص٢٦٤ ـ ٢٦٥ ومجلد ٤ ص٢٧١

(٢) ابن الاثير الكامل مجلد ٩ ص٦٠٠ وانظر ص ٦٥ـ٦ فيما سبق

(٣) المصدر نفسه مجلد ١٠ ص٨

على اننا نجد امثلة كثيرة على قيام السلاطين بتعيين بعض كبار رجالهم او بعض أفراد البيت السلجوقي ولاة على بعض الاقاليم . فالسلطان ملكشاه اقطع بلاد الشام لاخيه تاج الدولة تتش ، وذلك سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م [١] وبعدها ولّى آقسنقر قسيم الدولة على حلب وأعمالها سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م .[٢] وفي سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م نجد السلطان محمد بن ملكشاه يقطع الموصل للامير مودود بن التونتكين بعد ان تمرد عليه أميرها جاولي سقاووا .[٣]

وثمة أمثلة اخرى على قيام بعض الولاة بالاستيلاء على بلاد لم يولوها ، ثم يحصلون على اعتراف من السلطان بما استولوا عليه ، وبتولية تثبت حقهم فيما وضعوا عليه أيديهم . ويمكن ان نعد من هذا القبيل ما فعله مسلم بن قريش العقيلي حين استولى على حلب سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م وأزال ملك بني مرداس ثم اتصل بالسلطان ملكشاه وحصل منه على اقرار لما احتجن ، وذلك بعد ان تعهد بحمل ما يطلبه السلطان من مال .[٤] ومثل ذلك ما فعله الامير كربوقا حين انتزع الموصل من علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ، سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م وأزال بذلك ملك بني عقيل .[٥]

كان ولاة الاقاليم من أفراد البيت السلجوقي يحمل كل منهم لقب ملك ، أما الولاة من غير السلاجقة فلم يحصلوا على هذا الشرف في فترة قوة السلطنة ، وانما كان الواحد منهم يحمل لقب أمير .[٦] وكان الوالي يعد واحدا من أتباع السلطان ورجاله ، كما كان المفروض انه يدين له بالطاعة والولاء . ولكن الولاة كانوا مستقلين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٥٦ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٦٧ ق .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٦ — ١٧ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٠ و ٧٥ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ — ١٦ .

(٦) أما عندما اضطربت أوضاع السلطنة فقد اصبح بعض ولاة الاقاليم يحملون لقب ملك ، ولعل ابرز الامثلة على ذلك أولاد عماد الدين زنكي ، أعني سيف الدين غازى ونور الدين محمود .

على اننا نجد امثلة كثيرة على قيام السلاطين بتعيين بعض كبار رجالهم او بعض أفراد البيت السلجوقي ولاة على بعض الاقاليم . فالسلطان ملكشاه اقطع بلاد الشام لاخيه تاج الدولة تتش ، وذلك سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م[١] وبعدها ولّى آقسنقر قسيم الدولة على حلب وأعمالها سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م.[٢] وفي سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م نجد السلطان محمد بن ملكشاه يقطع الموصل للامير مودود بن التونتكين بعد ان تمرد عليه أميرها جاولي سقاوو.[٣]

وثمة أمثلة اخرى على قيام بعض الولاة بالاستيلاء على بلاد لم يولوها ، ثم يحصلون على اعتراف من السلطان بما استولوا عليه ، وبتولية تثبت حقهم فيما وضعوا عليه أيديهم . ويمكن ان نعد من هذا القبيل ما فعله مسلم بن قريش العقيلي حين استولى على حلب سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م وأزال ملك بني مرداس ثم اتصل بالسلطان ملكشاه وحصل منه على اقرار لما احتجن ، وذلك بعد ان تعهد بحمل ما يطلبه السلطان من مال .[٤] ومثل ذلك ما فعله الامير كربوقا حين انتزع الموصل من علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ، سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م وأزال بذلك ملك بني عقيل .[٥]

كان ولاة الاقاليم من أفراد البيت السلجوقي يحمل كل منهم لقب ملك ، أما الولاة من غير السلاجقة فلم يحصلوا على هذا الشرف في فترة قوة السلطنة ، وانما كان الواحد منهم يحمل لقب أمير.[٦] وكان الوالي يعد واحدا من أتباع السلطان ورجاله ، كما كان المفروض انه يدين له بالطاعة والولاء . ولكن الولاة كانوا مستقلين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٥٦ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٦٧ق .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٦ — ١٧ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٠ و٧٥ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥—١٦ .

(٦) أما عندما اضطربت أوضاع السلطنة فقد اصبح بعض ولاة الاقاليم يحملون لقب ملك ، ولعل ابرز الامثلة على ذلك أولاد عماد الدين زنكي ، أعني سيف الدين غازي ونور الدين محمود .

تماما في كيفية ادارة ولاياتهم ولا يتعرضون لاى تدخل من جانب السلطان · اما علامة هذا الولاء فهي في اعلانه والتظاهر به ، وفيما كان الولاة يرسلونه من اموال محددة (١) وما يبعثون به من هدايا هذا بالاضافة الى معاونة السلطان في حروبه حين يحتاج الى مزيد من القوات عند مواجهة عدو قوى اوعندما يكلف احد ولاة الاقاليم القيام بعمل عسكرى معين لاخضاع بعض المقردين او الاعداء (٢)

غير ان هذا الوصف لوضع الولاة ان انطبق على الواقع في فترة قوة السلاجقة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م — ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م) فانه لا ينطبق تماما على ما سارت عليه الاحوال في الفترة اللاحقة · ففي فترة الفوضى فيما بين وفاة السلطان ملكشاه ووفاة السلطان مسعود لم تعد هيبة السلطان السلجوقي كما كانت في السابق ولم يعد ولاة الاقاليم يحرصون على الاخلاص للسلطان بل نراهم يغيرون ولاءهم من سلطان الى آخر (٣) كما ان اطماعهم في تزايد وان حرصهم على زيادة قوتهم وتوسيع ممتلكاتهم والتهرب من طاعة السلطان ومن تنفيذ ما يكلفهم به من مهمات او يصدره اليهم من اوامر هي السمة الغالبة في امراء الاقاليم (٤) وصار كل واحد من كبار امراء الاقاليم يحرص على ان يحتفظ بواحد او اكثر من اولاد السلاجقة ليحكم باسمه ، وليوسع املاكه تحت هذا الاسم ، وربما تواتيه الفرصة يوما فيطالب للصبي الذى في حوزته بالسلطنة ويتوصل — من خلال ذلك — الى التحكم

---

(١) ابن الاثير،الكامل،ج١٠،ص١٣٦ ، والباهر،ص٦٥.

(٢) ابن الاثير،الباهر،ص١٢ و ٢٥ — ٢٧ و ٤٥.

(٣) ابن الجوزى،المنتظم،مجلد ٩،ص١٠١، وابن الاثير،الكامل،مجلد ١٠،ص ٢٨١ و ٢٨٨.

(٤) ابن الاثير ، الباهر ص٦٣ و ٦٥

وشهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بابي شامة،كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية،نشره وحققه محمد حلمي محمد احمد (القاهرة: لجنة التاليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦)،الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ٩٢ — ٩٣.

في اقاليم السلطنة كلها (١) ومن هنا اصبح الصراع الدائر على كرسي السلطنة السلجوقيـة في اواخر ايامها مجرد صراع بين الامراء الاقوياء من ولاة الاقاليم وقادة الجيوش وكان ولاة الاقاليم الطموحون يحرصون على تقصي اخبار بلاط السلطان وينفقون الاموال على جواسيسهم فيه (٢)

وعندما تخلصـت الخلافـة العباسية من تسلط السلاجقـة ووهن شان المتصارعين على منصب السلطنة لم يكن غريبا ان لا يعير حكام الاقاليم الاقوياء اى اهتمام للسلاطين ، بل ان بعضهم اقام صلات مباشرة مع الخلافة وتلقى منها الخلع والالقاب مباشرة (٣)

اما الاساليب الادارية في داخل الاقليم الواحد فكانت صورة مصغرة للاساليب الادارية في السلطنة فكان لامير الاقليم وزير له وكان له حجاب ومستوفون كما كان يقطع اتباعه اجزاء من ولايته الكبيرة التي كانت تعد بدورها اطاعا من السلطان ٠ وهذا ما حملنا على دراسة المؤسسات الادارية كالوزارة والقضاء وغيرها دفعة واحدة دون تخصيص دراسة مستقلة لتلك المؤسسات على نطاق السلطنة ودراسة مستقلة اخرى على نطاق كل ولاية على حدة ٠

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٥ و ٧١ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨ ٠

(٣) ابو شامة ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤٧٨ — ٤٧٩ ٠

الـــــــوزارة

كانـت لمنصـب الوزارة في العصـر السلجوقي اهمية بالغة ، وكان السلاطين والملوك والخلفاء يشعرون بهذه الاهمية ، ويعتقدون ان الوزير الحاذق يحقق ما تعجز الجيوش عـن تحقيقه (١) ويصدق الواقع التاريخي لذلك العهد هذه النظرة الى حد كبير ٠ وليس ادل على ذلك من ان السلاجقة كانوا يعطون الوزير عشر دخل السلطنة (٢)

غير ان مما يلاحظه الباحث ان منصب الوزارة لم تكن له صلاحيات ثابتة ومحددة بعرف او تشريع ينطبق على جميع الامثلة او معظمها بل كانت اختصاصات الوزراء تختلف اتساعا وضيقا ، واهميـة وضآلة ٠ ويمكن القول باطمئنان ان العامل الحاسم في تحديد اختصاصات الوزير (٣) ينحصر فـي ثلاث نقاط :

أ ـ شخصية السلطان او الخليفة او الملك ، ونصيبها من القوة والضعف والعلم بشؤون الادارة او الجهل بها ٠

ب ـ شخصية الوزير نفسه

جـ ـ وضع الوزير بالنسبة لكبار الموظفين الذين يقاربونه في المنزلة

---

(١) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ٥٤٩ ٠

(٢) ابن القلانسي ص ٢٢٠، ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٦ ٠
ابن خلكان، مجلد ٤، ص ٢٢٩، وانظر ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ من المجلد نفسه ٠

(٣) ان حديثنا عن اختصاصات منصب الوزارة هنا منحصر في طبيعة المنصب كما كان في دولة الخلافة وعند السلاطين الذين سيطروا على المنطقة العربية ، وعند ملوك وامراء الاقاليم العربية واود التنبيه الى ان لقب " وزير " كان يطلق احيانا على الشخص الذى يقوم بمهام (مديـر الاعمال) في عرفنا ٠ فقد اورد ابن الغوطي (مجلد ٤، قسم ٥، ص ٩٥٢) ذكر العميد ابو الفضائل محمد بن ناصر الاصبهاني الذى " تولى الوزارة للخاتون صاحبة امير المؤمنين المقتفي لامرالله ٠ وقد توفي هذا الوزير الصغير سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠م

وقد حاول بعض الفقهاء تنظير الواقع العملي لاختصاصات شاغل منصب الوزير فصنفوا الوزارة على ضربين : وزارة التفويض، ووزارة التنفيذ، والفرق بينهما ان وزير التفويض توكل اليه ادارة الدولة بمجملها وتطلق له فيها حرية التصرف كاملة . أما وزارة التنفيذ فهي تلك التي يكون شاغلها مجرد منفذ لاوامر الخليفة أو السلطان او الملك . وقد ظلت هذه النظرية معتبرة لدى الفقهاء قبل وبعد العهد السلجوقي .(١) وقد اولى الفقهاء الذين عالجوا الموضوع الالفاظ التي يتم بها التقليد أهمية مفرطة، (٢) بينما الحقيقة انه لا يوجد لدينا دليل على ان الحكام الذين كانوا يعينون الوزراء، أو الوزراء أنفسهم، كانوا يلقون بالا الى النظرية . انما الذى كان يحدد طبيعة الوزارة هو ما ذكرناه آنفا من نقاط واقعية .

فعندما بويع المستظهر بالخلافة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م استوزر أبا منصور بن جهير، ويبدو ان صغر سن الخليفة وضعفه حملاه على ان فوض الامور لوزيره، وأوكل اليه تدبير سياسة الخلافة بحرية كاملة . ومما قاله له : ان " الامور مفوضة اليك، والتعويل فيها عليك، فدبرها بما تراه . فقال : هذا وقت صعب، وقد اجتمعت العساكر مع هذا السلطان الذى عندنا [أى بركياروق] ولا بد من بذل الاموال التي تستدعي اخلاصهم وطاعتهم . فقال له : الخزائن بحكمك . فتصرف فيها غير استنجاز ولا مراجعة ولا محاسبة . فقال : ينبغي كتمان هذه الحال الى ان يصلح نشرها (٣) وأنا استأذن في اطلاع بني الموصلايا على الحال، فهما كاتبا الضرة . فقال المستظهر : قد أذن في ذلك وفي جميع ما تراه ."(٤) فها هنا وزير مفوض تفويضا كاملا ليس بحكم الالفاظ، ولكن بحكم ضعف

---

(١) انظر الماوردى، ص ٢٢و٢٥—٢٦، الفراء، ص ٢٩ — ٣٠ ،

عبد الرحمن بن عبد الله [عبد الرحمن بن نصر الشيزرى]، كتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك (القاهرة : مطبعة الظاهر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٠٨م)، ص ١٤—١٥ .

(٢) الماوردى، ص ٢٣ — ٢٤، الفراء، ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) أى اعلان نبأ وفاة الخليفة المقتدى .

(٤) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٨٢ .

الخليفة الذى كانت سنه آنذاك ستعشرة سنة ٠[(١)] بيد ان لدينا امثلة لوزراء فوضوا في ظـــل حكام أقوياء ، فهذا نظام الملك الذى وصفت وزارته بأنها كانت فوق السلطنة ، والذى قيل عنه ان السلطان لم يكن له معه غير الاســـم والابهة ، وأنه كان الآمـر المتصرف المستبد بادارة السلطنة يمارس هذا النوع من السلطة في ظل أقوى سلاطين السلاجقة ٠ وقد استطاع هذا السلطان ان يتخلص من نظام الملك عندما قرر ذلك ، ولكن بحذر شديد ٠[(٢)] كذلك كان القاضي كمال الدين ابو الفضل محمد بن الشهرزورى ، وزير نور الدين محمود ، صاحب الشام ، حاكم البلاد ومتولي امورها والمشرف على ادارتها ٠[(٣)]

وقد سبق ان اشرنا الى ان التمييز بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ لم يوجد في واقـع الحال — في العهد الذى ندرسه على الاقل — نتيجة للالفاظ المستعملة في عهد الولايـــة ، كما انه لم يوجد نتيجة لتصور الحاكم لكلتـا الطريقتـين وقدرته على الاختيار والمفاضلة بينهما بحرية ٠ لذلك لا نجد في مصادرنا أمثلـة على توليـة وزير من النوع الثانـي ، التنفيذى ٠ ولكن الباحث يستطيع ان يتبين من خلال استقرائه لمجموع اخبار نشاطات كل من الخليفة (اوغيره من الحكام ، كالسلطان والملك) ماذا كانت الوزارة القائمة من النوع التفويضي او التنفيذى ٠[(٤)] فالذى يدرس عهد

---

(١) ابن الطقطقي ، الفخـرى ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ٠

(٢) السـبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٥ — ٣٢٦ ٠

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٤٣ ، شمس الدين بن طولون ، قضاة دمشق ، الثغر البسام في من ولي قضاء الشـام ، تحقيق صلاح الدين المنجد (دمشق : مطبوعات المجمع العلمـي العربي ، ١٩٥٦) ، ص ٤٧ — ٤٨ ٠ والذى نقصده هنا انفراد الشهرزورى بالتصـرف في الادارة المالية والمدنية بشكل عام ٠ أما شئون الحرب والسياسة فقد كانت في يد نورالدين نفسه الذى يمكن اعتباره من أفضل وأقدر حكام ذلك العصر ٠

(٤) من أمثلة ذلك ما يورده ابن الطقطقي (الفخرى ، ص ٢٧٣) عن استيزار المسترشد لاحمد بن نظام الملك ، حيث ذكر ان المسترشد لما عزم على عمارة سور بغداد قسط على الناس خمسـة عشر ألف دينار ، فتذمر عامة الناس ، فقام الوزير وأداها عنهم ٠

الخليفة المسترشد مثلا (٥١٢هـ/ ١١١٨م—٥٢٩هـ/ ١١٣٥م) يستنتج ان وزراء ه كانوا وزراء تنفيذ ، نظرا لنشاط هذا الخليفة وكثرة تحركاته وقوة شخصيته ، وطغيان أخبار نشاطه على أخبار وزرائه.[١] وهذا القول ينطبق كذلك على عماد الدين زنكي ، حاكم ولاية الموصل القوى (٥٢١هـ/ ١١٢٧م — ٥٤١هـ/ ١١٤٦م).

وفي أواخر عهد المستنجد بالله (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م — ٥٦٦هـ/ ١١٧١م) تضخمت قوة استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز كبير قادة الجند على حساب منصب الوزير احمد بن محمد بن البلدى (ت٥٦٦هـ). وقد تمكن ابو الفرج وقايماز من القضاء على الخليفة ، ثم ألحقوا به وزيره ، حيث قتلوه في دار الخلافة وقطعوه اربا اربا ورموه في دجلة.[٢] وبعد ذلك بسنين نجد استاذ الدار قد عظم أمره حتى صار اسمه يذكر في الخطبة.[٣]

واذا كان المبدأ الوراثي في الخلافة والسلطنة والملك قد ادى الى وصول أفراد في غاية الضعف والتفاهة الى شغل هذه المناصب السامية فان الامر كان على العكس من ذلك فيما يتعلق بمنصب الوزارة. فنظام الملك ، الحسن بن علي الطوسي ، أعظم الوزراء في عصره على الاطلاق ، كان أبوه يعمل في البساتين[٤] ، وكان هو منصرفا الى علوم الفقه والحديث ، ثم اتصل بأحد أمراء النواحي ، فخدمه ، ثم ارتقت به الحال الى ان اصبح وزيرا لالب أرسلان ثم لابنه ملكشاه من بعده.[٥] أما الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، وهو من أعظم الوزراء ، فكان قرويا عاش في مقتبل عمره حياة

---

(١) ان كثرة مصادرة الحكام لوزرائهم قد تغرى الباحث بالظن بأن ذلك ناتج عن تسلط ذلك السلطان او الحاكم وان الوزارة في عهده كانت تنفيذية ، بيد ان الحقيقة غير ذلك ، اذ ان الدوافع على المصادرة كانت في الغالب اما لجشع الحكام او لخيانة الوزراء. وفي بعض الحالات لاجتماع السببين معا.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٣٦١—٣٦٢ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٩٣—٩٤ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ١ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٤.

(٣) محمد بن احمد بن جبير الكناني ، رحلة ابن جبير ، تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار ، بيروت: ١٩٦٨م) ، ص ١٨٢.

(٤) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٢.

(٥) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

متقشفة وعضه الفقر بنابه ، ولكنه ارتقى بجده وباقباله على العلم وتدرجه في المناصب وما اظهره فيها من كفاية حتى استوزره الخليفة المقتفي فكان خير وزير وخير معوان للخلافة على التخلص من نير السلاجقة (١) وكان الوزير ابن البلدى ، قبل ان يلي الوزارة موظفا بواسط ، وهناك ظهرت كفايته وزاد الدخل بهمته ، فامر الخليفة بالكتابة اليه واستدعائه ليكون وزيرا في دار الخلافة ، رغم معارضة استاذ دار الخلافة القوسي (٢) وقد بلغ تقدير الخليفة المستنجد للوزير يحي بن هبيره درجة جعلت الخليفة ينظم ابياتا من الشعر يمدح بها وزيره بقوله :

" صفت نعمتان خصتاك وعمتا — نذكرهما حتى القيامة ينشر
وجودك والدنيا اليك فقيرة — وجودك والمعروف في الناس منكر
فلو رام يا يحي مكانك جعفر — ويحي لكفى عنه يحي وجعفر
ولم ارمن ينوى لك السوء يا ابا الـ — مظفر الا كنت انت المظفر (٣)

ولعلّ في هذا القدر ما يغني عن الاستطراد في ضرب الامثلة التي لا يتسع المجال لحشدها

ويصادف الدارس لتاريخ العهد السلجوقي امثلة لوزراء اصبح ابناؤهم وزراء ايضا مما قد يوحي بان المنصب المت به علة الوراثة ، بيد ان مبدأ الوراثة لم يلق اى اعتبار او اتباع فيما يتعلق بمنصب الوزارة . فاذا كان سلاطين السلاجقة وملوكهم قد تخاطفوا ابناء نظام الملك وجعلوهم وزراء لهم فما ذلك الا لاعتقادهم بان الابناء قد يكونون كابيهم مقدرة فيقيمون لهم ما ساعد نظام الملك على اقامته من امجاد لالب ارسلان وملكشاه (٤) واذا كان محمد بن الوزير بن هبيرة قد ولي

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٤ — ٢١٦ ، وابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٦ .
(٢) ابن الطقطقي ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢١٤ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٥٤٩ ، وابن الفوطي مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

الوزارة بعد ابيه فان ذلك لم يكن من قبيل التوريث ، ولكن لكفاية محمد ، التي شهد بها ابن الطقطقي صاحب الفخرى . ومع ذلك فان محمد بن يحيى بن هبيرة نكب وحبس بعد سنة واحدة فقط من استيزاره .(١)

وكان معظم الوزراء في العهد السلجوقي اما من رجال الادب والكتابة ، واما من الفقهاء ، فعميد الملك الكندرى (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) وزير طغرلبك كان متضلعا في الادب العربي والفارسي عالما باللغة التركية ، شاعرا رقيقا .(٢) وكان نظام الملك فقيها ومحدثا قبل ان يكون وزيرا ، ولم تمنعه الوزارة والاضطلاع بمهامها الكبيرة عن مجالسة العلماء والمحدثين .(٣) وعون الدين يحيى بن هبيرة كان فقيها أديبا محدثا ، وقد ذكر مترجموه انه ترك أربع مصنفات وارجوزتين في النحو والخط والعبادات والاحاديث . وحكى عنه ابن خلكان انه أنفق في جمع مادة أحد كتبه المتعلق بشرح الاحاديث النبوية مئة وثلاثة عشر ألف دينار .(٤) وأبو شجاع محمد بن الحسين الروذراورى ، وزير الخليفة المقتدى ، كان مؤرخا أديبا شاعرا فقيها ، وقد عمل ذيلا لكتاب تجارب الامم ، لمسكويه .(٥)

واذا كنا قد تحدثنا عن كلف الحكام بالوزراء الاكفاء وحرصهم على استخدامهم ، فلا بد ان نتحدث عن تهافت المتطلعين الى ولاية الوزارة على المنصب . ولا غرابة في ذلك ، فهذا شأن رجال السياسة حتى يومنا هذا ، بيد ان أهمية هذه الحقيقة فيما نحن بصدده هي فيما نتج عنها من صراع ودسائس ومؤامرات ضاعفت من علل الحياة السياسية ونقائصها . وقد كان الوزير ، ان رأى في أحد الرجال المتصلين بالحاكم كفاءة ونبوغا وطموحا عجل بقتله ، دون ان تبدر من الضحية

---

(١) ابن الطقطقي ، ص٢٨٢ .

(٢) ابو الحسن علي بن الحسن الباخرزى ، دمية القصر وعصرة أهل العصر ، بعناية محمد راغب الطباخ (حلب: ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م) ، ص٤٠ - ٤٧؛ ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص٣١ - ٣٤ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٧؛ السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٢ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص٢٧٤؛ ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص٩٨٨ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص٩١؛ السبكي ، مجلد ٤ ، ص ١٣٦ .

عداوة ، وذلك تخوفا من ان يبرز عليه في المستقبل وينتزع منصب الوزارة منه(١) فضلا عن قيام المستوزرين ببذل الاموال الطائلة والرشا السخية للحصول على منصب الوزارة (٢) ، كان واحدهم يحاول اغراء السلطان بالمال الذى سوف يحصله له ان سلم اليه وزير واحله مكانه في الوزارة من ذلك ما فعله ابو المحاسن كمال الدين بن ابي الرضا الذى استطاع التقرب من السلطان ملكشاه ، فعرض عليه يوما ان يسلّم اليه وزيره العظيم نظام الملك" وانا اعطيك الف الف دينار (٣) ولكن النظام استطاع ان يرد كيد خصمه الى نحره ف " قورت عيناه بالسكين وحملتا الى السلطان فتقدم بطرحهما لكلب الصيد واخذ من ابن ابي الرضا مائتي الف دينار"(٤)

وليس من الصعب فهم سر تهافت المستوزرين على المنصب ، وبذلهم الاموال في سبيل ذلك (٥) فقد كان معظم الوزراء مطلقي التصرف في النواحي المالية (٦) والادارية ، فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان السياسة كانت تقوم على بذل الاموال واسترضاء الساخطين واستخدام الطامعين (٧) وان مثل هذه الامور لم يشغل معظم السلاطين والخلفاء انفسهم بها ادركنا مدى امكانات السرقة والنهب من الاموال العامة . وهذا يفسر بشكل جزئي ظاهرة مصادرة الوزراء التي تملأ بطون كتب التاريخ (٨)

على ان تأريخ الوزراء في هذه الحقبة لا تخلو من صورة طيبة

---

(١) ياقوت الحموى الرومي، معجم الادباء، راجعته وزارة المعارف العمومية (القاهرة : دار المامون د.ت)، مجلد ١٠، ص ٥٨ ــ ٥٩؛ وابن خلكان، مجلد ١، ص ٤٤١، ومجلد ٤، ص ٧٧.

(٢) ابن خلكان، مجلد ٤، ص ٢١٢ ــ ٢١٤.

(٣) السبكي، مجلد ٤، ص ٣٢٥ ــ ٦.

(٤) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٦ ــ ٧؛ وانظر ايضا ابن الفوطي، مجلد ٤، قسم ١، ص ٤٠٤.

(٥) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ١٤ و ٢٢.

(٦) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٨٢.

(٧) يذكر ابن الجوزى (المنتظم، ٩، ٦٦) ان الصلات التي يصرفها نظام الملك في بغداد وحدها بلغت مئتي كر ، وثمانية عشر الف دينار .

(٨) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٤ ؛ الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ١٠٥.
ابن الاثير، الكامل، مجلد ١١، ص ١٠٢ ؛ سبط بن الجوزى، مجلد ٨، ص ١٤٠.

فالوزير ابو شجاع محمد بن الحسين الروذراوري (ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م) الذي كان وزير للخليفة المقتدي اجمع مترجموه على عفته عن الاموال وكثرة صدقاته(١) وقد ذكر ابن الجوزي ان الوزير المذكور دعي لتولي الوزارة وهو عند ذاك يملك ستمائة الف دينار انفقها كلها في عمل الخيرات ، كبناء الاوقاف والمساجد والانعام على الفقراء واليتامى وعلى توزيع الادوية مجانا في فترة حدوث وباء مرضي حيث وزع الادوية وارسلها " الى جميع اصقاع البلد (٢) ويضيف ابن الجوزي ان ابا شجاع " كان يبيع الخطوط الحسنة ويتصدق بثمنها ونقل عن احد الذين خدموا الوزير ان ذلك الشخص كان واحدا من عشرة " يتولون اخراج صدقات الوزير ، فحسبت ما خرج على يدي فكان مائة الف دينار (٣) ويبدو من تراجم هذا الوزير ان احسانه هذا كان عن ايمان بمبدأ الاحسان ، وليس بقصد الدعاية وعلو الجاه .

وقد قام عدد من وزراء السلاجقة ، والخلفاء ، والاتابكة ، باعمال جليلة ، سواء في نشر العلم ورعايته او في بناء المدارس والمساجد والرباطات ، وخزانات المياه لشرب المسافرين وغير ذلك ، مما سنتحدث عنه في مواضعه من هذه الدراسة ، تجنبا للتكرار .

---

(١) ابن الجوزي المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٩٠ ــ ٩٤ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ص ٢٢١ ــ ٢ والسبكي ، مجلد ٤ ، ص ١٣٧ ــ ٩

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم مجلد ٩ ، ص ٩٠ ــ ١

(٣) المصدر نفسه والصفحتان ذاتهما .

القضاء

ظلت أصول الاحكام القضائية كما كانت في العصور الاسلامية السابقة ، وهي القرآن الكريم والسنة ؛ أي كل ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول او فعل أو اقرار — من وجهة نظر الفقهاء وأهل الحديث — والاجماع ، والقياس .(١) بيد ان المسلمين اختلفوا في فهم هذه الاصول وتحديد معناها ، رغم اعتراف اهل السنة بها من حيث المبدأ . فلا بد — اذن — ان نأخذ مسألة التراث الفقهي للمذاهب المختلفة بعين الاعتبار، على أساس ان القاضي كان يستهدى بآراء فقهاء مذهبه في فهم هذه الاصول الاربعة التي حددنا . وقد أجاز الفقهاء ان يحكم بغير مذهبه وحبذوا اجتهاده للوصول الى الحكم الاقرب الى الحق من وجهة نظره الشخصية دون التقيد بالمذهب الذى يتبعه ، بينما عارض بعضهم الحكم بغير المذهب الذى يتبعه القاضي .(٢)

وتولية القاضي حق من حقوق الخليفة ، حسب رأى الفقهاء ، وبقدر ما يسمح به مجال نفوذ الخليفة . وقد كان الخليفة يعين قاضي القضاة ببغداد ، ثم يستنيب القاضي نوابا في مناطق المدينة وخارجها .(٣) ويسمي الفقهاء هذا النوع من الولاية الولاية العامة ، أى التي يكون فيها القاضي مفوضا النظر في كل ما يخص وظيفة القضاء ، وفي جميع البلاد . وثمة أنواع من ولايات القضاء تسمى الولاية الخاصة ، وهي ان تكون الولاية محدودة بنوع خاص من القضايا او بمكان خاص ، أو بقضية خاصة .(٤) وتمدنا المصادر بأمثلة عن قضاة تسلموا مناصبهم بموجب عهد من والي الاقليم ، ثم جاء العهد بعد ذلك من قاضي قضاة الخليفة . فالقاضي هبة الله بن محمد بن أبي جرادة العقيلي عهد له نور الدين محمود بقضاء حلب ونواحيها سنة ٥٣٤هـ/ ١١٤٠م "ثم جاء له العهد من بغداد ، من قاضي القضاة الزينبي ، بأمر المقتفي." (٥) وثمة مثل آخر عن قاض ولاه ملك الاقليم ، هو علي بن محمد الغزنوى ، قاضي

---

(١) الماوردى ، ص ٦٦ ؛ ابو يعلى الفراء ، ص ٦١ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ٢١٠ .

(٢) الماوردى ، ص ٦٧–٦٨ ؛ ابو يعلى الفراء ، ص ٦٣ ؛ وكلاهما تولى القضاء ببغداد في العصر السلجوقي .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٥ ؛ ابن ابي الوفاء ، ج١ ، ص ٨٢ و٩٥–٩٦ و١٨٨ و٣٥٠–١ .

(٤) الماوردى ، ص ٧٠–٧٣ ؛ ابو يعلى الفراء ، ص ٦٥–٦٨ .

(٥) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ٣٠ .

دمشق الذى ولاه الملك تاج الدولة تتش بن الب ارسلان السلجوقي وباشر الحكم سنوات.[١] ولسنا ندرى ان كان هذا التعيين قد اعتمد من قبل الخليفة وقاضي قضاته ام لا ، وكلا الامرين محتمل ، على اى حال ، لان سلطة الخليفة كانت ضعيفة في تلك الفترة ،[٢] ثم ان نفوذه في هذه الجهات البعيدة عن بغداد نسبيا كان ضعيفا حتى عندما غدت الخلافة قوية الشوكة. والذى نميل الى ترجيحه بشكل عام ان تعيين قاضي القضاة في بغداد ظل حقا معترفا به للخليفة ، مارسه طوال عهد السلاجقة ،[٣] أما القضاة خارج بغداد فكان تعيينهم يخضع للظروف السياسية ، فان جرى التعيين في سنة هدوء وكانت علاقة السلطان ووالي الاقليم المعني مع الخليفة على صورة مرضية اخذت موافقته ، وان كانت الاوضاع مضطربة او كانت العلاقات عدائية اهمل حق الخليفة في اعتماد التعيين.

وكما كان الخليفة يعين القضاة فقد كان هو الذى يعزلهم ايضا ، عندما يرى ذلك ، ولدينا بعض الامثلة على قيام الخليفة بعزل قاضي القضاة وتولية شخص آخر مكانه.[٤] واذا كان ولاة الاقاليم قد تصرفوا بتعيين القضاة المحليين دون الرجوع الى الخليفة او الى قاضي القضاة ، فانهم كانوا يتصرفون منفردين بعزل القضاة كذلك.[٥] وقد أنكر بعض القضاة المعزولين حق الخليفة ، وبالتالي حق أرباب الحكم ، في عزل القاضي مالم يثبت عليه الفسق والانحراف.[٦] ولكن السبكي ، وهو متأخر عن العصر الذى ندرسه نفى ذلك ، وذهب الى ان من حق الخليفة عزل القاضي ولو لم يفسق.[٧] ورغم ان

---

(١) ابن طولون ، ص ٤٢ ، وانظر ايضا : ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٧٥ـ٣٧٦.

(٢) استولى تتش على دمشق سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٩م (ابن القلانسي ، ١١٢) وتوفي القاضي الغزنوى سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م (ابن طولون ، ٤٢) ومعنى ذلك ان تعيينه جرى بين هاتين السنتين حيث كان على رأس الدولة أعظم سلاطين السلاجقة ، ملكشاه بن ألب أرسلان.

(٣) لم نلاحظ اى خروج على هذه القاعدة اللهم الا عندما تدخل عميد الملك الكندرى ، وزير طغرلبك في تعيين قاضي القضاة (انظر ص ٤١ فيما سبق).

(٤) الاربلي ، ص ٢٧٨ ، ابن ابي الوفاء ، جا ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٠.

(٥) انظر مثلا : ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ٣١.

(٦) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٣ ، ابن ابي الوفاء ، جا ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٧) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٣.

السبكي متاخر زمنيا الا انه يبدو لي انه يمثل وجهة نظر قطاع من الفقهاء في العصر الذي ندرسه ح

وقد اوضح الفقهاء الصفات الواجب توفرها فيمن يلي منصب القضاء وحدودها ب : الذكورية والبلوغ والعقل والحرية والاسلام والعدالة وسلامة السمع والبصر والعلم بالاحكام الشرعية واصولها والقدرة على الاجتهاد في استنباط الاحكام (١) ولم نصادف فيما روته مصادرنا من اخبار القضاة خروجا على هذا التحديد ، اللهم الا ما تعلق بصفة العدالة ، اذ وردت روايات عن بعض قضاة اتهموا في عدالتهم مثل محمد بن موسى البلاساغوني (ت ٥٠٦ هـ) الذي ولي القضاء بدمشق ووصف بانه كان مرتش (٢) ومثل يحي بن سعيد ، الذي قلده الخليفة المقتفي القضاء سنة ٥٤١ هـ والذي ظلم الناس وصادرهم واخذ الرشا ، حتى اضطر احد الشعراء الى عمل منشورات شعرية والصاقها في المساجد ، يندد فيها بفساد القاضي المذكور بقوله :

يا حزينة الطمي الطمي	قد ولي ابن المرخم
وى على الشرع والقضا	وعلى كل مسلم
بدواته المفضضة	ووكيله المكعسم
اترى صاحب الحكم	وقد جن اوعمي
وارى المقتفي الامام	عن الحق قد عمي (٣)

وربما كان فقدان العدالة عند هذين القاضيين غير ظاهر قبل ان يليا المنصب ، وكذلك الحال بالنسبة لاضرابهما .

وكانت اختصاصات القضاء واسعة جدا فقد كانت تشمل " الدماء والفروج والاموال (٤) والفصل في المنازعات سواء بالصلح اوبالحكم اي ما يمكن تسميته بالقضايا الجنائية والمدنية ،

---

(١) الماوردي ص٦٥ — ٦ ؛ وابو يعلى الفراء ص٦٠ — ٦٤ .

(٢) السمعاني مجلد ٢ ص٣٨٠ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص١٢٥ .

(٤) ابو الحسين محمد بن ابي يعلى ، طبقات الحنابلة ، بعناية محمد حامد الفقي (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م) ، ج ٢ ص١٩٩

ونظارة الاوقاف والحجر على المجانين والسفهاء ، وحفظ اموال اليتامى وتنفيذ وصايا المتوفين في حدود الشريعة ،(١) وتقسيم التركات ،(٢) وتزويج الايامى بأكفائهن ان لم يكن لهن أولياء(٣)، واحقاق حقوق الله وردع مخالفيها ، واحقاق حقوق الناس شريطة ان يتقدم مدع يطالب بها .(٤)

وقد كانت لقاضي القضاة ، وللقضاة والفقهاء بصفة عامة ، أهمية كبيرة في عصر السلاجقة ، فلدينا أمثلة لقضاة تولوا نيابة الوزارة في حالة غياب او وفاة الوزير الاصيل ، مثل قاضي القضاة جعفر ابن عبد الواحد الثقفي ، الذى تولى نيابة الوزارة سنة ٥٦٠ هـ عند وفاة الوزير ابن هبيرة ، وزير الخليفة المستنجد . وقد ظل نائبا للوزير الى ان استوزر الخليفة أبا جعفر احمد بن البلدى .(٥) وثمة قضاة ساسوا الدول وانفردوا واستبدوا بالادارة المدنية فيها ، وقاموا باصلاحات كثيرة .(٦) وكان الخلفاء والسلاطين يتخذون من القضاة سفراء يتراسلون بهم ، فقد ارسل الخليفة القائم السلطان طغرلبك بالقاضي الماوردى ،(٧) وبعث عماد الدين زنكي القاضي كمال الدين الشهرزورى الى

---

(١) الماوردى ، ص ٧٠ـ٧١ ، ابن ابي يعلى ، ج٢ ، ص ٢٠ .

(٢) ابو محمد يوسف بن قزأوغلي ، المعروف بسبط بن الجوزى ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان (حيدرأباد : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، د.ت.) ، مجلد ٨ ، ص ١٨٢ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٢٣ .

(٣) الماوردى ، ص ٧٠ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٥) الذهبي ، مجلد ١ ، ص ٢٧١ ، وانظر ابن ابي الوفاء ، ج١ ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ، والاربلي ، ص ٢٧١ .

(٦) كالقاضي ابن عمار الذى امتلك طرابلس (ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١) وقاضي جبلة المعروف بابن صليحة (ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣١٠ـ٣١٢) ، وانظر ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٧٥ـ٣٧٦ ، ومجلد ٤ ، ص ٢٣٣ .

(٧) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١١٦ ، وانظر أمثلة اخرى في المصدر نفسه ، مجلد ٩ ، ص ٢٠٦ و ٢٢٣ ، وسبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ٢١٠ ، وابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٦٩٧ ، وابن طولون ، ص ٤٧ـ٤٩ .

السلطان مسعود (١) وعندما انهكت حروب الوراثة السلطان بركيا روق ارسل القاضي ابا المظفر الجرجاني وابا الفرج احمد بن عبد الغفار الهمداني ليتوسطا في اصلاحه مع اخيه السلطان محمد ، وذلك سنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٤م فتم الصلح (٢)

ومما يحمد لهذا العهد اننا نجد بعض الفقهاء والوزراء يؤكدون ضرورة اعتماد القاضي على وجود ادلة كافية قبل تجريم المتهم ، ويستنكرون تعذيب المتهم للحصول على اقراره بارتكاب الجريمة ، فقد حدث ان احد القضاة اعتمد على فراسته فاخضع متهما للتعذيب ليحمله على الاقرار بفعل الجرم الذى ظن القاضي انه ارتكبه ، وقد وصل خبر هذه الحادثة الى الوزير ابي شجاع ، محمد بن الحسين الروذراورى (ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥) المشهور بتدينه الشديد ونزاهته ، فعاقب القاضي المعني رغم ان المتهم الضحية كان يهوديا . كما ان الكثيرين من الفقهاء اعترضوا على تصرف ذلك القاضي (٣) وبلغ الامر بابي بكر الشاشي احد كبار فقهاء العصر ان الف كتابا سماه الرد على من حكم بالفراسة ، اعترض فيه على تصرف ذلك القاضي (٤) ولسنا نعني من وراء هذا المثل ان امور العدالة كانت في وضع سليم في ذلك العصر ، بل كل ما اردنا الاشارة اليه هو مجرد وجود بعض الحسنات وبعض الصور الوضيئة .

ومن اللازم ان نذكر هنا ان المؤسسات القضائية لم تكن منظمة على شكل جهاز حكومي ينتظمه قانون ادارى محدد واضح المعالم ، بحيث تقل فرص الانحراف والاستغلال ، بل كان تعيين قاضي القضاة ، او القاضي يتم على اساس فردى شخصي سواء بالنسبة للمسئول الذى عينه او للقاضي

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص ٣٧٠ .

(٣) ومع ذلك فقد ايده بعض الفقهاء

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٩٥ .

المعين نفسه . وكان القاضي يتصرف في ولايته على الاساس نفسه ، سواء في احكامه او في تعيين نوابه ، فمن ناحية الاحكام لم يكن القاضي مقيدا بنصوص قانونية مدونة ، بل كانت له حرية الاجتهاد ، والاختيار من السوابق ، او الاجتهاد في حدود مذهبه (١) وهذا الاجتهاد محمدة لا مذمة عند توفر القاضي النزيه . اما ما يتعلق بتعيين النواب فقد نتج عن الطابع الشخصي للوظيفة نوع من الاستغلال والاحتكار العائلي فالقاضي علي بن محمد الدامغاني (ت ٥١٣ هـ) تولى القضاء والشهادة وعمره ست عشرة سنة ، والذى ولاه هو ابوه قاضي القضاة محمد بن علي الدامغاني (٢) وبديهي انه كان في فقهاء بغداد وعلمائها من هو اصلح من هذا الصبي لمنصب القضاء . وعندما ولى نور الدين محمود زنكي الفقيه كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى قضاء الشام ونظر الاوقاف واموال الدولة وغير ذلك لم يتردد هذا القاضي في تعيين ابنه نائبا عنه بحلب ، وابن اخ له نائبا في حماه ، وابن اخ اخر في حمص (٣) ورغم ان القواعد الشرعية تقتضي اجراء محاكمة عادلة لا يجرم المتهم فيها الا باقرار او بينة (٤) فقد كان الكثيرون من الحكام يتصرفون في القضايا دون احالتها الى قضاة مختصين وكانوا يوقعون العقوبات لمجرد الظن ودون تثبت كاف (٥) ثم ان الطابع الفردى والشخصي لنظم الحكم والادارة بصفة عامة في ذلك العصر وعدم وجود قوانين ادارية وتنظيمية جار على استقلال القضاة وعرضهم للعزل والى تدخل الحكام في مجرى العدالة (٦) ولعل هذا هو ما حمل بعض الفقهاء الاتقياء على التهرب من قبول المناصب القضائية ، بل ورفضها رفضا باتا في بعض الاحيان ،

---

(١) ان نصوص القرآن والحديث لم تصغ على شكل نصوص قانونية محددة وهناك حالات قليلة وجدت لها نصوص لا تحتمل التاويل ، اما الغالب فان النصوص تفسح مجالا واسعا للاجتهاد . وعن حرية القاضي في الاجتهاد المطلق او في حدود المذهب انظر الماوردى، ص ٦٧ — ٨؛ والفراء ص ٦٣.

(٢) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٢٠٨ — ٢١٢؛ وانظر ابن ابي الوفاء، ج ١، ص ١٨٨ و ٢٠٨ و ٢٨٧.

(٣) ابن خلكان، مجلد ٣، ص ٣٧٥ — ٦ ؛ وابن طولون، ص ٤٨.

(٤) الماوردى، ص ٢١٩ — ٢٢١.

(٥) ابن الاثير، الباهر ص ١٦٧.

(٦) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٢٠٩ ؛ وياقوت، معجم الادباء، مجلد ١٦، ص ٣١؛ والسبكي، مجلد ٤، ص ٢٠٤ — ٥.

الاحيان،[١] حتى ان بعضهم اعتبر ولاية المناصب القضائية خطيئة دينية تستوجب التوبة والتكفير.[٢] ومع ذلك فان فقهاء اخرين كانوا يتلهفون على مناصب القضاء ويبذلون الاموال للحصول عليها.[٣]

النظـر فـي المظـالم:

من الوظائف المرتبطة بمؤسسات القضاء وظيفة المظالم. ورغم قلة المعلومات التي توردها المصادر عن هذه الوظيفة في العصر السلجوقي، فان هناك امثلة يمكن الاستعانة بها لمعرفة أوضاع منصب صاحب المظالم. ويبدو ان السبب في قلة المعلومات عن هذه الناحية هو ان أهميتها قد تدنت في دار الخلافة، نظرا لان الجنود المرتزقة من الترك والديلم، سواء في العهد البويهي او السلجوقي كانوا يميلون الى الفوضى والاعتداء على الناس في كثير من الاوقات،[٤] ولم يكن السلاطين والملوك، اذا استثنينا بعضهم، حريصين على كف جنودهم وقادتهم، وان حرصوا فقد كان من الصعب عليهم ضبطهم.[٥] وفضلا عن ذلك فقد كان الشحنة يطغى باختصاصاته على صاحب المظالم، الا انه — مع ذلك — كان يعجز في كف الظلم والعدوان في كثير من الحالات.[٦]

ومن الامثلة القليلة التي نعرف منها وجود ناظر في المظالم ما روى عن الوزير ابي شجاع محمد بن الحسين الروذراورى الذى قيل انه "كان يصلي الظهر، ويجلس للمظالم الى وقت العصر، وحجابه تنادى: اين أصحاب الحوائج؟ فلم يطمع في أيامه طامع..."[٧] وذكر انه كان شديدا في رد الحقوق من مغتصبيها، مهما صغرت، ومهما كان شأن المغتصبين وكانت منزلتهم.[٨]

---

(١) ابن ابي يعلى، ج٢، ص١٩٩؛ ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص١٩٠؛ السبكي، مجلد ٤، ص٢٠٣.

(٢) ابن ابي الوفاء، ج١، ص٣٠٤.

(٣) ابو حامد الغزالي، احياء علوم الدين (القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، د.ت.)، ج١، ص١٩، ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص١٥، ابن ابي الوفاء، ج٢، ص٢٦.

(٤) أشرنا الى ذلك في مواضع متعددة من هذه الدراسة.

(٥) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٨، ص١٦٩.

(٦) المصدر نفسه، مجلد ٩، ص١٣٧.

(٧) السبكي، مجلد ٤، ص١٣٧-١٣٩.

(٨) المصدر نفسه، والصفحات ذاتها.

ونقرأ خبرا عن تكليف الخليفة لابي منصور محمد بن المعوج الملقب بزعيم الكفاة ، النظر في المظالم ، ففي سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م خلع عليه وقلده هذا المنصب ، فخرج " ثم دعا الامراء بالمعروف فكانوا اعوانه ... (١)

ولا نقرأ عن صاحب مظالم يعينه السلاجقة كما لا نجد ذكرا لهذا المنصب في اخبار الدولة الزنكية في الموصل ، وان كان قد ذكر عن عماد الدين زنكي انه كان يردع اصحابه عن ظلم رعيته وكان يقول لهم لان البلاد لا تتسع لاكثر من ظالم واحد ، ويعني بذلك انه هو نفسه ظالم فلا ينبغي ان يسمح لاصحابه بالظلم (٢) .

اما في الدولة الزنكية بدمشق فقد كان الملك العادل نورالدين محمود يجلس للنظر في المظالم كل يوم ثلاثاء " ليصل اليه كل احد من المسلمين واهل الفقه ، حتى نساؤهم .. (٣) وعندما عجز القاضي عن كبح جماح اسد الدين شيركوه ، وكان من اكابر امراء نورالدين محمود ، شكاه الى نورالدين ، فامر ببناء دار العدل بدمشق ، واذ ذاك خاف اسد الدين والامراء وردوا المظالم الى اصحابها وارضوهم . وكان نورالدين يجلس يومي الاربعاء والخميس " وعنده القاضي والفقهاء ويامر بازالة الحجاب والبواب ، ويوصل اليه الشيخ والضعيف والعجوزة الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عن ما اشكل عليه من الامور الغامضة .. (٤)

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٦.

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٧ ، ورقة ٢١١ و.

(٣) بدرالدين ابو الفضل محمود بن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، بمكتبة سوهاج في الجمهورية العربية المتحدة تحت رقم (٢٦٢ تاريخ) ورقمها في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت هو Mic. A-146. ورقة ٢٠ ق — ٢١ و.

(٤) المصدر نفسه ورقة ١٧ — ١٩.

ويمكن ان نستنتج من هذه المعلومات القليلة ان صاحب المظالم كان يختص بالظلامات الظاهرة التي يعجز القاضي عن ردها ، أو أنها تحرج عن اختصاصه . وقد أيد وصف الفقهاء المعاصرين لمهمات صاحب المظالم هذا الاستنتاج ، حيث قالوا ان الفرق بين القاضي وبين صاحب المظالم هو ان القاضي يبين حقا مجهولا متنازعا عليه ، أما صاحب المظالم ، فانه يختص بحق ظاهر رفض ظالم قوى أداءه او الاعتراف به . فها هنا يلزم تعضيد حكم القضاء بهيبة السلطان . لذلك اشترط في صاحب المظالم ان يكون ذا هيبة وسطوة .(١) وقد اعتبرت مهمة النظر في المظالم ضرورة لا غنى عنها لانتظام أمر الدولة ونجاح الحكم .(٢)

الشـــــهـود :

الشهود ، او العدول ، مرتبطـون بالقضاء . وقد كانوا من الفقهاء . أما عملهم فهو الشهادة في المحاكم . وكان القاضي هو الذى يقـرر قبول شهادة فقيه معين . ومعنى قبول شهادته انه أصبح شاهدا أو عدلا ، يحضر مجالس الحكم ويشهد على ما يتخذ فيها من قرارات وما يصدر فيها من أحكام .(٣) وكان الشهود في بعض الاحيان يزكون من قبل شخصيات دينية هامة حتى تقبل شهاداتهم .(٤) ومن ناحية اخرى فقد كان بعض القضاة يتوقون لان يحضر بعض الفقهاء ذوى المكانة مجالس حكمهم للشهادة ، حتى ان قاضي القضاة ابن ماكولا وسط

---

(١) الماوردى ، ص٧٧ ـ ٨٤ .

(٢) الشـيزرى ، المنهج المسـلوك ، ص ٩٦ .

(٣) نستنتج ذلك من عبارة تتردد في تراجم الشهود ، فحواها ان ذلك العدل شهد عند القاضي فلان فقبل شهادته . انظر مثلا : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٣١ ؛ ابن ابي الوفاء ، ج ٢ ، ص ٩٦ و ١٣٧ ؛ زين الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن رجب البغدادى الدمشقي الحنبلي ، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ، بعناية هنرى لاووست وسامي الدهان (دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م) ، مجلد ١ ، ص ٢٠٧ .

(٤) ابن ابي الوفاء ، ج٢ ، ص٦٨ ـ ٦٩ ؛ ابن ابي يعلى ، ج٢ ، ص٢٣٨ .

نفرا من الاعيان لاقناع الفقيه الحنبلي ابي يعلى الفراء بحضور مجلسه (١) وكان الدخول في عداد الشهود يرشح الشخص المعني لتولي المناصب القضائية ، بيد انه لم يكن شرطا لتوليها (٢) وكان الشهود يعتبرون من وجوه المجتمع وعلية القوم (٣) حتى ان بعض الشهود كانوا يترفعون عن الشهادة عند نفر من القضاة (٤) ومع ذلك فقد وجد من الشهود من ارتشى وانحرف (٥)

الوكـــــلاء ، او المحامون :

لقد وجد في العهد السلجوقي ، في المناطق العربية التي خضعت للسلاجقة ، اناس يمارسون مهنة المحاماة امام المحاكم ، وكانوا يعرفون باسم الوكلاء باعتبار انهم يتوكلون عن اصحاب العلاقة في القضايا ، للتحدث نيابة عنهم . ويبدو ان ذمم اكثر الوكلاء في ذلك العصر كانت خربة اذ يذكر ابن الجوزي انه جرى في رجب سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م جمع الوكلاء عند حاجب الباب ، " وشرط عليهم ان لا يتبرطلوا من احد (٦) وبيّن لهم الحد الاعلى من الرسوم ، الذي يجب الا يتعدوه . وكان سبب هذه العملية حادث مشين ارتشى فيه بعض الوكلاء (٧) وقد وصف الشيرزي المتوفى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م الوكلاء في زمانه بانهم لا " خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم ... لان اكثرهم

---

(١) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

(٢) ابن ابي الوفاء ، ج ١ ، ص ٢٠٨ و ٢٨٧ و ٣٢٠ و ٣٢٢ و ٣٤٣ وج ٢ ، ص ٦٨ — ٦٩ .

(٣) اذ كانوا يحضرون المناسبات الهامة كبيعة الخليفة انظر مثلا ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٥٠ . واستقبال السلطان انظر ابن الجوزي ، ايضا ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٦ — ٧٧ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٩ .

(٥) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص ٢٠٤ .

(٦) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٧) المصدر نفسه ، وانظر مجلد ٨ ، ص ٢٧٣ .

رقيق الدين ، ياخذ من الخصمين ثم يتمسكون فيه بشبه (١) الشرع فيوقفون القضية ، فيضيع الحق ويخرج من بين يدى طالبه وصاحبه (٢) مع انه لو ترك كل من الخصمين يوضح ادعاءه لظهر الحق سريعا للقاضي . " فكأن ترك الوكلاء في هذا الزمان اولى من نصبهم (٣) الا في حالة كون الموكل عنه امرأة او صبيا (٤)

---

(١) في الاصل المطبوع " بسنة " وذلك ناتج عن سهو او خطأ من المحقق ، لان النسخة التي اعتمدها في تحقيقه كنسخة اولى اوردت اللفظ الصحيح الذى يتفق مع المعنى وهو لفظ " بشبه " الذى اثبتناه . ولكن هذه الصورة من صور الجمع غابت عن ذاكرة الاستاذ العريني ، على ما يبدو فاستبدلها بكلمة " بسنة " التي افسدت المعنى وهي ولا شك تصحيف ، وقد ذكر في حواشيه انه اتى به من نسخة ثانية من النسخ الخطية التي استعملها في تحقيقه . انظر حاشية رقم ٢ ادناه

(٢) الشيرزى، نهاية الرتبة، ص ١١٥.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٤) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

الادارة المالية

لا نقصد بهذا العنوان انه كان في العهد السلجوقي جهاز منظم ، ذو قواعد تنفيذية محددة مختص بالشئون المالية يمكن ان يطلق عليه اسم الادارة المالية ، بل الذى نعنيه هو الكيفية التي تصرف ارباب الحكم بها في الامور المالية .

كان الحكم في العصر السلجوقي يتركز في دوائر ثلاث ، تلتف كل منها حول واحد من مناصب الحكم الرئيسية ، فدائرة تلتف حول الخليفة واخرى حول السلطان وثالثة حول ملك الاقليم (١) وكانت قوى هذه المراكز الثلاثة وعلاقة كل منها بالاخر لا تسير على نسق واحد ، بل تتعرض للتغيير من حين لاخر ، نتيجة لتغير مقدار قوة ارباب المناصب الرئيسية . وكانت الدائرة المتمثلة في السلطان ومن حوله هي انفذ هذه الدوائر واوسعها سلطة ، وكانت العلاقة بينها وبين الدائرتين الاخريين علاقة احتواء واشتمال ، ويصدق هذا الوصف بالنسبة للفترة الاولى من العهد السلجوقي واجزاء متقطعة من الفترة الثانية (٢) اما في الفترة الثالثة فقد انفصلت هذه الدوائر بعضها عن بعض من الناحية العملية على الاقل .

ولكن هذا الانفصال لا يعني حدوث تبدل في اساليب معالجة الامور المالية ، لقد ظل الحال على ما كان عليه في السابق ، باستثناء استقلال الخلافة في ادارة العراق ، ماليا وسياسيا ، واستقلال الامراء الزنكيين في الجزيرة وبلاد الشام كذلك . اى ان الادارة المالية على الصعيد المحلي والاقليمي لم تتعرض لتغير كبير وانما الذى تغير هو العلاقات الخارجية ماليا وسياسيا (٣)

---

(١) لا يستطيع الباحث ان يطلق على الفئات الحاكمة في ذلك العصر اسم " حكومة " كما لا يستطيع ان يزعم ان الشخص الذى كان يشغل منصب السلطنة او الخلافة او امارة الاقليم هو صاحب السلطة الفعلية ، لان الامور لم تستقم على نهج واحد .

(٢) في الفترة الثانية الزاخرة بالصراع ، والانتصارات والهزائم كانت الخلافة وحكام الاقاليم يستقلون حينا ويعودون الى التبعية والخضوع حينا اخر .

(٣) ان الاحكام العامة التي وردت في هذه المقدمة مستنتجة من دراستنا لمؤسسات الخلافة والسلطنة وامارة الاقاليم .

وفي ضوء هذا التمهيد نجد ان من الانسب دراسة الادارة المالية دراسة موحدة ، اذ لا مجال لعمل دراسة منفصلة لكل من الخلافة والسلطنة والاقاليم لان معنى ذلك الوقوع في تكرار عديم الفائدة • ومع هذا فسنشير الى اية فروق بسيطة تلزم الاشارة اليها في المواضع المناسبة •

مصادر دخل الدوائر الحاكمة :

كانت الاموال التي تجبى من الرعية على ضربين : اموال حددتها الشريعة ، وبينها الفقهاء ، وهي الزكاة ، والخراج ، الجزية ، والفيء او الغنائم ، والاقطاعات ، بالنسبة للخلافة في فترات ضعفها (١) اما النوع الثاني فهو ما كان يفرض من ضرائب على التجارة الداخلية والخارجية والعابرة ، وعلى املاك الناس • وثمة انواع اخرى من الدخل غير المنتظم كالمصادرة التي كان الحكام يلجأون اليها في كثير من الاوقات ، ولدينا عنها الكثير من الاخبار (٢) ومن الطريف ان احد الامراء الذين تولوا حمص من قبل اتابك طغتكين ، صاحب دمشق ، كان يشارك اللصوص وقطاع الطرق ويحصل على سهم من انسابهم (٣)

وكانت الضرائب الشرعية مقبولة عند الفقهاء بطبيعة الحال كما كانت مسلما بها من جانب الرعية • وقد حدد الفقهاء مقادير الزكاة بالنسبة للاموال النقدية وبالنسبة للزروع والثمار والمواشي (٤) ولست ارى اهمية لتفصيل هذه المقادير توجب تضمينها في هذه الصفحات لانها كانت نظرية لا يتقيد بها اكثر الحكام • وحرى بالذكر هنا ان الفقهاء شددوا على ان الزكاة هي كل ما يجب على المسلم وانه لاحق للحكام في ماله غير الزكاة التي تشمل زكاة النقد المدخر ، وزكاة وعشور الزروع والثمار وغيرها (٥) وبينما يرى الفقهاء ان من حق عمال

---

(١) الماوردي ، ص ١٤٢ ، الفراء ، ص ١٥٢.
(٢) انظر ما يلي ص ٩٦ — ٩٧ .
(٣) ابن القلانسي ، ص ١٨٢.
(٤) الماوردي ، ص ١١٤ ـ ١٢٠ ؛ الفراء ، ص ١١٥ ـ ١٣١.
(٥) الماوردي ، ص ١١٣ ؛ الفراء ص ١١٥.

الصدقة او الجباة ان يأخذوا صدقات الاموال الظاهرة التي لا يمكن اخفاؤها ، كالزروع والثمار والماشية ، يؤكدون ان اخراج زكاة الاموال الباطنة ، كالنقود الذهبية والفضية والسلع التجارية يعود الى المالك ، يخرجها على النحو الذى يراه ، ولا يحق لعامل الصدقات أخذها .(١)

أما الخراج فقد كان يؤخذ من غير المسلمين — في بادىء الامر — على زروعهم وممتلكاتهم حسب المقادير التي حددتها العهود المعقودة معهم ، ولكنها صارت تؤخذ ممن اعتنقوا الاسلام وظلوا في أراضيهم ، حسب رأى بعض المذاهب الفقهية .(٢) ولم اعثر على دليل استطيع بموجبه التأكيد بأن أراضي قسم من المسلمين كانت أراضي خراج . ولكنني أرجح ان هذا الوضع كان موجودا .(٣)

والجزية هي ضريبة الرؤوس التي كانت تؤخذ من اهل الذمة ، المعاهدين .(٤) أما الغنائم فكانت قسمين : ما يؤخذ من الاعداء غير المسلمين ،(٥) وما كان يأخذه السلاطين والملوك والامراء من اسلاب خصومهم في الحروب التي كانت تدور فيما بينهم .

أما النوع الثاني من الضرائب فقد كان الناس يعتبرونه ظلما صارخا يجأرون بالشكوى منه ، ويحتج الفقهاء لدى الحكام مطالبين بازالته . وكانت الالسنة تلهج بالثناء على الحكام الذين يسقطون الضرائب ، وتعزو ذلك الى تقواهم .(٦) ولسنا نعرف المقادير والنسب التي كانت تفرض على البضائع والمتاجر والاملاك ، غير اننا نعرف انها كانت تفرض على الدكاكين والدور

---

(١) الماوردى ص١١٣ ، الفراء ، ص١١٥ .

(٢) الماوردى ، ص ١٤٧ .

(٣) ابن القلانسي ، ص١٦٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص٧٥ .

(٤) الماوردى ، ص١٤٢ ، الفراء ، ص١٥٣ .

(٥) مثل غنائم أتابكة الموصل والشام من الصليبيين ، انظر ابن القلانسي ، ص ١٤٩ و١٨٦ و٣٣٩ و٣٤٢ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص٨٦ — ٨٧ و١٣١ و١٤٤ .

(٦) ابن الجوزى المنتظم ، مجلد ٩ ، ص٣٥ و٩١ و٢١٨ و٢٤٣ و٢٤٣ — ٢٤٥ ، سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ٢٠٦ و ٢٢٣ ، ابن قاضي شهبة ، ص٦٣ — ٦٥ .

والعقارات (١) وعلى الكثير من اصناف البضائع . وفي القائمة التي اوردها ابن شداد عن ارتفاع مدينة حلب نتبين ان مما كانت تؤخذ عنه الضرائب : الخضر والبقل والمدبغة وصباغة الحرير والحرير وسمسرة الخضر ، والبساتين وذخيرة الحطب والفحم ومصانع الصابون والملح والمسالخ والاجتياز بخان السلطان والقلي (٢) والقبانين والقنب والحديد وضمان المزابل والمواريث الحشرية وغير ذلك (٣) وما دام الحد الشرعي للضرائب قد انهار فان الطريق غدا مفتوحا لكل انواع الافتئات واصبحت كل القواعد عرضة للعبث . ويذكر ابن الاثير ان بعض فلاحي الموصل فسروا الى ماردين ، فارسل عماد الدين زنكي يطلبهم فرد عليه تمرتاش ، صاحب ماردين ، " نحن نحسن الى الفلاحين ونخفف عنهم وناخذ منهم في القسمة من الغلال العشر ، فلو فعلتم انتم مثل فعلنا لم يفارقوكم " فرد زنكي بان تمرتاس لو اخذ ١ ٪ لكان كثيرا ، " واما انا فاذا اخذت الثلثين كان قليلا (٤) لانه يجاهد ضد الافرنج . ويذكر ابن القلانسي ان اتابك طغتكين ، امير دمشق ، امر " بازالة حوادث الظلم عن اهل بعلبك وتسويغ بعض خراج اهلها (٥) ويروى لنا ابن العديم انه بعدما استولى مسلم بن قريش العقيلي على حلب جاء وزيره فصادر جماعة ، وضاعف الخراج (٦)

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ٨٥ - ٦ و ٢٢٣ - ٤ .

(٢) يبدو ان الضرائب كانت تؤخذ من الذين يقلون بعض الاطعمة واصناف الحلوى في الاسواق

(٣) عزالدين ابو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، بعناية دومينيك سورديل (دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٩٥٣) ، المجلد ١ ، قسم ١ ، ص ١٥١ - ٣ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ص ٧٩ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٦٧ .

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ص ٧٥ .

طرق الجبايـــــة :

أ ـ ما يدفعـه ولاة الاقاليـم والنواحي :

جرت عادة الحكام في العهد السلجوقي باقطاع قادة الجيش وكبار الموظفين اقاليم او مناطق اومدنا اوقرى يجبون اموالها لانفسهم (١) على ان يدفعوا مبالغ محددة منها الى خزينة السلطان اوالمقطع (٢) وليسـت لدينا معلومات دقيقة عن المقادير التي كان يدفعها المقطعون لان المصادر لم تمدنا الا باخبار قليلة عن هذا الموضوع من ذلك ما ذكره ابن الجوزى من ان وزير السلطان بركيا روق وجه رسولا الى الامير صدقه بن مزيد ، صاحب الحلة ، سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠١ م يطالبه بمبلغ مليون دينار تجمعت عليه للخزانة السلطانية (٣) ولكننا لا نعرف عدد السنوات التي تاخر فيها صدقة عن الدفع . ومن ذلك ما اورده ابن العديم عن اسقاط السلطان ملكشاه بن الـب ارسلان بعض المستحقات المتاخرة على مسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة وحلب (٤)

ب ـ الضمـــان :

كانت بعض المناطــق تضمن الى اشخاص يبدو لي انهم كانوا متخصصين في ممارسة هــذا النوع من العمل كمهنة وبموجب عقد الضمان كان الضامن يدفع مبلغا محددا من المال في السنة عن بلد معين او يتعهد بدفعه ، ثم يتولى هو جباية الاموال ، فيدفع للحكام ما تعهد به ويحتفـــظ بالباقي لنفسه (٥) وربما كانت هناك صلة بين نظام الضمان هذا من جهة ونظام الالتزام الذى اتبع ايام الحكم العثماني في المناطق العربية وربما كان نظام الالتزام امتدادا لنظام الضمان السابق عليه ،

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ١٠، ص ٥٠ ـ ١، والسبكي، مجلد ٤، ص ٣١٧. وقد زعم السبكي " ان نظام الملك هو اول من فرق الاقطاعات على الجند .. ولكن هذه الطريقة كانت معروفة قبل نظام الملك انظر : الماوردي، ص ١٩٥ ، والفراء، ص ٢٣٣.

(٢) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٥٨.

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٢٤.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، مجلد ٢، ص ٨٥.

(٥) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٦، وابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ٨ و ١٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٤٥٤، وابن ابي اصيبعة، ص ٣٤٤.

اذا كان قد ظل معمولا به في زمن الايوبيين والمماليك • ويمكن ان نتصور مدى ما كان يتيحه نظام الضمان من استغلال للرعية ، على يد الضامنين ، الذين لم يكن همهم — في اعتقاد كاتب هـذه السطور — مجرد جمع الاموال للحكام والولاة • بل كان همهم الاول ان يحصلوا على الثروة لانفسهم ، وربما كان عليهم — وهذا ما ارجحه — ان يقدموا مقادير مناسبة من الرشا للحصول على عقـد الضمان او لتجديده ، او لانقاص القيمة المطلوبة منهم بحجة انها اكبر مما استطاعوا جمعه (١)

جـ — الهدايا والاسترضاءات :

وهناك نوع آخر من الدخل غير المنتظم ، كان يرد الى خزائن الخلفاء والسلاطين والامراء ، على شكل هدايا واسترضاءات • فلقد كان العصر الذى ندرسه طافحا بالكيد والدسائس (٢) وذلك ما جعل ارباب المناصب يعيشون في حذر دائم من تقلب مواقف سادتهم تجاههم بما يؤدى الى فقدانهم مناصبهم ، وكانوا يحاولون اتقاء مثل هذا المصير بما يقدمونه من هدايا وتحف من حين لاخر •

فاتابك طغتكين صاحب دمشق شعر ان حساده في بلاط السلطان محمد سعوا به لدى السلطان فما كان من طغتكين الا ان ارسل ابنه بورى مصطحبا معه الهدايا والتحف والخيـول والثياب وما يليق اهداؤه الى السلطان لكسب رضاه ، وذلك سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٨ (٣) وبعد حوالي ثماني سنوات ، اى سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، يشتد كيد الحساد لاتابك طغتكين لدرجة تحمله على الشخوص بنفسه الى بغداد وكان السلطان بها وقتئذ حاملا المال والهدايا المناسبة فاستقبل استقبالا حسنا ، وحاز من الرضا ما طمح اليه (٤) •

ويذكر ابن الاثير ان الشكوك قد زادت بين السلطان مسعود واتابك زنكي سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٤م حتى عول السلطان على اعداد حملة يخضع بها الاتابك الداهية الذى آذت دسائسه السلطان وافسدت

---

(١) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠ ، ص ٢٣ ، وابن ابي اصيبعه، ص ٣٤٤.
(٢) انظر ابن القلانسي، ص ١٦١ و ١٩٣ ، والكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ١٠٩ و ١٢٢ وابن الاثير، الباهر، ص ٦٥.
(٣) ابن القلانسي ، ص ١٦١.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٣ ، وسبط بن الجوزى ص ٥٦.

عليه ولاته وقادته/ وادت الى تتابع تمردهم وخروجهم عليه (١) وحاول زنكي صرف السلطان عن قصد بلاده بجيوشه فنجح في ذلك بعد ان تعهد له بدفع مبلغ مائة الف دينار (٢)

وكان بعض طالبي الوظائف الهامة يبذلون الاموال في سبيل الحصول عليها ، فابو الفتح منصور بن احمد بن دارست يخطب وزارة الخليفة سنة ٤٥٣ هـ ويعرض ان يلي الوزارة بغير اقطاع ، اى دون راتب بل ويقدم للخليفة مالا ! فوافق الخليفة واستوزره (٣) وعندما عزل ابن دارست كان فخرالدولة ابو نصر بن جهير يبذل الاموال ليتولى وزارة الخليفة فقبل الخليفة به واستوزره (٤) وعندما توفي المقتفي سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وتولى بعده ابنه يوسف المستنجد شعر الوزير يحي بن هبيره — مع عظمة خدماته للخلافة — ان مركزه اصبح مهددا ، فقدم للخليفة هدية نفيسة منها مال واربعة عشر فرسا ، وسلاح ، وطيب ، وعشرة من الغلمان الاتراك وست بغلات (٥)

وكان السلاطين يقدمون مبالغ من المال واشياء اخرى بمناسبة حصولهم على تقليد الخليفة لهم بالسلطنة او بمناسبة قدومهم الى بغداد في جو من العلاقات الودية او على سبيل المجاملة (٦)

المصـــادرات :

كثيرا ما كان السلاطين يلجأون الى مصادرة وزرائهم وموظفيهم ورعاياهم وقد فعل بعض الخلفاء شيئا من ذلك ، ولم يختلف امراء الاقاليم عن السلاطين في هذه الناحية . فالوزير كان في اغلب

---

(١) ابن الاثير، الباهر، ص ٦٥.
(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
(٣) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ١٤. وقد اورد الكاتب الاصفهاني رواية مغايرة لرواية ابن الاثير (الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٣) ولكن رواية ابن الاثير اقرب لمنطق الحياة هذا بالاضافة الى تميز المؤرخ عن الكاتب الاصفهاني السجاع.
(٤) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٤ ؛ ابن الاثير الكامل، مجلد ١٠، ص ٢٣.
(٥) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ١٠، ص ١٩٣.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

الحالات مطلق التصرف في النواحي المالية دون رقابة او محاسبة ، فاذا أضفنا الى هذه الصورة تهافت الطامعين في الوزارة على المنصب ، رغم مصير سابقيهم فان الباحث لا يملك الا ان يرجح[١] ان السرقة كانت ديدن اكثر الوزراء . ويبدو انه لم تكن لدى السلاطين والملوك المقدرة على اكتشاف هذه السرقات ، لعدم خبرتهم بالشئون المالية ، فكانوا يلجأون الى مصادرة وزرائهم كلما لمسوا فيهم ثراء . لقد اتهم خصوم نظام الملك اياه بسرقة أموال السلطنة ، فاستطاع ان يقنع السلطان ملكشاه بكذبهم ،[٢] وتذكر المصادر ان محمد بن فخرالملك بن نظام الملك الذى كان وزيرا للسلطان سنجر قد خان الامانة وأخذ الاموال الطائلة لنفسه ، فنكبه سنجر وقتله وصادر امواله .[٣] وقد قبض الخليفة المسترشد على وزيره شرف الدين علي بن طراد الزينبي وأخذ من داره أموالا عظيمة بحيث استمر نقلها من الدار ثلاثة أيام ولم تفرغ ، وتعرض للمصادرة معه أحد الكتاب .[٤]

ومن الامثلة على مصادرة العمال ما وقع على حسن بن احمد الفارقي (قتل ٤٨٧هـ) الذى كان متولي الجباية في آمد ، أيام نظام الملك .[٥] وفي سنة ٤٩٤هـ قبض الملك دقاق على ابن الصوفي ، رئيس دمشق ، ولم يطلقه الا بعد ان تعهد بدفع مبالغ من المال الى خزانة السلطان .[٦] وفي سنة ٥٢٩هـ شرع اسماعيل بن بورى صاحب دمشق في مصادرات المتصرفين والعمال .[٧] وبعد ان استولى مسلم بن قريش العقيلي على حلب جاء وزيره ابو العز بن صدقة البغدادى فصادر جماعة بحلب .[٨] وذكر ابن عساكر ان اسماعيل بن بورى بن طغتكين (ت ٥٢٩هـ) استرجع بانياس من الصليبيين ثم تحول الى

---

(١) لدينا بعض الامثلة ولكنها لا تكفي لاصدار حكم قاطع ، انظر مثلا : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢٥ و ٢٧ .

(٢) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٥ـ٣٢٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٥٤٩ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢٧ ، سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ١٤٠ .

(٥) القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ١ ، ص ٢٩٤ـ٢٩٦ .

(٦) ابن القلانيسي ، ١٤٠ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٥ .

اغتصاب الاموال و" مصادرة المتصرفين والعمال (١) "

وما دام الكبار يصادرون من هم دونهم من وزرائهم وكبار موظفيهم ، وما دام امراء الاقاليم يصادرون عمالهم ومتصرفيهم فمن الطبيعي ان تكتمل السلسلة الى اخر حلقاتها فيقدم عمال النواحي والقرى على مصادرة من تحت ايديهم من الفلاحين . ويبدو ان انشغال المؤرخين باخبار المصادرات التي كان يوقعها السلاطين وكبار الامراء على من هم دونهم ، وعلى اهل البلاد من التجار والفلاحين لم يترك لديهم متسعا لذكر الكثير عن المصادرات التي كان يوقعها عمال النواحي والقرى ومع ذلك فان ابن الجوزى ينقل لنا ضمن ترجمته للسلطان ملكشاه ابن الب ارسلان ، ان رجلين من قرية من اسفل واسط شكيا للسلطان من ان عامله صادرهما الفا وستمائة دينار (٢) وكان للخليفة المقتفي (ت ٥٥٥ هـ) عامل على ناحية نهر الملك ، بلغ من ظلمه وقسوته على الرعية انه كان يعلق الرجال من ارجلهم ويعلق النساء من اثدائهن (٣)

مقدار الدخل :

ولا تمدنا المصادر بتفاصيل وافية عن كميات الدخل في المناطق العربية مجتمعة ، كما اننا لا نظفر بقوائم وافية كتلك التي اثبتها قدامة بن جعفر في كتاب الخراج . والقائمة المفصلة الوحيدة التي عثرت عليها هي تلك التي اوردها ابن شداد مفصلا فيها دخل قصبة حلب وحدها ايام السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب (٤) (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م — ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)
ومع ذلك فلعل من المناسب ان اثبت مقدار المبالغ التي اوردتها المصادر عن دخل ارباب الحكم في بعض المناطق بعض المناطق لمجرد تكوين صورة تعطي مجرد انطباع عام عن مستوى دخل ارباب الحكم في ذلك العهد .

---

(١) ابن عساكر، ج ٣، ص ١٥.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٧٢ — ٧٣.
(٣) سبط بن الجوزي، مجلد ٨، ص ٢٢٤.
(٤) ابن شداد، مجلد ١، قسم ١، ص ١٥١ — ١٥٣.

– في سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م اى قبل دخول السلاجقة بغداد بثلاث سنوات ،
عقد ضمان البصرة لمدة ثلاث سنوات متوالية ، الاولى ب ١٥٠،٠٠٠ دينار
والثانية ب ١٦٠،٠٠٠ =
والثالثة ب ١٨٠،٠٠٠ = (١)

– وفي سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م ضمن السلطان طغرلبك البصرة والاهواز بمبلغ
٣٦٠،٠٠٠ دينار (٢)

– وفي سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٦م ضمن السلطان نفسه واسط ب ٢٠٠،٠٠٠ = (٣)

– وفي السنة التالية ضمن املاكه الشخصية في الكوفة ب ٤،٠٠٠ = (٤)

– وفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م ضمن الوزير الاملاك الخاصة للخليفة
القائم بستة الاف كرغلة و ١٠٠،٠٠٠ = (٥)

– وفي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣م عقد ضمان بغداد ب ١٥٠،٠٠٠ = (٦)

– وعقد ضمان واسط ب ٢٠٠،٠٠٠ = (٧)

– وفي سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧م ضمنت البصرة وواسط ب ٣٠٠،٠٠٠ = (٨)

– وفي سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م امر السلطان ملكشاه ان يزاد في
اقطاع وكلاء الخليفة من معاملة بغداد مبلغ ١٠،٠٠٠ = (٩)

---

(١) ابن الفوطي، مجلد ٤ ، قسم ٢، ص ٧٨٢.
(٢) ابن الاثير ، الكامل، مجلد ٩، ص ٦١٣ — ٦١٤.
(٣) المصدر نفسه، مجلد ١٠، ص ٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٣.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٦.
(٨) المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

ـ وفي سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م استولى سيف الدولة صدقة
الاسدى على واسط وضمنها لمدة ثلاثة أشهر بمبلغ ٥٠و٠٠٠ دينار (١)

ـ وفي سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م طولب صدقة بن مزيد امير
بني أسد بدفع مبلغ ١٠٠٠و٠٠٠ دينار (٢)
للسلطان بركياروق ، ولكن المبلغ يشمل متأخرات متجمعة .

ـ وفي السنة ذاتها بعث دبيس للسلطان مبلغ ٢٠و٠٠٠ دينار
وهدايا اخرى ، فطولب بأكثر من ذلك . (٣)

ـ وفي سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م ضمنت البصرة بمبلغ ١٠٠و٠٠٠ دينار
سنويا ومائة فرس . (٤)

ـ كان والي العراق في عهد السلطان محمود بن محمد بن
ملكشاه هو الامير منكوبرس . وكان لهذا الامير وزير قال انه
جمع له من العراق مبلغ (مليون وثلاثمائة ألف وبضعة عشر الف دينار) (٥) ١و٠٠٠و٣٠٠و٠٠٠ دينار

ـ كان مقدار ما اسقطه نورالدين محمود من الضرائب في الشام سنويا ١٥٦و٠٠٠ دينار
موزعة كما يلي :

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١١٦ .

(٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

ـ مكوس المسافرين المارين بعزاز	١٠٦٠٠٠ دينار
ـ المعرة	٣٦٠٠٠ =
ـ دمشق	٢٠٦٠٠٠ =
ـ حمص	٢٦٦٠٠٠ =
ـ حران	٥٠٦٠٠٠ =
ـ سنجار	١٦٠٠٠ =
ـ الرحبة	١٠٦٠٠٠ = (١)

ـ تنازع نورالدين محمود واخوه مودود على مدينة سنجار
ثم تصالحا وخرج منها محمود ليتسلمها مودود . وقد اخذ محمود معه الخزائن ،
وهي ليست خاصة بالمدينة وانما هي شطر من خزائن الدولة الاتابكية
بالموصل . فكان مجموع ما حمله من الجواهر والذخائر حمولة ستمائة
جمل ، بالاضافة الى ستة وتسعين بغلا محملة ذهبا ، وذلك زيادة
على ما وزعه على اولاد الملوك والامراء (٢)
وحوالى سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م ضمنت الحلة بمبلغ تسعين الف دينار سنويا (٣)

ـ وذكر ابن العديم انه عندما اقطع السلطان ملكشاه حلب الى آق سنقر قسيم الدولة سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م
احسن قسيم الدولة السيرة " وظهر منه عدل لم يعرف بمثله . واستغلها في كل يوم الف وخمسماية دينار (٤)

---

(١) ابن قاضي شهبة ، ٦٣ ـ ٦٤.
(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩٨.
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٤٨.
(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٦٨ ق.

– وكانت الضرائب التي تجمع في مدينة حلب على عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب (٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م – ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) كما يلي :

دار الزكاة	١٦٢٠٠٠٠٠	درهم
العشر	٦٠٠٠٠٠	=
الوكالة	٢٠٠٠٠٠	=
سوق الخيل والجمال والبقر	٣٨٠٠٠٠	=
داركورة الجوانيه	٣٥٠٠٠٠	=
البطيخ	١٠٠٠٠٠	=
داركورة البرانية العنب	٨٠٠٠٠	=
الخضر	٥٠٠٠٠	=
المدبغة	١٥٠٠٠٠	=
دكة الرقيق	١٠٠٠٠٠	=
صبغ الحرير	٨٠٠٠٠	=
سوق الغنم	٤٥٠٠٠٠	=
سوق التركمان للغنم	٣٠٠٠٠٠	=
عرصة الخشب	٥٠٠٠٠	=
ضمان الاوتار	٤٠٠٠٠	=
المسابك	٥٠٠٠	=
البيلونة	٢٠٠٠٠	=
سمسرة الخضر	٢٠٠٠٠	=
البساتين	٥٠٠٠٠	=
دار الضرب	١٠٠٠٠٠	=
الرباع	٤٠٠٠٠٠	=

الحكورة	١٠٠و٠٠٠	درهم
ذخيرة الحطب والفحم	٢٠و٠٠٠	درهم
المصابـــن	١٠و٠٠٠	درهم
عداد العـــرب	١٠٠و٠٠٠	درهم
الملح المجلـوب	٣٥٠و٠٠٠	درهم
المســـالـخ	١٠٠و٠٠٠	درهم
الاجتياز بخان الســلطان	١٠٠و٠٠٠	درهم
القلـي	٢٠و٠٠٠	درهم
الســـاســـــة	١٠٠و٠٠٠	درهم
عداد التركمـان بحلب	١٥٠و٠٠٠	درهم
وغنم جملتها ثلاثون الف رأس قيمتها	٦٠٠و٠٠٠	درهم
الجـوالـــي	١٠٠و٠٠٠	درهم
الفرح واللطــف	٦٠٠و٠٠٠	درهم
حمام السلطان	٨٠و٠٠٠	درهم
الســـجون	٦٠و٠٠٠	درهم
نحيرة الــذمـــة	٥٠و٠٠٠	درهم
البـــقــل	٢٠و٠٠٠	درهم
القبانـــين	٥٠و٠٠٠	درهم
الحـــديـــد	٥٠و٠٠٠	درهم
القـــنــب	٥٠و٠٠٠	درهم
الحـــريـــر	٨٠و٠٠٠	درهم
الخـــراج	٣٠و٠٠٠	درهم
ضمان المزابل	١٠و٠٠٠	درهم
المواريث الحشرية (تقديرا لا تحريرا)	٣٠٠و٠٠٠	درهم (١)
المجمـــوع الكلي	٧و٨٥٥و٠٠٠	درهم

سبعة ملايين وثمانمائة وخمســـة وخمسون ألف درهم .

---

(١) ابن شـــداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ١٥١ ـــ ١٥٣ .

ثانيا : المصروفـــــات :

من نافلة القول ان نذكر ان واجبات ومسئوليات الحكام في العصر السلجوقي تختلـف في كثير من جوانبها عن واجبات الحكومات في العصر الحاضر، فقد اقتصرت المسؤوليـات المباشـرة للحكام في ذلك العصر على حفظ البلاد من خطر الاعتداءات الخارجية ، وحفـظ الامن والنظام في الداخل . اما الخدمات الصحية والتعليمية ، وغيرها من الخدمات العامة فقد كان ينظر اليها على انها فضل واريحية من الحاكمين .

وبعد هذا الايضاح يمكننا ان نحدد الوجوه التي كانت تصرف فيها الاموال العامـة بالبنود التالية :

أ ـ اقطاعات ورواتـب

ب ـ نفقات الحـــروب

جـ ـ نفقات التجسس (١)

د ـ الهدايـا والرشا

هـ ـ الهبـات والعطايا

و ـ المصروفات الشخصية الباذخة لارباب الحكم

ز ـ نفقات الانشاءات العامة

أ ـ الاقطاعات والرواتب سبق ان ذكرنا ان الحكام ، من سلاطين وخلفاء وامراء ، كانوا يقطعون اقاليم ومدنا وقرى لاتباعهم من قادة الجند والامراء (٢) ولكن يبدو ان اصطلاح اقطاع كان يطلق ايضا احيانا على مبلغ من المال ، او راتب سنوي يدفع للمقطع . والحقيقة ان هذه النقطة لا تتضح بشكل كاف تماما ، لان المعلومات المتعلقة بها كانت اخبارا عارضة ، من ذلك ما ذكره ابن الجوزي عن الاميـر احمد يل (ت ٥٠٨ هـ) حين بين ان هذا الامير كان فـي

---

(١) ان بعض الحكام فقط اهتموا باستطلاع الاخبار.

(٢) انظر ص ٧٢ فيما سبق ، وكذلك ص ١٠٩ فيما يلي.

خدمته خمسة الاف فارس، وان اقطاعه كان اربعمائة الف دينار (١) ومن قبيل ذلك ما ذكر من ان السلطان سنجر بعث بكتاب الى بغداد ، سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م فيه اقطاع للخليفة بخمسين الف دينار، ولوزير الخليفة بعشرة الاف دينار، مع ثياب وهدايا اخرى (٢) ويؤيد ذلك ما نسب الى عماد الدين زنكي بن آقسنقر، من انه كان ينهى اصحابه عن اقتناء الاملاك، لان " الاقطاعات تغني عنها ، وان خرجت البلاد عن ايدينا فان الاملاك تذهب معها . ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم املاكهم" (٣) وكان اقطاع انر، الذى ولاه السلطان بركيا روق ولاية العراق ، يزيد على عشرة الاف دينار (٤) واعطى الخليفة وزيره ابا شجاع اقطاعا ببضعة عشر الف دينار (٥) واستنادا الى هذه الروايات يستطيع الباحث ان يرجح ان الاقطاع كان يعني — في بعض الاحيان — راتبا سنويا . وكان السلاطين والحكام ينفقون مبالغ طائلة على مماليكهم سواء على شكل اقطاعات من البلدان او من المال . ويروى لنا السبكي انه عندما وشى الواشون بنظام الملك الى السلطان ملكشاه متهمين الوزير بنهب اموال السلطنة ، احضر النظام الوف المماليك الذين اصطنعوا صفوفا ، شاكي السلاح ، وافهم السلطان ان ما ينفقه انما هو على هؤلاء ، الذين اعدوا لخدمته ولتوطيد حكمه (٦)

ب — نفقات الحروب :

كان عصر السلاجقة عصر حروب وصراع دموي لا يكاد ينقطع ، فحروب للاستئثار بمنصب السلطنة ، واخرى لتوكيد سلطتها ، وحروب بين امراء الاقاليم ، وجهاد ضد الفرنج الغزاة ، وغارات يقوم بها البدو ينهبون مدن وقرى العراق ، ومحاولات من الخلافة لاستعادة سلطتها ، ثم تثبيتها

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٨٥؛ وسبط بن الجوزي، مجلد ٨، ص ٥٢ .
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٢٠٦ .
(٣) ابن الاثير، الباهر، ص ٧٧ .
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ص ١١٠ .
(٥) المصدر نفسه، ص ١٠ .
(٦) السبكي، مجلد ٤، ص ٣٢٥ — ٦ .

ولامراء في ان كل ذلك كان يقتضي مبالغ طائلة من الاموال لشراء المماليك واعداد الجيوش . والامثلة على ذلك كثيرة نجتزىء بواحد منها : يروى الكاتب الاصفهاني ان السلطان سنجر اشترى مملوكا اعجبه بألف ومائتي دينار ، ثم انه امر وزيره بأن يشترى لذلك المملوك سرادقا وخيولا وان يشترى له ألفا من المماليك يمشون في ركابه ، كما أمره ان يحل اقطاع أحد الامراء ليقطعه لهذا المملوك المحظوظ.[١]

جـ — نفقات التجسس :

اهتم بعض الحكام اهتماما بالغا بالاخبار[٢] ورغم قلة المعلومات التي تمدنا بها المصادر عن هذه الناحية فاننا نعثر على جملة من الروايات ، من ذلك ما نقرأه عن الوزير نظام الملك حين عين له صاحب خبر ، براتب قدره سبع مائة دينار[٣] وكان عماد الدين زنكي شديد العناية بالاخبار ، خاصة اخبار البلاط السلطاني ، وكان يخسر على ذلك مقادير كبيرة من المال .[٤] كما كان الخليفة المقتفي "يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد ."[٥]

د — الهدايا والرشا :

لعب المال دورا هاما في الحياة السياسية ، فكان يذلل الكثير من الصعاب ، ويمهد طرق الكثيرين من ذوى المصالح للوصول الى أغراضهم . وكان بعض الحكام يقدمون الهدايا للخلفاء على سبيل المجاملة ، من غير ما حاجة الى ما يقابلها .[٦] ولكن الاكثر حدوثا هو بذل الاموال

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٧١—٢٧٢ . ويمكن الرجوع الى مزيد من الامثلة ، انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦—٧ و ١٨٥ ، والسبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٥—٣٢٦ .

(٢) سنتناول ذلك بشكل أوفى عندما ندرس موضوع البريد ، انظر ص ١١٦ — ١١٨ فيما يلي .

(٣) ابن أبي الوفاء ، ج ١ ، ص ٣٧٥—٣٧٧ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٨ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٥٦ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٠٦ .

في سبيل تحقيق اغراض محددة ، فعماد الدين زنكي ، مثلا ، يعرض الاموال والاقطاعات على القاضي بهاء الدين علي بن الشهرزوري ليقوم القاضي باقناع وزير السلطان والسلطان نفسه بتولية زنكي اقليم الموصل . وقد قام الشهرزوري بما طلب منه ، ووفى له زنكي بما وعده .(١) وأتابك طغتكين يرسل الهدايا والاموال الى السلطان محمد ، ويحملها اليه مرة اخرى بنفسه .(٢) والخليفة المقتفي يبعث بمبلغ من المال مع عجوز تحمله الى القاضي كمال الدين ابي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، الذى وصل بغداد في رسالة من زنكي للسلطان مسعود . وكان الشهرزوري قد امتنع عن مبايعة المقتفي بحجة ان في عنقه بيعة للراشد ، الذى كان السلطان قد خلعه . وبعد ان تسلم الشهرزوري المال قال للعجوز: "غدا يظهر أثر خدمتي ." وفي اليوم التالي بايع المقتفي .(٣)

هـ ـ الهبات والعطايا :

اذا كانت الهدايا والرشا تقدم لاغراض سياسية ظاهرة فان الهبات والعطايا كانت تبذل ، اما بقصد الحصول على الذكر الحسن ، وشيوع السمعة الطيبة ، او لتأليف القلوب وكسب التأييد العام ، او أملا في الحصول على الثواب بعد الموت . وكان أرباب الحكم يبذلون الاموال الطائلة في هذا السبيل . فقد قيل ان نظام الملك كان "ينعم بالاموال الطائلة والهبات الجزيلة ... كان يتصدق في بكرة كل يوم بمائة دينار .(٤) وكان رسم الشاعر ابن حيوس على بني مرداس الف دينار عن كل قصيدة ،(٥) وقد نافسهم في ذلك العقيليون .(٦) وكان الوزير جمال

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) فصلنا ذلك فيما سبق ، ص ٩٩ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٥٤ .

(٤) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٢ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٤ .

الدين محمد بن على الاصفهاني وزير اتابكة الموصل ، يبذل الاموال الكثيرة في جميع الاقطار وكانت صدقته تصل كل سنة الى بغداد تتفرق على الفقهاء والزهاد والمتصوفة ، ولم يكن يخيب من يقصده (١) وكان السلطان سنجر اكثر الملوك عطاء حتى قيل انه وهب في خمسة ايام متوالية ما مجموعه سبعمائة الف دينار ، زيادة على عدد من الخيل ومقادير من الخلع والاثاث (٢) وكان الحكام الجدد يكثرون من العطاء عندما يتولون مناصبهم ، وذلك لكسب قلوب الجند والرعية (٣)

و ـ المصروفات الشخصية الباذخة :

كان معظم الحكام في العهد السلجوقي يتصرفون بالاموال العامة وكأنها املاك شخصية ، وكان البذخ والثراء ، ثراء الطبقة الحاكمة ، يتجلى في مناسبات الزواج والافراح اوعند حدوث النكبات التي يتلوها نهب القصور والمخبآت . ويطول بنا الحديث لو اردنا وصفا او تعداد الاموال والمجوهرات والنفقات التي كانت تظهر في زواج السلاطين والخلفاء (٤) ، فيكفي ان نذكر ما يتسع المجال له . فبمناسبة ختان اولاد الخليفة المسترشد زينت بغداد ، وعملت زوجته الخاتون قبابا " عليها من الثياب الديباج والجواهر ما ادهش الناس (٥) ويصف ابن الجوزى موكبا لزوجة وزير السلطان محمود ، اذ خرجت زوجته ليلا تركب بغلة تساوى ثلاثماية دينار " بمركب لا تعرف قيمته ، وبين يديها خمس عشرة جنبية بالمراكب الثقال المذهبة ، ومعها نحو مائة جارية مزينات بالجواهر والذهب وتحتهن المماليك بمراكب الذهب والفضة وبين ايديهن الخدم والغلمان والنفاطون بالشموع والمشاعل (٦)

---

(١) الكاتب الاصفهاني، تواريخ آل سلجوق، ص ٢١٢ ـ ٢١٣، وابن الجوزى، المنتظم، مجلد ١٠، ص ٢٠٩، وابن جبير، ص ٩١ ـ ٩٣،

(٢) ابن خلكان، مجلد ٢ ، ص ١٤٨.

(٣) ابن القلانسي، ص ١٤٤، وابن شاكر الكتبي، مجلد ١، ص ٢٠٧.

(٤) انظر ابن القلانسي، ص ١٧٣، وابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ١٦٠.

(٥) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٢٤٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

وعندما قبض على وزير الخليفة ، ابي القاسم الزينبي وصودر سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م اخذت من داره اموال عظيمة " واواني ذهب وفضة ، ومراكب ذهب وثياب واثاث واستمر النقل من الدار ثلاثة ايام ولم تفرغ (١)

ز — نفقات الانشاءات العامة :

لم يعدم هذا العصر بعض الصفحات الوضيئة في تاريخه ، فهناك سلاطين وملوك اقاليم ووزراء انفقوا مقادير جليلة من الاموال على بناء المنشآت العامة وانجاز بعض المشروعات التي تفيد منها البلاد . فالسلطان طغرلبك عمر دار السلطان (٢) وملكشاه بن البارسلان عمر القناطر وحفر القنوات من الانهار وبنى الجامع الذى سمي بجامع السلطان كما بنى سوقا وبنى منارة عرفت بمنارة القرون (٣) ومباني الوزير نظام الملك ومدارسه ليست بحاجة الى تنويه . ومن الوزراء الذين اشتهر عنهم كثرة اقامة المنشآت العمرانية الوزير جمال الدين علي بن محمد الاصفهاني وزير اتابك زنكي واولاده من بعده (٤) واظن ان احدا من حكام العصر السلجوقي لم يشيد من المباني ما شيده نورالدين محمود ، ملك البلاد الشامية ، الذى ابتنى المدارس والمساجد والرباطات وغيرها ، في اكثر البلاد التي حكمها (٥) ولعل في هذه الامثلة القليلة المقتضبة ما يفي بغرضنا .

---

(١) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨، ص ١٤٠.

(٢) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٨ ص ١٦٩.

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٧٠.

(٤) المصدر نفسه، مجلد ١٠، ص ٢٠٩ ؛ وابن خلكان، مجلد ٤، ص ٢٢٨ — ٢٣٠.

(٥) ابن الاثير، الباهر، ص ١٧٠ — ٢ ؛ وابن قاضي شهبة ، ص ٩ و ٢٩ — ٣١ و ٥٠ — ٥١ — ٥٢.

الحسبـــــــــة

عرفت واجبات المحتسب بصورة عامة بانها تنطوى تحت عبارة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد كان على المحتسب مراقبة سلوك افراد المجتمع ، دون تجسس او مضايقة ، ليصحح اى انحراف عـن الصراط السوى الذى يفرضه الدين والتقاليد الاخلاقية للمجتمع (١) فهذا محتسب يصدر له امر من ديوان الخليفة بان يعاقب كل تاجر يقدم على فتح دكانه يوم الجمعة واغلاقه يوم السبت لان ذلك " مشاركة لليهود في حفظ سبتهم (٢) ومحتسب يامره الخليفة بنهي النساء ان يخرجن ليلا للتفرج (٣) ومحتسب يهدد المسئولين عن الحمامات العامة ان هم سمحوا لاحد من الجمهور ان يرتادها دون مئزر (٤) وكان على المحتسب ان يراقب الاسواق والتجار ويمنع الغش والتدليس او الاحتكار ، كما كان عليه ان يراقب اصحاب الحرف كالصباغين وصناع الاحذية والبياطرة والاطباء والصيادلة واهل الذمة ومعلمي الصبيان . بل وكان من واجباته ان يراقب الناس في المساجد والجوامع ومجالس القضاة والغسالين والسقائين (٥) الخ ... ويذكر الشيرزى ان اتابك طغتكين صاحب دمشق عين محتسبا وقلده الوظيفة بقوله : " اني وليتك امر الحسبة على الناس بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ان كان الامر كذلك نقم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند فانهما حرير واخلع هذا الخاتم فانـــه ذهب (٦) كما كان على المحتسب ان يمنع احدا من ايذاء الجمهور بتضييق الشوارع ببناء او بضاعة او قاذورات وغير ذلك (٧)

وقد كان المحتسب يختار من الفقهاء ، رغم انه لا يدخل ضمن واجباته الحكم بين المتخاصمين بل كان يعالج المخالفات الظاهرة . ولدينا عدد من الامثلة لقضاة تولوا الحسبة (٨) وجمع بعضم بينها وبين القضاء (٩)

---

(١) ياقوت ، معجم الادباء مجلد ١٩، ص ٣١ — ٣٤.
(٢) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٩١.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
(٤) المصدر نفسه، ١٢٩.
(٥) الشيرزى نهاية الرتبة ص ٤ — ٥.
(٦) المصدر نفسه ص ٧ — ٨
(٧) ابو حامد محمد بن محمد الغزالي ، احياء علوم الدين (القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح د . ت) ، جزء ٢، ص ٢٩٧؛ والشيرزى، نهاية الرتبة، ص ١٣ — ١٤.
(٨) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٢٥ و ١٢٩.
(٩) ابن الفوطي، مجلد ٤، قسم ٢، ص ١٠٦٩.

وامام هذه الواجبات الواسعة لم يكن المحتسب بمفرده قادرا على القيام بكل هذه الاعباء كما لم يكن باستطاعته معرفة دخائل الاسواق والاعيب التجار واصحاب الحرف من الغشاشين . لذلك فقد كان يتخذ له اعوانا وغلمانا يساعدونه ويأتونه بالاخبار (١) وكان للمحتسب ان يستعين باشخاص من اصحاب المهن فيجعل " لكل اهل صنعة عريفا من صالح اهلها ، خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم ، مشهورا بالثقة والامانة يكون مشرفا على احوالهم ويطالعه باخبارهم (٢)

وكان من حق المحتسب ان يؤدب المنحرفين والمتطاولين على رؤوس الاشهاد (٣) اما بالتعزيز او بالضرب الذى لا يصل الى مقدار عقوبات الحدود (٤) لذلك فقد استوجب الشيرزى ان يكون لدى المحتسب طرطور ليلبسه لمن تكون عقوبتهم التعزيز او التشهير وان يكون لديه سوط ودرة لانزال العقوبة البدنية بمن يستحقونها (٥).

---

(١) الشيرزى نهاية الرتبة ص١٠.

(٢) المصدر نفسه ، ص١٢.

(٣) ياقوت، معجم الادباء ، مجلد ١٩، ص٣٣.

(٤) الماوردى، ص ٢٤٠ ؛ والفراء، ص ٢٨٤.

(٥) الشيرزى، نهاية الرتبة، ص١٠.

البريــــــــد

يختلف مدلول كلمة " البريد " في التاريخ العربي الوسيط عن مدلولها في ايامنا ، اذ انها كانت تعني نظام وجهاز نقل المراسلات الخاصة بارباب الحكم ، سيما السرية منها . ويذكر الكاتب الاصفهاني ان البويهيين اهتموا بالبريد ، فلم تكد تخلو منطقة من اراضيهم " من صاحب خبر ، فلم تخف عنهم اخبار الاقاصي والاداني ، وحال الطائع والعاصي .. " (١) اما قول القلقشندي ان البويهيين اوقفوا عمل البريد حتى تخفى عن الخلفاء اخبارهم (٢) فالظاهر انه يتعلق بجهاز البريد التابع للخلافة .

واما في العهد السلجوقي فلدينا قدر من المعلومات عن الخدمات البريدية تمكننا من تكوين فكرة واضحة ، وان لم تكن مفصلة عن البريد . وسنرى ، من الامثلة التي سنوردها ، ان وسائل البريد لم تكن من نوع واحد ، وان الخدمات البريدية لم تسر على نسق واحد .

فنحن نقرأ ان نظام الملك ، وزير السلطانين الب ارسلان وملكشاه ، اهتم بالبريد وجعل شخصا يعرّف بابن السمناني (ت ٤٩٣ هـ/ ١١٠٠ م) صاحب خبرة في بغداد ، براتب سنوي مقداره سبعمائة دينار (٣) وثمة رواية تشير الى ان السلطان الب ارسلان (ت ٤٦٥هـ/ ١٠٧٤ م) اوقف عمل البريد ، مستهينا بفائدته (٤) ، بيد ان ما نقلناه عن نظام الملك يناقض هذه الرواية ، وحتى لو صحت فالارجح ان اهمال البريد انتهى بوفاة ذلك السلطان . ويذكر القلقشندي ان وسائل الخدمات البريدية في العصر السلجوقي كانت تتكيف حسب طبيعة الارض وقد استخدمت فيها الخيل والبغال (٥)

---

(١) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٦٧.

(٢) الشيخ ابو العباس احمد القلقشندي، كتاب صبح الاعشى (القاهرة : دار الكتب السلطانية ١٣٣٨ هـ / ١٩١٩ م) ، مجلد ١٤، ص ٣٦٩.

(٣) ابن ابي الوفاء، جـ ١، ص ٣٧٧.

(٤) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٦٧.

(٥) القلقشندي، مجلد ١٤، ص ٣٦٩.

ويبدو ان الخلفاء ، اهتموا بامر البريد ، حتى في فترة خضوعهم للسلاطين ، فبعد عزل الوزير ابي شجاع ، سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م خلع الخليفة " على الاجل ابي سعد بن الموصلايا ، وكانت الخلعة دراعة وعمامة ، وحمل على فرس بمركب ذهب ، ورسم بنيابة الوزارة ، وخلع على ابن اخته تاج الرؤساء ابي نصر هبة الله صاحب الخبر ... جبة وعمامة وحمل على فرس (١) وكان للخليفة المسترشد صاحب خبر (٢) وقد كان من الطبيعي ان يهتم هذا الخليفة الطموح النشط باعمال البريد . واهتمت الخلافة ، في عهد المقتفي ووزيره ابن هبيرة ، بالبريد اهتماما بالغا ، فبثت العيون في مختلف النواحي والاقاليم ، وانفقت الاموال العظيمة على اصحاب الاخبار (٣) . ويبدو ان هذا الاهتمام استمر الى عهد الخليفة الناصر ، اذ يخبرنا ابن الطقطقي ان النجب السريعة كانت مستخدمة آنذاك " وكان جماعة من النجابين يبيتون في كل ليلة بباب الديوان يبيت احدهم وتحت رأسه راحلته وزاده ونفقته وقد ودع اهله ، فان عرض في الليل مهم توجه فيه " (٤) وتتضح من هذه العبارة دقة تنظيم الخدمات البريدية وشدة الاهتمام بها . والارجح ان هذا التطور بدأ منذ عهد الخليفة المقتفي (٥٣٠ هـ/ ١١٣٦ م — ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م) الذى تحررت فيه الخلافة من نير السلاجقة .

ويذكر القلقشندى ان الزنكيين استخدموا النجب في نقل الرسائل كذلك (٥) بيد ان التطور الهام الذى ادخل على الخدمات البريدية حدث بالتوسع في استخدام الحمام لهذه الغاية . وينسب المؤرخون هذه العملية الى نورالدين محمود بن زنكي بعد ان توسعت مملكته . لقد جعل نور الدين من الحمائم اهم وسائط نقل المراسلات في مملكته الواسعة . والظاهر انه شعر بضرورة هذه الخطوة حين كانت تهاجم بعض الثغور التابعة له فلا تصل اليه الاستغاثة الا بعد ان يكون ذلك الثغر قد

---

(١) ياقوت ، معجم الادباء مجلد ١٢، ص ٢٠٢.
(٢) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٢٥٥.
(٣) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٣٥ ابن الاثير ، الكامل، مجلد ١١، ص ٢٥٦.
(٤) ابن الطقطقي، ص ٥٥.
(٥) القلقشندى، مجلد ١٤، ص ٣٧٠.

سقط بيد الصليبيين . ويحدثنا ابن الاثير ان نور الدين اصدره امره " باتخاذ الحمام الهوادي ، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى اوكارها ، واتخذت في سائر بلاده .. (١) وقد " اجرى الجرايات لها ولمربيها ، نوجد بها راحة كثيرة ، نقد كانت الاخبار تاتيه لوقتها ، فانـــه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم ، فاذا رأوا او سمعوا امرا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه ، نيصل الى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم في الجهة التي فيها نورالدين ، وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه ، فانحفظت الثغور بذلك (٢)

واذا كان التوسع في استخدام الطيور قد تم في عهد نورالدين فليس معنى ذلك انها لم تكن مستعملة من قبل ، فنحن نعرف بصورة مؤكدة ان الطيور كانت تستخدم في البريد منذ العهد البويهي ، اذ يذكر محمد بن عبدالملك الهمداني ان معز الدولة بن بويه وجه رسائل الى بغداد سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م بعث بها على اجنحة الطيور (٣)

كما ان لدينا اشارات عن انها كانت مستعملة في العهد السلجوقي قبل عهد نورالدين محمود . فعندما اقبل تاج الدولة تتش على حلب قاصدا احتلالها ، وكان فيها الاميران بوزان وكربوقا ، وهما يومئذ مواليان للسلطان بركيا روق بن ملكشاه ، قرر هذا الاميران الاعتصام في المدينـــة

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥٩.

(٢) شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بابي شامة ، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلمي احمد (القاهرة وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٦٢ م) ، الجزء الاول ، القسم الثاني ، ص ٢٥٠ — ٢٥١.

(٣) محمد بن عبد الملك الهمداني ، ذيل تأريخ الطبري ، تحقيق البرت يوسف كنعان (بيروت ، ١٩٥٩ م) ، مجلد ١ ، ص ٢٨٥.

" وانتظار النجدة من بركيا روق ، لان كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل (١) وعندما كان عماد الدين زنكي يحاصر مدينة نصيبين سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م ، وكانت هـذه المدينة تابعة لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازى ، صاحب ماردين ، " سير حسام الدين رقاعا على اجنحة الطيور الى نصيبين ، يعلم من بها من الاجناد .. " (٢) ان النجدة في طريقها اليهم . وقد سقط احد الطيور في معسكر زنكي ، فامر باصطياد ، وفض الرسالة ، وكتب رسالة اخرى ، على لسان تمرتاش ، يفهم منها ان النجدة ستتأخر عشرين يوما ، وحملها الى الطائر واطلقه ، فاستسلمت له المدينة (٣) ويمكن ان نستنتج من هذه الرواية وسابقتها ان الحمام كان يستخدم لنقل الرسائل اثناء العهد السلجوقي ، وربما كان استخدامه على نطاق ضيق .

ويبدو ان الكثيرين من الحكام ادركوا قيمة البريد فاهتموا به ، اذ يروى عن مسلم بن قريش بن بدران العقيلي ، صاحب الموصل وحلب ، انه اكان له في كل قرية صاحب خبر (٤) وكان عماد الدين زنكي " شديد العناية باخبار الاطراف وما يجرى لاصحابها في خلواتهم ... وكان يخسر على ذلك المال الجزيل ... فكان يصل اليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين.. " (٥) وينقل ابن الاثير عن والده انه توجه يوما نحو معسكر عماد الدين ، ويبدو ان المرحلة كانت طويلة ، وعند وصوله وجد ان زنكي كان يعلم بمجيئه قبل ان يصل المعسكر (٦).

ونستخلص من الامثلة التي اوردناها والروايات التي اثبتناها ان الخيل والبغال والجمال والطيور كانت هي الوسائل التي اعتمدها ، او اعتمد بعضها ، الحكام في العهد السلجوقي . ويمكن

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ١١٧.
(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٦ — ٣٧.
(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها.
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٤٠.
(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٨ ، وانظر ص ٤٧ ايضا.
(٦) المصدر نفسه ، ص ٧٨.

ويمكن ان نضيف الى ذلك ان الطيور والنجب السريعة أصبحت الوسيلة المفضلة في أواخر ذلك العهد .

الشحنكية

ظهرت وظيفة الشحنة بعد دخول السلاجقة الى بغداد . وأول من حمل هذا اللقب في العاصمة العباسية هو الامير برسق ، الذى عينه السلطان طغرلبك شحنة في بغداد سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م .(١) ويعرف ابن جبير الشحنة بأنه صاحب الشرطة ،(٢) بيد ان الباحث في تاريخ العصر السلجوقي يجد ان وظيفة الشحنة اكبر من مجرد المسئولية عن الشرطة . لقد كانت اختصاصات صاحب الشرطة تدخل ضمن المهمات التي أنيطت بالشحنة ، بيد ان واجبات الشحنة كانت أوسع بكثير من تلك الاختصاصات .(٣) ويمكن ان يقال انه كان يمارس ما يعرف اليوم بمهام الحاكم العسكرى والمحافظ . وليس لدينا الكثير من المعلومات عن نشاط الامير برسق ، أول شحنة في بغداد . وعند موت السلطان طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وتنسم ألب ارسلان العرش نجده ، أى ألب ارسلان ، يعين شحنة جديدا لبغداد هو أيتكين السليماني .(٤) ولا نعرف عن أيتكين هذا الا انه ترك ابنه نائبا عنه في بغداد ، وسار الى خدمة السلطان ، ثم حدث من ابنه ما سبب اصرار الخليفة على عزله ، فعين السلطان بدلا منه سعد الدولة كوهرائين .(٥) وكان كوهرائين من كبار أمراء الدولة ، وهذا ما يعرفنا بأهمية المنصب . وتتضح لنا أهمية كوهرائين عندما نجده بازاء السلطان الب ارسلان يوم اغتياله فيما وراء النهر ، وقد جرح في الحادثة .(٦) وعندما نشبت المعركة بين ملكشاه وعمه قاورد سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م كان كوهرائين بصحبة ملكشاه ، وهو الذى كلف بخنق قاورد بعد أسره في المعركة .(٧) وفي سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م عاد الى بغداد "وجلس له الخليفة القائم ... وسلم الخليفة الى كوهرائين عهد الخلافة(٨) بعد ان قرأ أوله ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٨-٩ .
(٢) ابن جبير ، ص ٢٤٤ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٤٥ و ٦١ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣٥ .
(٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ١٠ .
(٦) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٤٦ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
(٨) اى عهد الخليفة بالسلطنة للسلطان ملكشاه ، باعتبار كوهرائين ممثلا له .

ومتضمنه انه جعل عليه في الملك معوله ٠٠٠"[١] وأكثر من ذلك ان كوهرائين هـــذا يأتي الى بغداد شحنة على العراق سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٩م مرسلا من قبل نظام الملك[٢] وبعد وصوله أخذ يقرع الطبول على باب داره أوقات الصلوات ، وكان قد طلب ذلك من قبل فلم يجبه الخليفة بحجة ان ذلك لم تجر به عادة،[٣] ولان ذلك كان أحد رموز الخلافة ٠ ويبدو ان سحابة مرت في سماء العلاقات بين الخليفة والسلطان ، آنذاك ـ فشجع السلطان الشحنة على هذا السلوك الذى لا بد وأن يكون قد أزعج الخليفة ٠ وعندما أعلن تتش نفسه سلطانا بعد موت أخيه ملكشاه أرسل يوسف بن آبق التركماني على رأس قوة من التركمان ، شحنة لبغداد ٠[٤] وفي سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م قوى مركز السلطان محمد في حلبة الصراع ضد أخيه بركياروق فترك كوهرائين بغداد وتوجه الى محمد فأكرمه وخلع عليه ورده اليها ، وعندما وصلها طلب من الخليفة ان يخطب لمحمد ، فأجاب ٠[٥] وفي سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م عين السلطان محمد بن ملكشاه ايلغازى بن أرتق شحنة ببغداد ٠[٦] وفي السنة التالية أرسل بركياروق ، وكان ينازع أخاه محمدا ، أرسل كمشتكين القيصرى شحنة ببغداد أيضا ، فاستنجد ايلغازى بأخيه الامير سكمان ، فأبطأ في الوصول اليه ، فانسحب ٠ وعند وصول أخيه تحالفا مع صدقة بن مزيد ، واضطروا الخليفة الى اخراج كمشتكين واعادة الخطبة للسلطان محمد ٠[٧]

وفي سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م بعد انهاء نزاع بين السلطان محمود والخليفة المسترشـــد ، أراد السلطان الرحيل عن بغداد ، فنظر "في من يصلح ان يلي شحنكية بغداد ، يأمن معه من الخليفة ، ويضبط الامور ، فلم ير في أمرائه ٠٠٠ من يصلح ٠٠٠ غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنكية العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ٠٠٠"[٨] وقد روى سبط بن الجوزى ان السلطان محمد ولّى نجم الدين غازى بن أرتق " شحنكيــة العراق ٠"[٩]

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٩٠

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١١٠٠

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٢٠

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤٤٠

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨٩٠

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٢٩٠

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٥٥ــ٣٥٨٠

(٨) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣١٠

(٩) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ٣٧٠

ونجم الدين ايلغازى هذا هو الذى ذكرناه قبل قليل ، ونعته ابن الاثير ب " شحنة بغداد ."(١)
ويصف صاحب مرآة الزمان البقش السلاحي بأنه كان ز نائب السلطان مسعود في العراق "(٢) سنة
٥٣٢هـ/ ١١٣٨م ، بينما يصف ابن الاثير هذا الامير نفسه بأنه " البقش السلاحي ، شحنة بغداد ".(٣)
ويذكر ابن خلكان ان السلطان مسعود رأى ان يوجه الخصي مجاهد الدين بهروز " الى بغداد والنا
عليها ونائبا عنه بها ، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون اليها النواب ...".(٤)
وقد تولى بهروز بعد عزل البقش السلاحي ، وكانت مدة ولايته على العراق نيفا وثلاثين سنة.(٥)
وينعت ابو شامة مجاهد الدين بهروز بأنه شحنة العراق .(٦)

ولا يتسع المجال لحشد المزيد من أخبار الشّحن ، بيد ان ما سقناه يكفي — في اعتقاد كاتب هذه السطور — للتدليل على ان الشحنة في بغداد كان يعتبر ممثلا للسلطان لدى دار الخلافة ونائبا عنه في العراق ، وحاكما عسكريا . وهكذا يمكن القول — في ضوء ما سبق من الاستشهادات — ان عبارة شحنة بغداد ، وعبارة شحنة العراق تشيران كلاهما الى مدلول واحد ووظيفة واحدة . الا ان علينا ان نتذكر ان فترات الفوضى ، التي كانت تشوبها التمردات كانت تحد من دائرة ولاية الشحنة ، وربما حصرتها ضمن نطاق مدينة بغداد .

أما الشحنة خارج بغداد أو خارج العراق ، أى في عواصم الاقاليم والمدن الاخرى ، فقد كان مركزه أقل أهمية من مركز شحنة العراق بطبيعة الحال ، من ناحية تمثيل الاخير للسلطان ونيابته عنه ، ومن حيث أهمية البلد الواقع تحت ولايته . ومع ذلك فان الشحنة كان اكثر من مجرد صاحب

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣٢٩ .

(٢) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٦٥ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٢٣٣ ، وانظر ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٥) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ١٦٣ و ١٨٦ .

(٦) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٣٢٩ .

شرطة هنا أيضا . ومما يؤيد هذا الرأى انه عندما عين عماد الدين زنكي شحنة في البصرة وأقطع واسط سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م كانت مهمة زنكي مهمة قائد عسكرى مسئول عن الدفاع عن المدينة ضد هجمات أمير بني أسد ، صاحب الحلة ، دبيس بن صدقة . ولم يكن دبيس مجرد مثير للقلاقل ، بل كان عدوا خارجا على السلطان ، استطاع قبل ذلك ، وفي السنة ذاتها ، ان يهزم قوة وجهها اليه السلطان بقيادة آق سنقر البرسقي ، شحنة العراق ، الذى كان زنكي واحدا من أمرائه الصغار.[(١)]

وكان شحنة دمشق في عهد أتابك طغتكين (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م ـ ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) هو في الوقت نفسه نائبه في الولاية .[(٢)] وكان أسد الدين شيركوه نائبا لنورالدين محمود في دمشق وشحنة فيها ،[(٣)] وقد خلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين ،[(٤)] وكان شيركوه وصلاح الدين من أهم قادة نورالدين محمود الذين يعتمد عليهم ، وهذا يدلنا على أهمية منصب الشحنة . ويبدو انه كان لكل مدينة شحنة ، فابن الاثير يذكر انه كان في مدينة سنجار شحنة ،[(٥)] ونقرأ لابن الجوزى فيما يرويه عن يحيى بن هبيرة الوزير ، انه كان في بعض القرى شحنة .[(٦)]

وكان من واجبات الشحنة حفظ الامن في المدينة او البلد الذى تحت ولايته ، فعندما كان العيارون يقلقون بغداد كان الشحنة هو الذى يتولى كفهم ، هو وأتباعه .[(٧)] كما كان الشحنة يتولى التحقيق في الجرائم أحيانا .[(٨)]

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٢٤ـ٢٥ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣١ ، سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ٦٩ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٣٦ .

(٤) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ٢٥٢ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩٥ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ .

(٧) المصدر نفسه ، مجلد ١١ ، ص ٤٥ و ٦١ و ٨٩ ، وانظر كذلك ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٨) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٢٠٦ .

وفضلا عن هذه الواجبات ذات الصبغة العسكرية نجد بعض الشحن يقومون ببعض الاصلاحات المدنية ، اذ يذكر عن بهروز الخادم انه عمل سدا في النهروانات وحفر مجرى نهريا قديما كان قد انطمر (١) كما انه بنى بعض الرباطات (٢)

وكان الشحنة يستنيب عنه نائبا ، ولسنا ندرى ان كان هذا الامر قد جرى مجرى القاعدة العامة ، ولكننا نعرف ان اتيكين السليماني اناب عنه ابنه في شحنكية بغداد (٣) وان الامير منكوبرس استناب فيها ربيبه الامير حسين بن ازبك (٤) وان عبد الرحمن بن طغايرك استناب ولده وحمل العبء الى الامير ايلدكز (٥) واحيانا تورد المصادر ذكر نائب الشحنة يقوم بواجبه دون ان تحدد اسمه ، مثل ما ذكره ابن الجوزى من ان شخصا وجد مقتولا سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م نجاء نائب الشحنة (٦) كما كان للشحنة جنود واتباع تحت امرته ، فعن حادثة القتل هذه يذكر ابن الجوزى ان اصحاب الشحنة كبسوا المحلة ، وان نائب الشحنة وكل عشرة من اصحابه بدار الوزير ، وعشرة آخرين بدار ابن صدقة صاحب المخزن لانهما مهما بان لهما علاقة بالجريمة (٧) .

صاحب الشرطة :

يبدو ان السلاجقة لم يعنوا بتعيين صاحب شرطة ، باعتبار ان مهماته تدخل ضمن عمل الشحنة . ولعل هذا هو السبب في اننا لم نعثر على ذكر لصاحب الشرطة في غير مدينة بغداد . اما في بغداد فيرد اسم صاحب الشرطة ، احيانا . ونعرف من هؤلاء ابا محمد النسوى الذى شغل منصب صاحب الشرطة في بغداد ، وتوفي عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م (٨) والظاهر انه شغل هذا المنصب في العهد

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١١ ، ص ١١٧ ؛ وابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٧٧ .
(٢) الذهبي ، المختصر المحتاج اليه ، مجلد ١ ، ص ٢٦٥ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٧٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣٣ .
(٥) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٢٠٦ .
(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٢٢ — ٣ .
(٧) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .
(٨) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٢ .

البويهي . ويورد ابن الجوزي ذكر ابي الغنائم اسماعيل ، صاحب الشرطة ببغداد ، ويصفه بانه كان ظالما (١) وكان ابو الغنائم يشغل هذا المنصب سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧م ويتحدث سبط بن الجوزي عن صاحب شرطة الخليفة ضمن اخبار تلك السنة (٢) ، فلعله هو ابو الغنائم نفسه .

والمرجح لدى ان صاحب الشرطة ببغداد لم يكن له نفوذ يذكر بوجود الشحنة . غير انه من الجائز او الراجح ان منصب صاحب الشرطة قد استعاد شيئا من اهميته في عاصمة الخلافة بعد ان خلت من الشحن ، وبعد تمتع الخلفاء بشيء من الاستقلال والقوة .

وظائف اخرى

وغير هذه المؤسسات التي وصفنا نجد في المصادر ذكر عدد من المناصب ، كمنصب عميد العراق الذى كان يعينه السلطان . والظاهر انه كان مختصا بالاشراف على الادارة المدنية . ففي سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦م قدم الى بغداد ناظرا في اعمالها ، العميد ابو نصر ، موفدا من قبل السلطان ملكشاه بصحبة سعد الدولة كوهرائين ، الشحنة (٣) ويبدو ان بعض العمداء كانوا يسببون الاذى والضيق للخلافة ، اذ نقرأ ان الخليفة المقتدى بعث بالشيخ ابي اسحاق الشيرازى في رسالة الى السلطان ملكشاه " تتضمن الشكوى من العميد ابي الفتح بن ابي الليث . وامره ان ينهي ما يجرى على البلاد من النظار (٤) وممن شغل هذا المنصب كمال الملك الدهستاني الذى توفي ٤٩٥ هـ/ ١١٠٢م (٥) وفي خلافة المستظهر بالله (٤٨٩ هـ - ٥١٢ هـ) كان عميد بغداد من قبل السلطان محمد بن ملكشاه هو ابو جعفر محمد بن الحسن العراقي (٦)

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤٩ .
(٢) سبط الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ١٨ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٠٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .
(٦) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٤٢ .

ولا تسعفنا المصادر بالكثير من المعلومات عن اختصاصات عميد العراق ، غير ان فيما اوردناه ما يوحي بانه كان مسئولا عن الادارة المدنية كما ذكرنا نشكوى الخليفة من العميد الى السلطان تضمنت الشكوى مما " يجري على البلاد من النظار " والذي يفهم من هذه العبارة ان العميد كان مسئولا عن النظار .

ومن الوظائف الهامة وظيفة كبير الحجاب ، وهي وظيفة لم تكن خاصة بالخلفاء والسلاطين وحدهم ، بل ان بعض الوزراء وامراء الاقاليم كان لهم حجاب كذلك . وتدل المعلومات التي بين ايدينا ان الحاكم الواحد كان له عدد كبير من الحجاب ، فنقرأ مثلا انه عندما تزوج السلطان طغرلبك ابنة الخليفة ، وطلب من والدها ان ينقلها من دار الخلافة الى دار السلطنة ببغداد احتج الخليفة بان الغرض من الزواج كان الشرف ، وليس حقيقة الزواج . وذكر انه اشترط ان يرى السلطان عروسه في دار الخلافة فتعلل طغرلبك بان من الصعب مجيئه الى دار الخلافة ، اذ يلزم - في تلك الحالة ان تفرد اماكن لحجابه ، وغلمانه ، اذ لا يمكنه بعدهم عنه (١) وعندما نقلت العروس الى دار المملكة وجلست فيها " كان السلطان والحجاب ، ووجوه الاتراك يرقصون في صحن الدار ، فرحا وسرورا (٢))) وقد ذكر ابن الجوزي ان بعض حجاب نظام الملك صنع امراة ضعيفة من الوصول اليه فطرده نظام الملك قائلا : " انا استخدمتك لتوصل الي مثل هذه ، لا لتوصل الي رجلا كبيرا او حاجبا جليلا (٣)

ويذكر ابن الاثير ان الخليفة القائم بامر الله " استخدم ابا تراب الاثيري في الانهاء وحضور المواكب ، ولقبه حاجب الحجاب (٤) ولسنا ندري ان كان هذا اللقب قد اعطي في هذه الحالة المفردة ام انه كان يعطي لكبير حجاب دار الخلافة بصفة دائمة . والذي ارجحه انه لم يكن لقبا دائما بل كرم به الاثيري بعينه . والذي يشجع على مثل هذا الترجيح انني لم اعثر على ذكر حاجب اخر حمل اللقب نفسه . في حين تردد ذكر الحاجب او حاجب الباب مثل ابي المعالي بن الحسين الذي كان حاجبا للخليفة ، وقد عزله سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م (٥) وعبدالله بن محمد الدامغاني الذي عين حاجبا على باب النوبي ، احد ابواب دار الخلافة وكان قبل ذلك قاضيا (٦)

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٢٩ .
(٢) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ ، وانظر مجلد ٩ ، ص ٨٤ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٤ .
(٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٤٥ .
(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٥١ .

ومثل ابي منصور ابن بكران حاجب الباب بدار الخلافة ، الذى توفي سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م فعين مكانه ابوعبدالله المردوسي (١) ولكن ذكر الحاجب بصيغة المفرد لا يعني انه كان لدار الخلافةحاجب واحد ، فعندما ولي ابو الحسن الدامغاني/ قضاء القضاة سار في موكب مشى فيه النقيبان " وحجاب الديوان (٢) وفي سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م عين ابو الفتح بن طلحة حاجبا في دار الخلافة " فجلس بباب النوبي وجلس ابن المعوج نائبه " (٣) وفي سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ارسل حاجب من ديوان الخلافة ليستدعي النقيبعلي بن طراد (٤)

وعندما تولى عماد الدين زنكي الموصل لاول مرة كان من ضمن اصحابه الذين لا عينهم في المناصب الهامة الامير صلاح الدين الياغيسياني الذى عينه امير حاجب (٥)

ونحن نستنتج من هذه الامثلة المتعددة وجود وظيفة حاجب كبير وحجاب اخرون معاونون له . ويؤيد الشيرزى استنتاجنا فيذكر " صاحب الحجاب " (٦) و " كبار الحجاب " (٧)

اما اختصاصات الحاجب فالاصل فيها انه صلة بين الخليفة (او السلطان او الملك) وبين الناس . وقد مر معنا ، قبل قليل ، ان الحجاب كانوا يرسلون احيانا ، لاستدعاء بعض الشخصيات الهامة . ويصف الشيرزى عمل صاحب الحجاب فيذكر انه يدخل على الملك ، فاذا استدعى الملك الوزير ياتي به الحاجب الى ان يوصله الى السرير ثم يتاخر ليتيح للملك ووزيره فرصة السرية

---

(١) المصدر نفسه، مجلد ٨، ص ٢٣٨ ؛ وانظر مجلد ١٠، ص ١٦٠ — ١٦١.
(٢) المصدر نفسه، مجلد ٩، ص ٨٣ .
(٣) المصدر نفسه، مجلد ٩، ص ١٩٩.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.
(٥) ابن الاثير، الباهر، ص ٣٥ .
(٦) الشيرزى، المنهج المسلوك، ص ٧٠.
(٧) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

في الحديث .(١) ويظل الحاجب يدخل كبار الشخصيات على الملك ، فيوصل الواحد منهم ثم يتركه ويذهب ليرافق غيره . وحين يلتئم المجلس ، ويتخذ الناس أماكنهم حسب اهمية كل منهم "يكون صاحب الحجاب واقفا بالبعد ، بحيث اذا دعي أجاب." (٢)

وعندما جاء السلطان طغرلبك الى بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م كان الحاجب يسير على مسافة بعيدة أمام الموكب ، فعندما خرج وزير الخليفة لتلقي السلطان كان أول من لقيه حاجب السلطان الذى قدم له فرسا ، وجاء بعد الحاجب وزير السلطان ، ثم ان الوزيرين سارا معا الى ان وصلا الى السلطان .(٣) ويوضح لنا الشيزرى انه عندما يسير الملك في موكبه تسير أمامه "قطعة من الحجاب في مقدمة الموكب ، يطرّقون ويمنعون أحدا من سلوك الطرقات." (٤)

وهكذا يمكن ان يقال ان كبير الحجاب كان يختص بتوصيل الشخصيات الهامة الى الملك او السلطان ، او ينقل اليها ومنها ما يراد نقله ، وانه يسير في مقدمة الموكب الملكي عند خروجه .

بيد ان نفوذ الحاجب كان يتضخم أحيانا خاصة حجاب بعض السلاطين ، ففي سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤٢م "تولى عبد الرحمن طغايرك حجبة السلطان ، واستولى على المملكة ، وعزل الامير تتر الطغرلي عنها ، وآل أمره الى ان يمشي في ركاب عبد الرحمن .(٥) كذلك نقرأ ان أحد كبار حجاب دار الخلافة استغل منصبه استغلالا سيئا ، فقبض عليه ووكل به في الديوان ، وأحضر

---

(١) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧١ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٤ .

(٤) الشيزرى ، المنهج المسلوك ، ص ٧١ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٨٩ .

الناس واوقفوه على ما اخذ منهم واخرج منه الى بيته (١)

وقد بالغ احد الباحثين المحدثين في اهمية وظيفة الحاجب وذهب الى انه " هو الذى يتصل بالسلطان ويكون صلة الوصل بينه وبين الوزير ، وهو وحده الذى يتلقى اوامر السلطان الشفهية وهو وحده ايضا الذى يستطيع ان يوصل الاوامر والنواهي السلطانية الى الوزير للقيام بتنفيذها . اى انه الشخص الوحيد المخول بنقل مطاليب السلطان معنى ذلك ان كلام الحاجب هو كلام السلطان، وعلى الوزير وغيره من موظفي الدولة تنفيذ اقواله". (٢)

ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد كان الوزير هو اهم الشخصيات بعد السلطان، وذلك عندما يكون وضع السلطنة سويا . اما تضخم دور الحاجب فقد كان شذوذا . والامثلة التي سقناها تبين ان دور الحاجب لم يكن بهذه الاهمية قط. والذى اراه ان منصب كبير حجاب السلطان كان يعطي لكبار الامراء احيانا من قبيل التكريم والتشريف . وكان شاغل المنصب هو الذى يعطي الاهمية للمنصب وليس العكس. واود ان اضيف هنا انني لم اعثر على ما يشير الى اعمال مهمة قام بها الحاجب في عهد قوة السلطنة بل قلما يرد ذكر الحاجب السلطاني في المصادر .

وهناك وظيفة خاصة بدار الخلافة هي وظيفة " استاذ الدار " ورغم ان اسم وظيفته يدل على اختصاصه بالشؤون الخاصة لدار الخلافة ، اى انها تماثل وظيفة مدير البلاط في العرف الحديث ، الى حد ما فقد اعتبر من الشخصيات الهامة . وقد تضخم نفوذه في الفترة الاخيرة من العهد السلجوقي حتى اننا نجد استاذ الدار عضد الدين ابا الفرج بن رئيس الرؤساء يتآمر مع الامير قايماز المتحكم في دولة الخلافة فيقتلان الخليفة المستنجد باغلاق الحمام عليه وهو مريض سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م وبعد الخلاص من الخليفة الحقا بـــه

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم ، مجلد ١٠، ص ١٦٠ — ١٦١.

(٢) حسين امين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد : المكتبة الاهلية ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م)، ص ١٨٣.

وزيره ابن البلدى ، الذى قطعت جثته ورميت في دجلة (١) ويبدو ان نفوذ استاذ الدار استمر في الاتساع لدرجة ان اصبح اسمه يذكر في الخطبة في ايام الخليفة الناصر لدين الله.(٢)

ومن ذوى الاهمية والمكانة من موظفي ذلك العصر صاحب المخزن ، وكان مسئولا عن حفظ الخزينة . ولكن نفوذه كان يزداد احيانا مثله في ذلك مثل غيره من كبار موظفي ذلك العصر ، لدرجة اننا نجد صاحب المخزن في دار الخلافة يتسبب مع اخرين في عزل ابن جهير وزير الخليفة وذلك سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م.(٣)

وكان المستوفي ، او صاحب ديوان الاستيفاء مختصا بجمع الاموال المستحقة للخزانة . وما اظن ان اهمية هذا الموظف بحاجة الى تنويه ، نظرا لاختصاصه بجمع الاموال ، فكان صاحب ديوان الاستيفـــاء شرف الملك ابو سعد محمد بن منصور بن محمد مثلا من ابرز اعوان الوزير نظام الملك.(٤)

اما الصاحب الطغراء فهو الذى كان يكتب الطغرى ، وهي الطرة التي تكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نعوت السلطان او الملك الذى صدر عنه الكتاب (٥) وكثيرا ما نجد ان صاحـــب الطغراء او الطغرائي هو كاتب الانشاء ايضا (٦) ولكـن هذا خاص بدولـة السلاطين . امـا بالنسبة لدار الخلافة فاننا نجد كاتب الانشاء ولم الاحظ انه كان هناك طغرائي للخليفة . ومع ذلك فقد كان كاتب الانشاء موظفا هاما في بلاط الخليفة ، فهذا كاتب الانشاء ابن الموصلايا ينوب عن الوزير (٧) في حالة غيابه او شغور منصبه اما كاتب الانشاء سديد الدولة بن الانبارى ، محمد بن عبد الكريم ، فقد

---

(١) ابن الاثير، الباهر، ص ١٥٠ – ١؛ وابن ابي اصيبعة، ص ٣٤٧ – ٣٤٨.
(٢) ابن جبير، ص ١٨١.
(٣) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٤٩؛ وسبط بن الجوزى، مجلد ٨، ص ١٨.
(٤) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٥٩؛ وابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٢٥٥.
(٥) ياقوت، معجم الادباء، مجلد ١٠، ص ٥٧؛ وابن خلكان، مجلد ١، ص ٤٤٢.
(٦) الكاتب الاصفاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٥٩ و ١٢٩.
(٧) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ١٠، ص ٢٠٦.

بعث به الخليفة رسولا من قبله الى السلطان سنجر .[١] وكان صاحب ديوان الانشاء والطغراء في السلطنة واحدا من أهم معاوني نظام الملك،[٢] كما ان ابا القاسم الدركزيني صاحب الطغراء والانشاء كان احد المتحكمين في السلطنة أيام سنجر ،[٣] وقد أصبح وزيرا بعد ان نجح في مؤامراته ضد خصومه .[٤]

ويبدو لي ان بامكان الباحث ان يستنتج ان الوظائف العسكرية كانت تتفوق في أهميتها ونفوذها على الوظائف المدنية ، وهذا أمر غير مستغرب عندما يكون الحكم مرتكزا الى الجيوش . وربما صدق مثل هذا القول على أوضاع بعض أقطارنا العربية في الوقت الراهن . كذلك يمكن ان نستنتج ان اهمية المنصب كانت تتوقف على قوة شخصية شاغله ونفوذه ، وقد أشرنا الى ان بعض شاغلي المناصب ذات الاهمية القليلة نسبيا استطاعوا فرض نفوذهم على الدولة بشكل عنيف .

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ — ١٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .

الفصل الثالث

الحياة العقلية

الحياة العقلية

ملامحها العامة :

نعني بالحياة العقلية امورا ثلاثة : أولها المفاهيم الاساسية التي يتبناها المجتمع عن الكون والانسان والعلاقة بينهما، وثانيها الجهود العقلية الرامية لفهم مظاهر الحياة ، وموقف هذه الجهود من الافكار السابقة ومقدار مساهمتها بالجديد من الافكار ، وثالث هذه الامور يتمثل في مقدار اهتمام الناس بتثقيف العقول وتدريبها على التفكير ، او جعلها تدرك الظواهر والافكار على نحو معين ، واهداف هذه العملية التثقيفية والمسالك أو الاساليب التي تسير على هديها، ومقدار ما تحققه من نجاح ·

ان اهم الملامح البارزة التي يلاحظها الدارس للحياة العقلية العربية في العصر السلجوقي هي :

١ ـ غلبة الطابع الديني ، اذ ان النظرة الاساسية التي شكلت الاطار العام لتفكير الناس عامة ، في ذلك العصر كانت نظرة دينية ، تنبع من العقيدة الاسلامية ·

٢ ـ الايمان الغيبي ، فقد تضمنت العقيدة الاسلامية من مبدأ ظهورها ضرورة الايمان الغيبي بأمور حددتها ، كالبعث والحساب والجنة والنار والملائكة والجن والشيطان· وقد توسع الناس في الايمان الغيبي لدرجة شلت عقولهم ، بحيث اصبح لديهم الاستعداد لقبول كل خرافة مهما بدا من غرابتها وبعدها عن طبيعة الاشياء·

٣ ـ الجمود وروح التقليد ، وهو يعود الى ما قبل العصر السلجوقي بزمن طويل

٤ ـ حدة الانقسامات الدينية والمذهبية

ولسنا بحاجة الى سرد المفاهيم الاساسية التي تبناها المجتمع عن الكون والانسان ، والعلاقة بينهما ، اذ انها امور مشهورة ومعلومة · ولكن ربما كان ادراك مقدار الاسراف في الايمان الغيبي ، والجمود وروح التقليد ، وحدة الانقسامات الدينية يستلزم عرض بعض الامثلة ·

فهذا ابن عساكر ، وهو من اكبر رجالات العصر ، يروى أمورا من قبيل قصة شيخ ضرير اعتكف ثلاثين سنة في كهف بجبل لبنان — على زعم ابن عساكر — وكان طائر يأتيه كل يوم بأطعمة مختلفة الالوان . وضل رجل طريقه فقدم على ذلك الشيخ في معتكفه وتحدث اليه ، وفي ذلك اليوم احضر الطائر طعاما أضافيا ، بمناسبة حضور هذا الضيف ، كما توحي الرواية . وعندما عزم الرجل على الرحيل وهو لا يستطيع الاهتداء الى طريق دمشق قال له الشيخ انه بعد ان يخرج من عنده ويمشي خطوات سيجد أمامه أسدا في انتظاره ، وعليه ان يتبعه اذا مشى امامه ، فسيد له على الطريق . وتقول الرواية ان الاسد دله على الطريق ، وان الرجل وصل الى دمشق .

وفي ترجمته للشيخ ابي الفرج الشيرازى (ت ٤٨٦ هـ) ، يذكر ابن ابي يعلى الغراء البغدادى ، المتوفى سنة ٥٢٦ هـ ان الشيخ ابا الفرج هذا اجتمع مع الخضر مرتين . وكان تتش بن الب ارسلان ، صاحب دمشق قد عزم على الذهاب لمقابلة أخيه السلطان ملكشاه ، وقد ملأ الخوف قلبه من استدعاء اخيه له ، فذهب الى الشيخ الشيرازى هذا يطلب منه الدعاء ، فأكد له الشيخ انه لن يراه . وسافر تتش فلما وصل هيت بلغه خبر موت اخيه السلطان ، فرجع (٢) . وكان الشيخ الشيرازى يدعو على أحد مخالفيه ويقول : " كم ارميه ولا تقع الرمية به : فلما كان في الليلة التي هلك ذلك المخالف فيها ، قال ابو الفرج لبعض اصحابه : قد أصبحت فلانا وقد هلك . فوّرخت الليلة ، فلما كان بعد بضعة عشر يوما ورد الخبر بوفاة ذلك الرجل الذى اخبر ابو الفرج بهلاكه . " (٣)

ونسب الى الشيخ عبد الله بن محمد المؤيدى الشافعي انه رأى في المنام ، في منتصف محرم سنة ٤٦٨ هـ ، الشيخ أبا أسحاق الشيرازى (ت ٤٧٦ هـ) ، كبير الفقهاء الشافعية في عصره ، رآه يطير في السماء الثالثة أو الرابعة ، وأن ملكا اعترضهم

---

(١) ابن عساكر ، جـ ٢ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٢ .

(٢) ابن ابي يعلى ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٨٨ .

(٣) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٨٨ .

فهذا ابن عساكر، وهو من اكبر رجالات العصر، يروى أمورا من قبيل قصة شيخ ضرير اعتكف ثلاثين سنة في كهف بجبل لبنان - على زعم ابن عساكر - وكان طائر يأتيه كل يوم بأطعمة مختلفة الالوان. وضل رجل طريقه فقدم على ذلك الشيخ في معتكفه وتحدث اليه، وفي ذلك اليوم احضر الطائر طعاما أضافيا، بمناسبة حضور هذا الضيف، كما توحي الرواية. وعندما عزم الرجل على الرحيل وهو لا يستطيع الاهتداء الى طريق دمشق قال له الشيخ انه بعد ان يخرج من عنده ويمشي خطوات سيجد أمامه أسدا في انتظاره، وعليه ان يتبعه اذا مشى امامه، فسيد له على الطريق. وتقول الرواية ان الاسد دله على الطريق، وان الرجل وصل الى دمشق.

وفي ترجمته للشيخ ابي الفرج الشيرازى (ت ٤٨٦ هـ)، يذكر ابن ابي يعلى الغراء البغدادى، المتوفى سنة ٥٢٦ هـ ان الشيخ ابا الفرج هذا اجتمع مع الخضر مرتين. وكان تتش بن الب ارسلان، صاحب دمشق قد عزم على الذهاب لمقابلة أخيه السلطان ملكشاه، وقد ملأ الخوف قلبه من استدعاء اخيه له، فذهب الى الشيخ الشيرازى هذا يطلب منه الدعاء، فأكد له الشيخ انه لن يراه. وسافر تتش فلما وصل هيت بلغه خبر موت اخيه السلطان، فرجع[2]. وكان الشيخ الشيرازى يدعو على أحد مخالفيه ويقول: "كم ارميه ولا تقع الرمية به: فلما كان في الليلة التي هلك ذلك المخالف فيها، قال ابو الفرج لبعض اصحابه: قد أصبحت فلانا وقد هلك. فوّرخت الليلة، فلما كان بعد بضعة عشر يوما ورد الخبر بوفاة ذلك الرجل الذى اخبر ابو الفرج بهلاكه."[3]

ونسب الى الشيخ عبد الله بن محمد المؤيدى الشافعي انه رأى في المنام، في منتصف محرم سنة ٤٦٨ هـ، الشيخ أبا أسحاق الشيرازى (ت ٤٧٦ هـ)، كبير الفقهاء الشافعية في عصره، رآه يطير في السماء الثالثة أو الرابعة، وأن ملكا اعترضهم

---

(١) ابن عساكر، جـ ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٢.

(٢) ابن ابي يعلى، جـ ٢، ص ٢٤٨ - ٢٤٩، ابن رجب، مجلد ١، ص ٨٨.

(٣) ابن رجب، مجلد ١، ص ٨٨.

وأقرأ الشيخ ابا اسحق السلام من الله ، وبلغه سؤاله :" ماذا تدرس لاصحابك ؟ فقال الشيخ : ادرس ما نقل عن صاحب الشرع . فقال له الملك : فاقرأ علي شيئا من ذلك لأسمعه . فقرأ عليه الشيخ مسألة لا أذكرها ، فاستمع له وانصرف. وأخذ الشيخ يطير وأصحابه معه ، فرجع الملك بعد ساعة ، وقال للشيخ : ان الله تعالى يقول : الحق ما انت عليه واصحابك ، فادخل الجنة معهم".(١)

ومن الجائز ان يكون الشيخ المؤيدى قد حلم ، ورأى في المنام ما وصفه ، بيد اننا لا نقصد تصديق او تكذيب حدوث الرؤيا ، بل الذى نقصده هو بيان ما تدل عليه القصة من عقلية خرافية ، ذلك ان الشيخ المؤيدى وجماعته صدقوا هذه القصة ، ونشروها على أساس انها تدعم مذهبهم ، ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال للشيخ الشيرازى ان الحق ما هو عليه ، اى مذهب الشافعي .

ومن قبيل ذلك ما ذكره ابن الجوزى من خوارق نسبها الى الزاهد اردشير بن منصور العبادى ، احدها أن شخصا خاطئا جاء الى الشيخ ليعلن توبته ، فقال له الشيخ :" قف مكانك ليعسلك ماء المطر ، فوقف ، فوقع المطر ...،(٢) ولم تكن هناك غيوم او بوادر مطر (٣).

وهناك روايات متعددة عن خوارق منسوبة للشيخ ابي الحسين بن ابي عبد الله الصوفي المقدسي ، الذى كان مقيما بالشام أيام نور الدين محمود ، منها ان الشيخ كان مسافرا يوما مع صديق له ، وكان الوقت صيفا والحر شديدا . فدعا الشيخ رفيقه الى ان يقوما بزرع مقتاة ، فاجابه ، وبدأ رفيقه يحفر وهو يزرع . وبعد ان فرغا استراحا قدر ساعة تحت شجرة بعيدة عن المكان الذى زرعا فيه . ثم أمر الشيخ رفيقه بالذهاب الى المقتاة التي زرعاها ليحضر لهما بطيخا ، فذهب ولم يجد شيئا . فقام الشيخ وأخذه الى ذلك المكان فاذا هو ارض خضراء تموج بالبطيخ . فأكل حتى شبعا وملا خرجيهما ، واكملا سفرتهما الى وجهتهما (٤).

---

(١) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٥ - ٧٦

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٨ ، ورقة ٧٠ ق .

ونقل عن الشيخ الصوفي احمد الرفاعي المتوفى عام ٥٧٠ هـ والذى نشر طريقته بين اهل البطائح ، جنوبي العراق ، نقل عنه انه كان يعظ وهو واقف على شـــيء مرتفع ، والناس محتشدون أمامه . وربما خطا في الهواء بضع خطوات فوق رؤوس الناس ثم عاد الى موضعه (١). وامثال هذه الخرافات تملأ بطون الكتب ، وتغني نفــــس القارىء بكثرتها (٢).

وجاءت حملة ابي حامد الغزالي ضد العقل ، ودعوته الناس الى الايمـــــان بالكشف وأنه وحده الطريق الصحيح الى المعرفة الحقة ، وتقسيمه العلم الى علم الظاهر المستند الى ظاهر النصوص الدينية وعلم الباطن الذى يأتي عن طريـــــق الكشف ، جاءت سندا قويا للاتجاهات الغيبية المسرفة (٣). ومن العجيب ان يؤكـد الغزالي ان علوم الباطن ، او علوم المكاشفة ، التي هي " مقصد الطالبين ومطمـــح نظر الصديقين ..." (٤) ـ حسب رأيه ـ غير مرخص بايداعها الكتب ، " ولا متحـدث بها من انعم الله عليه بشيء منها الا مع اهله ، وهو المشارك فيه ، على سبيـــل المذاكرة ، وبطريق الاسرار ..." (٥).

ويتصل بهذه الآفات التي زادت في جمود العقل العربي ان المعاصرين آمنوا بالتنجيم واعتقدوا صحة اقوال المنجمين . ومن مظاهر ذلك ما يلاحظه القارىء لتاريخ ابن القلانسي ، المتوفى ٥٥٥ هـ من حرص المؤلف على ان يذكر " الطالع " عند ذكـــره ابتداء السنين التي تحدث فيها احداث يعتبرها هامة (٦).

ومن امثلة تأثر الناس ، عامتهم وخاصتهم ، بالتنجيم ان المنجمين اكثروا الحديـث عن طوفان شامل سيحيق بالعالم سنة ٤٨٩ هـ . فأمر الخليفة باحضار ابن عيشون ، ويبدوا انه كان من مشاهير المنجمين ، فقال ابن عيشون : انه عندما حدث " طوفـان

---

(١) الشعراني ، ج ١ ، ص ١٠٨.

(٢) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٨ ، ورقة ٦٧ ق ـ ٦٩ ق ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١١ و ٣٨ و ٥٠ ـ ٥١ و ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) الغزالي ، المنقذ ، ص ٧٩ ، والاحياء ، ج ١ ، ص ١٨ ـ ١٩.

(٤) الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ٤.

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٩.

(٦) انظر ابن القلانسي ، ص ٢٥٧ و ٢٩٧ و ٣١٩ و ٣٢٦ و ٣٣١ و ٣٣٣ و ٣٣٧ و ٣٥٠.

نوح اجتمع في برج الحوت الطوالع السبعة والآن فقد اجتمع في برج الحوت من الطوالع ستة وزحل لم يجتمع معهم ، فلو كان معهم كان طوفان نوح . ولكن اقول : ان مدينة او بقعة من البقاع يجتمع فيها (١) عالم من بلاد كثيرة فيغرقون ..."(٢) فتوقع الناس ان تفرق بغداد ، وأمر الخليفة بالاستعداد لمواجهة احتمال فيضان دجلة ، وبحراسة المواضع التي يخشى ان تنبثق منها المياه (٣).

ويذكر ياقوت ان البديع الاسطرلابي (ت ٥٣٤ هـ) "عمل الطلاسم ورصد لها ما يوافقها من الاوقات السعيدة ، وحملها الى الملوك والامراء والوزراء، فجربوها فصحت وحصل له منها ... اموال جمة ..."(٤)

ومن ناحية اخرى فقد أخذ الجمود بخناق الفقهاء والعلماء في ذلك العصر حتى لم يعد مجال لحركة الفكر او تقدمه . وقد ذكر عن امام الحرمين ، وهو من ابرز فقهاء الشافعية في العصر السلجوقي ، روى عنه انه تراجع عن تعاطي الكلام . وقد نسب اليه : "وكنت اهرب في سالف الدهر من التقليد ، والآن فقد رجعت عن الكل الى كلمة الحق ـ عليكم بدين العجائز ، فان لم يدركني الحق بلطف بره والا فالويل لابن الجويني ."(٥) وسئل الفقيه منصور بن محمد السمعاني (ت ٤٨٩ هـ) عن اخبار الصفات ، اى صفات الله ، فأجاب : "عليكم بدين العجائز". (٦)

ولم يقتصر الجمود على الفقهاء والمفكرين الدينيين ، بل ان روح التقليد طغت على الانتاج الادبي كذلك . وبعد ان كانت المحسنات البديعية زينة مقبولة في انتاج كتاب الفترة السابقة لعصر السلاجقة اصبحت هذه الزينة تتكلف لذاتها

---

(١) في الاصل "فيه".

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها.

(٤) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٩ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٩

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

لتستر تبلد الاذهان[١]. فمقامات الحريرى ، مثلا ، التي اعتبرت اعظم انتاج ادبي في العصر السلجوقي ، كانت تقليدا صريحا لمقامات بديع الزمان الهمذاني ، ليس في شكلها الادبي فحسب ، بل وفي شخصيات الروايين ، فابو الفتح الاسكندرى عند الهمذاني يمثله ابو زيد السروجي عند الحريرى[٢]. وقد اتسمت هذه الفترة بضخامة انتاجها الادبي وتدني مستواه من لحيث النوع[٣]

ومن اسوأ السمات التي اتسمت بها الحياة العقلية في العصر السلجوقي الانقسامات المذهبية ، وتعدد الفرق الدينية ، تلك الانقسامات التي زاد من شرورها ما صاحبها من تعصب مفرط ، وضيق افق قاتل ، وحقد على المخالفين يعمي البصر والبصيرة . وقد ادت هذه الحال الى اجتهاد كل فريق في محاولات للقضاء على الخصوم بما تيسر من وسائل .

اهتمامات المفكرين :

كان الفقهاء هم اهل العلم والفكر ، وقد نتج عن هذه الحقيقة ان العلوم الدينية هي التي حظيت بأكبر عناية . والواقع اننا لا نجد أثرا لاهتمام العلماء بالمشاكل الحياتية التي عانى منها الناس ، وهي مشاكل في غاية الخطورة على الكيان العام ، جعلته فريسة لامراض مزمنة لا نهاية لها ، في مختلف جوانب الحياة . وبدلا من ذلك شغل اكثر الفقهاء انفسهم بأمور عقيمة لا يفهمها عامة الناس ولا يهتمون بها اهتماما ذاتيا ، وانما تعيش في ادمغة الفقهاء .

وقد احتدمت الخلافات بين فقهاء المذاهب السنية انفسهم ، وبينهم وبين اتباع الفرق الشيعية . ويبدو انه كان هناك ثمة دعوات فكرية مناهضة للمعتقدات الدينية بصفة عامة . وكانت اهم المشاكل التي انشغل بها المفكرون :

---

(1) H.A.R. Gibb, Arabic Literature; an Introduction (London: Oxford University Press, 1926), PP. 83-84

(2) Ibid., PP. 87 and 89

(٣) Ibid., P. 83 ، وانظر جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٣٠) ، مجلد ٢ ، ص ٣٥٠ .

ا - صفات الذات الالهية ومكانها (١)
ب - هل يرى الانسان الله في الآخرة ؟ (٢)
ج - هل الانسان يتصرف بحرية ام ان الله يسيره ، والى أى حد ؟ (٣)
د - هل القرآن مخلوق ام هو كلام الله ؟ (٤)

تلك هي اهم المشكلات التي اختلف حولها فقهاء اهل السنة فيما بينهم.

وقد شهدت بغداد صراعا داميا مدمرا ، كاد يكون مستمرا ، بين السنة والشيعة الامامية ، وكان الخلاف يدور حول عدد من المشاكل الرئيسية ، مع وجود خلافات في بعض تفاصيل الشعائر الدينية وما يشاكلها. واهم ما تردده المصادر من مشاكل الخلاف :

ا - مشكلة الامامة ، وقول الشيعة "بامامة علي رضي الله عنه بعد النبي عليه السلام ، نصا ظاهرا ، وتعيينا صادقا ..." (٥) لان الامامة اهم امور الدين ولا يجوز ان يرحل النبي دون ان يقرر امرها ويحسم اسباب الخلاف فيها (٦). وقد أضاف الشيعة ان الامامة انتقلت في ابناء علي من بعده (٧).

ب - مشكلة المفاضلة بين الصحابة ، فقد اعتبر الشيعة محمدا وعليا خير البشر (٨)، كما اعتبروا أبا بكر وعمر وعثمان مغتصبين للخلافة (٩)، هذا بينما رتب

---

(١) ابو حامد الغزالي ، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م)، ص ١٧٥ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما.

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٥ ، ص ٢٦١ ، ومجلد ١٨ ، ص ٢٥٧ ، السبكي ، مجلد ٤، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٤) الدليل هنا استنتاجي ، أخذناه من تأكيد كثيرين من الفقهاء السنيين على ان القران كلام الله ليس مخلوقا . انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٩٢ ، السبكي ، مجلد ٤، ص ٢٨٦ - ٢٨٩. والمشكلة قديمة ظهرت بصورة عنيفة أيام المأمور واستمرت أيام المعتصم والواثق ، وقد أيد كل من هؤلاء الخلفاء المعتزلة في قولهم بخلق القرآن.

(٥) ابو الفتح عبد الكريم بن ابي بكر احمد الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز الوكيل (القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاه ، ١٩٦٨م) ج ١ ، ص ١٦٢

(٦) المصدر والصفحة ذاتهما.

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٦.

(٨) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٧٢ .

(٩) الشهرستاني ، ج ١ ، ص ١٤٦ و ١٥٥

اهل السنة الخلفاء الراشدين من حيث الافضلية على النحو الذى تولوا به الخلافة[١]. وهناك مواضيع أخرى اكثر اغراقا في الشكلية اختلف حولها الفريقان ، مثل اضافة الشيعة لعبارة :"حي على خير العمل" الى الاذان ، مقابل العبارة التي يستعملها اهل السنة :"الصلاة خير من النوم"[٢] ومواضيع اخرى فقهية لا نرى ضرورة لاستقصائها، مثل اعتقاد الشيعة بعدم جواز السجود على ما ليس بأرض ولا نبات، وأن الزواج من الكتابيات حرام ، وأن الطلاق المعلق على شرط لا يقع وان وقع شرطه ، وأمثال ذلك[٣].

أما الخلافات بين اهل السنة من ناحية والشيعة الاسماعيلية ، أو الباطنية ، من ناحية اخرى ، فقد كانت اعمق من ذلك وأوسع . وقد تناول الغزالي حركة الاسماعيلية بالبحث في كتاب مستقل ، فذهب الى ان حركتهم كانت ثمرة مؤامرة واسعة دبرها "المجوس والمزدكية ، وشرذمة من الثنوية الملحدين ، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين ..."[٤] ويتحدث الغزالي عن حركة الاسماعيلية فيجعلها استمرارا لهذه المؤامرة القديمة ، ويعد من توراتها وتحركاتها ثورة بابك الخرمي ، الذى ظهر ايام المعتصم[٥]. ولسنا نستطيع متابعة ابي حامد فيما ذهب اليه ، فالغزالي سني متحمس، يهاجم الاسماعيلية بعنف ، لذلك فقد يسيء تمثيل آرائهم . ومهما كانت نزاهته فليس بامكان الباحث الأخذ بأحكامه على خصومه . هذا فضلا عن ان الغزالي ألف كتابه للخليفة العباسي المستظهر ، بتكليف منه[٦]، كجزء من جهود اهل السنة لمجابهة التحدى الفاطمي الاسماعيلي ، ومحاولة دحره والقضاء عليه . وهناك ناحية أخرى ، وهي

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص١٩٢ ، السبكي ، مجلد ٤، ص٢٨٦ـ٢٨٩ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص١٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٢٠ ـ ١٢٦ . وقد نسب هذه الاقوال الى الشريف المرتضى ، زعيم الشيعة .

(٤) ابو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، تحقيق عبد الرحمن بدوى (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤م)، ص١٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص١٤ ـ ١٥

(٦) الغزالي ، فضائح ، ص٣ .

ان الغزالي لا يناقش مبادىء الاسماعيلية كما كانت تعرض في العهد السلجوقي فحسب، بل يعتبر كثيرا من الحركات، التي قامت في عهود متعددة سابقة، نسيجا واحدا وحركة متسلسلة مستمرة (١)، ويناقشها على هذا الاساس. ومع اننا لسنا في موقف يسمح لنا برد هذا الرأى، الا أن كاتب هذه السطور لا يميل الى قبول فكرة الوحدة والاستمرارية في الحركات الشيعية المتطرفة.

ويمكن ان نستنتج من اشارة مقتضبة اوردها الغزالي ان آراء الاسماعيلية في العصر السلجوقي اختلفت عن آرائهم في العصور السابقة، فهو يقول ان لقب التعليمية "هو الاليق بباطنية هذا العصر، فان تعويلهم الاكثر على الدعوة الى التعليم وابطال الرأى وايجاب اتباع الامام المعصوم، وتنزيله - في وجوب التصديق والاقتداء به - منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم." (٢)

ويتحدث الشهرستاني عن التطور الذى طرأ على الدعوة الاسماعيلية في العصر السلجوقي بقوله: "ثم أن اصحاب الدعوة الجديدة تنكبوا هذه الطريقة (٣) حين اظهر الحسن بن محمد بن الصباح دعوته، وقصر على الالزامات كلمته، واستظهر بالرجال وتحصن بالقلاع.

وكان بدء صعوده الى قلعة الموت في شهر شعبان سنة ثلاث وثمانين واربعمائة، وذلك بعد ان هاجر الى بلاد امامه، وتلقى منه كيفية الدعوى لابناء زمانه، فعاد ودعا الناس اول دعوة الى تعيين امام صادق قائم في كل زمان. وتمييز الفرقة الناجية عن سائر الفرق بهذه النكتة، وهي ان لهم اماما وليس لغيرهم امام". (٤) ويضيف الشهرستاني ان ابن الصباح حمل اصحابه على الاقتصار في مناقشتهم لمناوئيهم على

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١ - ٢٠ -

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧ .

(٣) اى طريقتهم القديمة في الدعوة .

(٤) الشهرستاني، ج ١، ص ١٩٥ .

نقاط قليلة محددة ، " وقد منع العوام عن الخوض في العلوم ، وكذلك الخواص عن مطالعة الكتب المتقدمة الا من عرف كيفية الحال في كل كتاب ودرجة الرجال في كل علم .

ولم يتعد باصحابه في الالهيات عن قوله ان الهنا اله محمد ... فان قيل لواحد منهم . ما تقول في البارى تعالى ؟ ... لم يجب الا بهذا القدر: ان الهي اله محمد ، و (هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١))، (٢)

ويضيف الشهرستاني انه ناظر القوم كثيرا على مقدماتهم ، اى القائلة انه لا بد من معلم ، ولا بد ان يكون معصوما ، ومعينا ، فلم يزيدوا في ردهم على مناقشاته عن قولهم:" أفنحتاج اليك ؟ أو نسمع هذا منك ؟ أو نتعلم عنك ؟ "(٣)

وفي ضوء هذا الذى نقلناه عن الغزالي والشهرستاني كليهما أرى ان حركة الاسماعيلية العاملة في اراضي السلطنة السلجوقية كانت أداة من أدوات الخلافة الفاطمية ، تستعملها لتحطيم الخلافة السنية تمهيدا لأن ترثها في كل ارجاء العالم الاسلامي ، اكثر مما كانت دعوة ترمي الى نشر عقيدة معينة . ولعل كثرة عمليات الاغتيال التي قام بها الباطنية ضد الحكام السنيين في السلطنة السلجوقية تعضد هذا الرأى ، ذلك ان عمليات الاغتيال ليست اداة الدعوة ونشر الفكرة ، وانما هي اداة تدمير القوة القائمة تمهيدا لازاحتها .

والظاهر ان ثمة حركات الحادية كانت ناشطة قبل العهد السلجوقي وفي اثنائه . فقد اورد ابن الجوزى نص رسالة بعث بها السلطان محمود الغزنوى الى الخليفة القادر سنة ٤٢٠ هـ ، تشير الى حملة قام بها محمود ضد الجماعات المنحرفة عن

---

(١) سورة التوبة ، ٣٣

(٢) الشهرستاني ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

الدين . ورغم ان الرسالة تصف المعتزلة والرافضة والباطنية بأنهم أهل الالحاد، الا انها تشير الى جماعات "يعدون جميع الملل مخاريق الحكماء، ويعتقدون مذاهب الاباحة في الاموال والفروج والدماء ..."(١) وتذكر الرسالة ان زعيمهم المدعو رستم بن علي جمع بين خمسين زوجة في عصمته في وقت واحد (٢).

بيد ان هناك رواية تؤكد وجود هذا النشاط الالحادى بشكل أوضح ، فقد روى عن ابي الوفاء بن عقيل ، كبير الحنابلة في بغداد ، انه بلغه ان الباطنية افسدوا عقيدة السلطان ملكشاه بن الب ارسلان ، حتى صار يقول :" ايش هو الله ؟ والى ما تشيرون بقولكم : الله ؟ " وأضاف ابن عقيل انه عمل على رد السلطان الى حياض العقيدة ، فكتب له ما خلاصته ان الملحدين ينكرون كل ما لا تدركه الحواس غي حين ان الانسان يدرك ان ما يقوم به البشر من انجازات في حقول الطب والهندسة وغيرهما انما مرده الى الروح والعقل ، وهما حقيقتان لا تدركان بالحواس ، بل بالاستدلال عليهما عن طريق أثرهما . فكذلك يستدل على الله من آثار صنعه في "الرياح والنجوم وادارة الافلاك وانبات الزرع وتقليب الازمنة ..."(٣) فعاد السلطان الى الايمان بالله (٤).

والواقع ان الخلافات بين أهل السنة كانت تدور حول امور شكلية ، وعندما يقارن الباحث بين اقوال الحنابلة الذين كانوا يوضعون بانهم مجسمة (٥)، واقوال الشوافقة الذين ناصروا مذهب الاشعرى لا يكاد يحس فرقا يذكر ، حتى من ناحية الشكل . ولدينا وصية لفقيه من كبار فقهاء الشافعية ، هو اسماعيل الصابوني (ت ٤٩٩ هـ) نستطيع ان نتبين منها رأى جماعته ، فهو يأمر أولاده باتباع الكتاب والسنة ، وما كان عليه الائمة (٦). وهو "يشهد ان الله سبحانه وتعالى قدر الخير

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٣٨-٣٩ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٣) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ، ص ٧٣-٧٤ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٨٠ .

(٤) المصدران والصفحات ذاتها .

(٥) انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٨ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٩ .

(٦) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٩٠ .

وأمر به ورضيه وأحبه وأراد كونه من فاعله ... وقدر الشر وزجر عنه ولم يرضه ولم يحبه ، وأراد كونه من مرتكبه غير راض به ولا محب له ... ويشهد ان القرآن كتاب الله وكلامه ، ووحيه وتنزيله ، غير مخلوق ، وهو الذى في المصاحف مكتوب ... ويشهد ان الله مستو على عرشه ، استوى عليه كما بينه في كتابه ... من غير ان يكتف استواءه عليه ... اذا الكيفية على صفات ربنا منفية ... ويشهد ان الله تعالى موصوف بصفات العلى التي وصف بها نفسه في كتابه ... لا ينفي شيئا منها ولا يعتقد شبها له بصفات خلقه ... ويسلك في الآيات التي وردت في ذكر صفات البارى ... والاخبار التي صحت عن رسول الله ... في بابها، كآيات مجيء الرب يوم القيامة ، واتيان الله في ظلل من الغمام ، وخلق آدم بيده ... وغيرها مسلك السلف الصالح ... من قبولها وروايتها على وجهها بعد صحة سندها، وايرادها على ظاهرها ... واتقاء اعتقاد التكييف والتشبيه فيها، واجتناب ما يؤدى الى القول بردها وترك قبولها ، او تحريفها بتأويل مستنكر ... وينهى في الجملة عن الخوض في الكلام والتعمق فيه والاشتغال بماكره السلف ... ويشهد ان خير الناس بعد رسول الله ... ابو بكر ... ثم عمر ... ثم عثمان ... ثم علي ... ويترحم على جميع الصحابة ويتولاهم ... ويوصى الى من يخلفه من ولد وأخ وأهل وقريب وصديق وجميع من يقبل وصيته من المسلمين عامة ان يشهدوا بجميع ما شهد به ...»(١)

ويحدد ابن ابي يعلى الغراء عقيدة الحنابلة نقلا عن والده الذى كان كبير فقهاء الحنابلة في عصره (ت ٤٥٨ هـ) على هذا النحو :

" ... الايمان والتصديق بما وصف الله تعالى به نفسه ووصفه به رسوله ، مع ترك البحث والتنفير ، والتسليم لذلك ، من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تفسير ولا تأويل ... فاعتقد الوالد السعيد وسلفه ... في جميع ما وصف الله تعالى به نفسه ، او وصفه به رسوله ... ان جميع ذلك صفات الله عز وجل ، تمر كما

---

(١) المصدر نفسه ، ص٢٨٦ — ٢٨٩ . لقد اخترنا وصية الصابوني لانها جامعة ، ولكن ليس معنى ذلك اننا اعتمدنا على شاهد واحد ، اذ كثيرا ما ترد نقطة وأخرى من هذه النقاط كرأى يتبناه الشوافعة .

جاءت من غير زيادة ولا نقصان ٠٠٠ فهم بها مؤمنون ٠٠٠ وبمعرفة كيفيتها جاهلون • لا يجوز عندهم ردها كرد الجهمية ، ولا حملها على التشبيه ، كما حملته المشبهة ، الذين اثبتوا الكيفية ، ولا تأولوها على اللغات والمجازات ، كما تأولتها الاشعرية ٠٠٠"(١) ويمضي ابن ابي يعلي في تصوير آراء الحنابلة :" فأما الرد على المجسمة لله : فيرده الوالد السعيد بكتاب ، وذكره ايضا في اثناء كتبه فقال : لا يجوز ان يسمى الله جسما ٠٠٠ فمن اعتقد ان الله سبحانه جسم من الاجسام واعطاه حقيقة الجسم من التأليف والانتقال فهو كافر٠" (٢)

فهذا الحنبلي يحاول ان ينفي عن الحنابلة تهمتي التشبيه والتجسيم ، بل ويتحدث عن المشبهة والمجسمة وكأنهم جماعات أخرى مناوئة ، ولكننا نجد عند مصدر حنبلي آخر ان الحنابلة انفسهم هم المتهمون بالتشبيه والتجسيم ، ذلك انه عندما جاء نظام الملك الى بغداد سنة ٤٨٤ هـ طلب ان يجتمع بفقهاء الحنابلة ليسألهم عن مذهبهم" فقد قيل لي انهم مجسمة ٠"(٣) وفكر ابو الوفاء بن عقيل ، كبير الحنابلة ، في الامر واستعد للامتحان على النحو التالي :

١ ـ سؤال المخالفين عن احمد وعما اذا كان ثقة في اخبار رسول الله والعلم بالشريعة ٠"

٢ ـ فان اقروا " فنحن على مذهب ذلك الرجل الذى أجمعوا على تعديله ٠٠٠ وان قالوا احمد ما شبه وانتم شبهتم ، قلنا الشافعي لم يكن أشعريا وانتم اشعرية ، فان كان مكذوبا عليكم فقد كذب علينا ٠٠٠"(٤)

ولكن يبدو انه كان هناك متطرفون من الجانبين ، اذ ينقل ابن رجب الحنبلي عن فقيه حنبلي عاش في العصر السلجوقي هو ابو الحسن بن الفاعوس كان يقول :

---

(١) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٠٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ ٠

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩/١٠ ، ص ٥٨ ٠

(٤) المصدر والصفحة ذاتهما ٠

"الحجر الاسود يمين الله حقيقة ."(١) وقد علق ابن رجب على ذلك بقوله انه ان صح هذا القول عن ابن الفاعوس فمرده الى "أن طائفة من أصحابنا وغيرهم نفوا وقوع المجاز في القرآن ."(٢)

وقد ناقش الغزالي اتهامات هذه الفرق والمذاهب بعضها للبعض الاخر ، وبين انها غلو لا مبرر له ، واظهر ان اشد الناس عداء لتأويل النصوص عن ظاهرها ، وهم الحنابلة اضطروا للتاويل ، اذ ان احمد بن حنبل أول الحديث المنسوب الى النبي : "الحجر الاسود يمين الله في الارض."(٣) وحديثاً آخر : "قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن ."(٤) وحديثاً ثالثاً: "اني لاجد نفس الرحمن من قبل اليمن ."(٥) وقد عزا الغزالي اكتفاء احمد بتأويل هذه الاحاديث الثلاثة دون غيرها الى انه ، أى ابن حنبل ، "لم يكن ممعنا في النظر العقلي . ولو امعن لظهر ذلك في الاختصاص بجهة فوق وغيره ."(٦)

وذهب الغزالي الى ابعد من ذلك بتحديده اصول الايمان بأنها ثلاثة : "الايمان بالله ، وبرسوله ، وباليوم الاخر . وما عداه فروع . واعلم انه لا تكفير في الفروع أصلا ، الا في مسألة واحدة ، وهي ان ينكر أصلا دينيا علم من الرسول بطريق التواتر."(٧) ثم يتناول الغزالي قضية الشيعة الامامية ويبين "ان الخطأ في أصل الامامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق به لا يوجب شيء منه تكفيرا ."(٨)

وهكذا نتبين ان ما استنفد اهتمامات المفكرين واستهلك جهودهم وطاقاتهم لم يكن له الاهمية التي اعطيت له ، ولم يكن يستحق ان تثار من اجله كل تلك

---

(١) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٣) الغزالي ، فيصل التفرقة ، ص ١٨٤ .

(٤) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٥) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ ، وانظر الصفحات ١٧٥ ـ ١٩٥ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

(٨) المصدر والصفحة ذاتهما .

الاحن ، وتهدر كل تلك الدماء ويحدث كل ذلك التمزق في الكيان الاجتماعي • وهذا الحكم ليس من وجهة نظرنا ، أهل القرن العشرين (او القرن الرابع عشر الهجرى) ، بل من وجهة نظر الغزالي اكبر رجال الدين في ذلك العصر •

الحركة العلمية :

من الطبيعي ان تسيطر العلوم الدينية على الحركة العلمية ما دامت النظرة الاساسية التي استندت اليها الحياة العقلية هي النظرة الدينية • بيد ان الاهتمام بعلوم اللغة والادب لم يكن قليلا ، اذ لاقى هذان الفرعان من فروع النشاط العقلي قدرا طيبا من العناية • وبجانب ذلك فقد حظيت كتابه التأريخ وسير الرجال باهتمام عدد كبير من المصنفين • كذلك فقد نالت فروع اخى من فروع المعرفة حظا من العناية ، رغم قلته ، ومن هذه الفروع : الطب والعلوم الرياضية والفلك ، الذى كان مرتبطا بالتنجيم ، وغير ذلك مما سيمر معنا بعد قليل •

انقسمت العلوم الدينية الى عدد كبير من الفروع ، كالتفسير ، والحديث ، والفقه ، والفرائض ، اى المواريث ، والاقراء ، اى اقراء القرآن وعلومه ، والمناظرة ، والاصول والفروع والخلاف • وقد تخصص في حقول هذه المواضيع عدد كبير من الناس ، كما وجد — في كثير من الاحيان — علماء شاركوا في عدد كبير من التخصصات ، مثل ابي الوفاء بن عقيل (ت ٥١٣ هـ) الذى كان فقيها مقرئا اصوليا متكلما واعظا ومتصوفا ،(١) ومثل عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازى الدمشقي (ت ٥٣٦ هـ) ، الذى كان فقيها واعظا مفسرا محدثا (٢) ، ومثل ابي علي بن البناء ، الذى كان مقرئا محدثا فقيها واعظا اصوليا فرائضيا مفتيا مدرسا وأديبا (٣) •

وقد جمع الكثيرون بين العلوم الدينية والعلوم او الفنون الادبية ، مثل الفقيه الاصولي النحوى الاديب الشاعر الحسن بن صافي البغدادى (ت ٥٦٨ هـ) ، (٤)

---

(١) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٧١ •

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٧ •

(٣) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ، ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ٧ ، ص ٢٦٥ ، القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ١ ، ص ٢٧٦ •

(٤) ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ١٦٦ — ١٧٠ ، القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ١ ، ص ٣٠٥ ، ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٣٧ ، الذهبي ، مجلد ١ ، ص ٢٨١ •

وعبد الله بن علي المقرئ (ت ٥٤١ هـ)، الذى كان يقرأ بالروايات وتخرج عليه جماعات كثيرة ، وكانت له معرفة بالنحو واللغة ، كما كان شاعرا وامام مسجد (١) ، وعلي بن عبيد الله بن الزاغوني (ت ٥٢٧ هـ) الذى كان فقيها وكانت له حلقة للمناظرة بجامع المنصور ببغداد ، كما كان محدثا واعظا نحويا مؤرخا فرائضيا حاسبا، وخلف مصنفات كثيرة ، منها اربعة في الفقه وواحد في الفرائض وآخر في الحساب وثلاثة في اصول الدين وأصول الفقه ومصنف في الوعظ وآخر في التاريخ وديوان خطب ، بالاضافة الى خمسة كتب في امور متنوعة (٢) . والواقع ان اكثر اهل العلم في العصر الذى ندرسه ، كان الواحد منهم يلم باكثر من ناحية من نواحي التخصص.

وقد جمع الكثيرون من الأدباء واللغويين بين الادب بفروعه وعلوم اخرى ، مثل محمد بن احمد الابيوردى ، الذى كان مقرئا ونسابة ومؤرخا ولغويا واديبا وشاعرا، كما عمل امينا لدار الكتب التابعة للمدرسة النظامية ببغداد . وقد ترك ثلاثة عشر مصنفا ، أحدها في التاريخ ، وبقيتها في الطبقات والانساب والادب وغير ذلك (٣) . ومثل ابي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي البغدادى ، الذى كان اديبا نحويا فلكيا محدثا ، وترك عددا من المصنفات (٤) . ومحمد بن محمد بن مواهب المعروف بابن الخراساني البغدادى النحوى الاديب الشاعر العروضي الكاتب المحدث . وقد ترك مصنفا في العروض، وتصانيف ادبية ، وديوان شعر قيل انه من خمسة عشر مجلدا (٥) .

وفي غير مجالات العلوم الدينية واللغوية والادبية لدينا عدد ممن جمعوا بين عدد كبير ومتنوع من الاختصاصات ، كأبي المجد محمد بن عبيد الله الباهلي ، الذى تولى أمر مارستان نور الدين محمود بدمشق ، وكان من المشهورين في الصناعة

---

(١) القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٢ ، ص ١٢٣ .

(٢) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢١٦ .

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٧ ، ص ٢٣٤ .

(٤) السمعاني ، مجلد ٣ ، ص ٣٧٠ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٤ .

(٥) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٩ ، ص ٤٦ ، القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٣ ، ص ٢١٣ .

الطبية وعلم الهندسة والنجوم والموسيقى ، وكان يلعب بالعود ويجيد الغناء والايقاع والزمر وسائر الآلات ، وقد عمل ارغنا وبالغ في اتقانه ، وكان الاطباء يجلسون بين يديه ويتداولون علومهم تحت اشرافه (١). وهبه الله بن الحسين بن احمد البغدادى ، الذى كان اديبا فاضلا شاعرا حكيما عارفا بالطب والرياضة والهيئة والنجوم والرصد والزيج ، متقنا عمل الآلات الفلكية ، وقد ترك مصنفات منها اثنان في الفلك والآلات الفلكيــة ، وثالث جمع فيه ديوان الشاعر ابن الحجاج ورتبه وبوبه ، كما ان له ديوان شعر مــن نظمه (٢). وامين الدولة هبة الله بن التلميذ ، أوحد زمانه في صناعة الطب ، كان ساعور (رئيس اطباء) البيمارستان العضدى ببغداد حتى وفاته سنة ٥٦٠هـ . وقد فوض الخليفة اليه رئاسة الاطباء ببغداد ، فكان عنده منهم خمسون تلميذا . وفضلا عــن الطب فقد كان اديبا شاعرا خطاطا موسيقيا عالما باللغات العربية والفارسية واليونانيـة والسريانية . وقد ترك عددا كبيرا من المصنفات، ستة عشر منها في الطب والادويـة ، ومصنف في الادب ، فضلا عن شعر كثير (٣). ولدينا طبيب جمع بين الطب والقضــاء ، فقد كان طبيبا في بيمارستان العسكر السلطاني ، المتنقل ، ثم اصبح اقضى القضاة في عصر الخليفة المقتفي (٤).

انتعاش الحركة العلمية :

شهدت المنطقة العربية في العهد السلجوقي نشاطا علميا واسعا ، ربما كـان يضاهي في مقداره ما سبقه في القرنين الرابع والثالث للهجرة . والواقع ان الذى وصل الى ايدينا من الانتاج العلمي لهذا العصر اوسع مما تبقى من انتاج اى من

---

(١) ابن ابي اصيبعة ، ص ٦٢٨ .

(٢) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٩ ، ص ٢٧٣ ، القفطي ، اخبار العلماء ، ص ٢٢٢ ، ابن ابي اصيبعة ، ص ٣٧٦ .

(٣) القفطي ، اخبار العلماء ، ص ٢٢٢ — ٢٢٤ ، ابن ابي اصيبعة ، ص ٣٤٩ — ٣٧١ .

(٤) القفطي ، اخبار العلماء ، ص ٢٦٤ .

ذينك القرنين السابقين[١]، ذلك ان الانتاج الفكري في المنطقة العربية في هذه الفترة تميز بضخامته[٢]. ولقد حاولت، في مطلع قيامي بهذه الدراسة، ان انظم جدولا احصائيا بعدد العلماء وانواع تخصصاتهم، وعدد الكتب وموضوعاتها، بيد انني ما لبثت ان اقتنعت، بعد ان انفقت كثيرا من الوقت والجهد، باستحالة الوصول الى نتيجة تمثل الواقع، ولو بشكل تقريبي، وذلك للاسباب التي شرحتها في مقدمة هذا البحث[٣]. ورغم ذلك، فان الارقام التي توصلت اليها كانت كبيرة، سواء بالنسبة لعدد العلماء، او عدد الكتب، أو عدد مجلدات الكتاب الواحد. وثمة مظهر آخر من مظاهر انتعاش الحركة العلمية هو انتشار المدارس العالية في طول ارجاء السلطنة السلجوقية وعرضها، حتى غدا في الامكان ان نسمي ذلك العصر عصر المدارس بحق. ولا جرم ان قيام المدارس على هذا النطاق الواسع هو اهم مفخرة للعصر السلجوقي[٤].

وهناك عدة عوامل ساعدت على رواج سوق العلم، ابرزها ذلك التشجيع والدعم الذى لقيته الحركة التعليمية. وقد سبق ان اشرنا الى الصراع بين الخلافتين العباسية السنية والفاطمية الشيعية، وألمعنا الى حركة الباطنية التي اتخذتها الدولة الفاطمية اداة في هذا الصراع. وربما كانت جهود السلطات السنية في بناء المدارس ونشر التعليم السني قائمة على هذه الدوافع، ووسيلة لمواجهة الدعاية الاسماعيلية الدؤوبة الذكية العنيفة.

وفي مجتمع ديني التفكير كان لحث الدين على طلب العلم ونشره تأثير كبير في تنشيط الحركة العلمية. ولا جرم ان اكثر الفقهاء قد اعتبروا ان ما حث عليه الدين هو العلوم الدينية، بيد اننا نجد الغزالي يوسع الدائرة فيجعل تعلم الطب والحساب ومثيلاتها فرضا دينيا، فهو يقول عندما يحدد من العلم ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية، يقول عن النوع الثاني انه "كل علم لا يستغني عنه في قوام

(١) جرجي زيدان، مجلد ٢، ص ٣٥٥.
(٢) Gibb, P. 83
(٣) انظر ص ١-٣ فيما سبق
(٤) سنتناول موضوع المدارس بعد قليل

امور الدنيا ، كالطب ، اذ هو ضرورى في حاجة بقاء الابدان ، وكالحساب ، فانه ضرورى في المعاملات ... وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج اهل البلد واذا قام بها واحد كفى ، وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات ، فان اصول الصناعات ايضا من فروض الكفايات ، كالفلاحة والسياسة والحياكة ، بل الحجامة والخياطة ...".(١) ومن أثر التوجيه الديني نجد ان بعض العلماء كانوا يعلمون العلم دون أجر ، مثل ابي البركات الانماطي ، المحدث العابد الحنبلي ، الذى كان " يقعد طول النهار لمن يطلب العلم ، وكان سهلا في اعارة الاجزاء لا يتوقف ، ولم يكن يأخذ أجرا على العلم ، ويعيب من يفعل ذلك ويقول : علم مجانا كما علّمت مجانا .".(٢)

ومن ظواهر تقدير بعض العلماء للعلم وللوقت قول ابي الوفاء ابن عقيل :" انى لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمرى ، حتى اذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرى ، وبصرى عن مطالعة اعملت فكرى في حال راحتي ، وأنا مستطرح ، فلا انهض الا وقد خطر لي ما اسطره . واني لأجد من حرص على العلم وأنا في عشر الثمانين اشد مما كنت اجده وأنا ابن عشرين سنة .".(٣) ومن اقواله في هذا المضمار:" أنا أقصر بغاية جهدى أوقات أكلي ، حتى اختار سف الكعك وتحسيه بالماء ، على الخبز ، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توفرا على مطالعة ، او تسطير فائدة ...".(٤)

ولعل مما يؤكد لنا تقدير المعاصرين للعلم وشغفهم به قول المحدث الفقيه محمد بن أحمد ابن ابي السقر :" هذه كتبي أحب الي من وزنها ذهبا ...".(٥) ومن هذا القبيل ماروى عن الاديب الشاعر الفارس الامير العربي اسامة بن منقذ انه حين نهب الصليبيون السفن التي استقدم فيها اهله ومتاعه من مصر الى الشام ، وهنأه نور الدين بوصول الاهل سالمين وعزاه عن المال ، قال : أما الكتب التي نهبت

---

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ١٥

(٢) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٤١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٩ .

فكانت "اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة • فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت•"(١)

ولكن اذا كانت الحركة العلمية قد اصابت هذا القدر من الانتعاش من حيث ضخامة انتاجها وسعتها، وبما لقيته من عون وتشجيع من جانب الحكام والافراد ، فان على الباحث ان يلاحظ تدني المستوى النوعي لانتاج هذه الفترة (٢).

وقد عزا الاستاذ Gibb هذا التدني الى الحكم السلجوقي ، بل انه جعل السنة التي بدأ فيها هذا الحكم في بغداد ، وهي سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥م ، جعلها حدا فاصلا ينتهي عنده ما سماه ب"العصر الذهبي" ويبتدىء ما سماه ب"العصر الفضي"•(٣) فهو يذهب الى ان الادب العربي اعتمد في ازدهاره على الرعاية التي كان يحظى بها من جانب الحكام ، لذلك فقد كان طبيعيا ان يتأثر بالتقلبات والمفاجآت التاريخية • وعليه فان تحديد سنة ١٠٥٥م (٤٤٧ هـ) كنقطة تحول في تاريخ الادب العربي لم يكن تحديدا اعتباطيا ، حسب رأى الاستاذ Gibb ففي ظل اولئك البدو غير المتحضرين انعدم الاستقرار وعمت الفوضى ، وتلك حالة لم تكن ملائمة للحفاظ على الادب او أى نوع من انواع الثقافة (٤). ويمضي الاستاذ Gibb مؤكدا فكرته بأن الامراء الفرس،اى البويهيين ، كانوا يألفون العربية ، وكانت لديهم ملكة التمييز التي تمكنهم من رعاية الادب • اما الاتراك فقد ندر ان كان لهم المام بالعربية(٥).

---

(١) اسامه ، ص٣٥ •

(٢) Gibb, PP. 83 - 84

(٣) اعتقد ان التطورات الحضارية اعقد من ان تحدد مراحلها بالسنين • وهذا القول ينطبق على الانتاج الادبي باعتباره مظهرا من مظاهر تحضر الانسان • ان المرحلة القديمة تبقى لها بعض آثار في المرحلة التالية لها ، كذلك فان المرحلة القادمة تظهر بعض عناصرها متخفية قبل ان تغرب المرحلة القائمة •

(٤) Gibb , P. 82

(٥) Ibid., PP. 82 - 83

ومع موافقة كاتب هذه السطور للاستاذ Gibb بان الرعاية عامل مهم في ازدهار الادب والثقافة الا اننا لا نعتقد انها العامل الوحيد او الحاسم • ولعل الاستقرار السياسي والاقتصادى ، والحرية الفكرية هي العوامل الاهم في هذا الميدان • واذا كان الادب العربي قد اعتمد في عصر ازدهاره على الرعاية ، الى حد كبير، فانني اعتقد انه لولا الاستقرار والازدهار النسبي في القرنين الاول والثاني لاختلفت النتائج • وقد سبق ان طرحت فكرة ان الاستقرار والازدهار في الناحيتين السياسية والاقتصادية يهيء الارض الصالحة لبذور الثقافة والادب ، بيد ان نمو الثقافة والادب وتطورهما ابطأ حركة من التطورات السياسية • لذلك فقد تتوفر فترة استقرار سياسي واقتصادى تلقى فيها بذور نهضة ثقافية تأخذ في النمو البطيء ، ثم تحدث تقلبات سياسية تزيل الاستقرار والازدهار، ولكن اغراس الثقافة تستمر في النمو حتى تنضج رغم الفوضى المحيطة بها، فاذا نضجت توقف نموها، ثم اخذت في الضمور والذبول والتجمد ، ولكي يستمر الازدهار الثقافي لا بد من زراعة اغراس ثقافية جديدة ، وهذه لا بد لها من تربة صالحة ، وهي قدر من الاستقرار السياسي والاقتصادى، فاذا انعدم ذلك انعدم امكان نمو دورة جديدة من اغراس الثقافة ، وبقيت الاشجار القديمة الهرمة تزداد ضمورا وذبولا وتجمدا، الى ان تذوى وتندثر (١) • وهذا، في رأينا، هو ما حدث بالنسبة للثقافة العربية ، فان الاستقرار السياسي والاقتصادى النسبي في القرنين الاول والثاني للهجرة مهد الارض للغرس فكانت اصول ثمار القرنين الثالث والرابع ترجع الى القرنين الاول والثاني • ولما بلغت دوحة الثقافة ذروة نموها بدأ خط حياتها بتخذ مسارا منحدرا، يزداد انخفاضه كلما تقدمت به السنون •

فاذا كان العصر البويهي ارفع مستوى، من الناحية الحضارية ، من العصر السلجوقي الذى تلاه ، فان علينا ان نلاحظ ان هذا التفوق لم يكن في كل جوانب المنجزات الحضارية ، بل كان في المنجزات العقلية والادبية والفنية • وعندنا ان هذه المنجزات الرائعة التي شهدها العصر البويهي هي ثمار تلك البذور والاغراس التي بدأ نموها في عصر الاستقرار في القرنين الاول والثاني للهجرة ، هذا مع عدم انكارنا انه كان للرعاية بعض الاثر• ولنضرب مثلا بحركة الترجمة والنقل والاقتباس التي بدأت في القرن الاول واحتاجت فترة طويلة حتى تهضم وتتمثل ، ثم تلد او تثمر ثمارا عربية الطابع في القرنين الثالث والرابع• وعندما انتهى العهد البويهي نضب معين هذه الثمار، ولم تكن فوضى القرنين الثالث والرابع قد هيأت الفرصة لاغراس وبذور جديدة

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٠ - ٢١ •

لتثمر في القرنين الخامس والسادس . لذلك تدنى مستوى انجازات العصر السلجوقي . ومن ناحية الادب واللغة والمنجزات العقلية خاصة يمكن ان يضاف سبب آخر وهو استمرار تدفق العناصر الاعجمية غير المتحضرة . وسنعود لشرح هذه النقطة بعد قليل .

اما في الجوانب المتعلقة بتماسك الامة وشعورها بوحدتها وتعاون افرادها وقطاعاتها في سبيل تحقيق الخير العام، وولاء الأفراد للجماعة ، وتوفر قدر من الحرية ، وانتظام الاجهزة الحكومية ، وتوفر الامن للرعية ، في كل هذه الجوانب ، نجد ان العصر البويهي لم يكن احسن حالا من العصر السلجوقي ح وهذه كلها جوانب حضارية هامة ، بل هي الاهم — في رأينا — وهي المعيار الاول ، لانها تتعلق بالنواحي الانسانية ، وبمدى مقدرة الانسان على كبح انانيته وتنظيم النوازع الحيوانية في داخله .

واذا كان قد قيل عن السلاجقة بحق انهم اشاعوا الاضطراب والتخريب والدمار ، فذلك لم يكن وقفا عليهم، والذى يراجع تاريخ عهد البويهيين وعهد السلاجقة لا يجد بينهما فرقا في هذه الناحية ، بل ربما كان العصر البويهي اكثر اغراقا في الفوضى والتخريب والتدمير . وقد اشرنا اشارة مقتضبة ، في موضع سابق من هذه الدراسة ، الى بعض ضروب الفوضى والتخريب التي حدثت في العهد البويهي (١)، وهي لا تقل سوءا عن اسوأ ما شهده العصر السلجوقي . ولسنا نستطيع التحدث هنا عن مزيد من امثلة هذه الفوضى ، فبامكان اى باحث ان يرجع الى تاريخ تلك الفترة ، خاصة كتاب تجارب الامم لمسكويه ، وتاريخ ابي شجاع وتاريخ ابن الاثير . (٢)

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٣ — ٢٥ .

(٢) انظر مسكويه ، جـ ٦ ، ص ٣٠٣ — ٣١٠ و ٣١٥ و ٣١٨ — ٣٢١ و ٣٢٣ — ٣٢٩ و ٣٣٥ — ٣٤٢ و ٣٦٧ — ٣٧٠ و ٣٨٠ — ٣٨٣ و ٣٨٧ ، ابو شجاع ، ص ١٣٢ — ٣ و ١٦١ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٦٢ — ٦٣ و ٧٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٨ ، ص ٦١٩ و ٦٢٨ و ٦٣٤ — ٦٣٧ و ٦٤٤ — ٦٤٦ و ص ٦٧١ — ٦٧٢ و ٦٩١ ومجلد ٩ ، ص ٤١ و ٤٨ — ٤٩ ، ٦٣ — ٦٤ مثلا .

واذا كان في العصر البويهي ملك مستنير نسبيا اعني عضد الدولة ، فان عهد عضد الدولة في العراق لم يزد عن خمس سنوات ، في حين زاد عهد الاستقرار والانتعاش في عهد السلطانين الب ارسلان وابنه ملكشاه ووزيرهما نظام الملك عن ثلاثين سنة . وفضلا عن ذلك فان دولتي الزنكيين في الموصل وبلاد الشام تمتعتا بادارة حازمة واستقرار داخلي وحكام مستنيرين ، وكان حظهما من ذلك اكثر من حظ دولة بني بويه .

أما عن الرعاية التي لقيتها الثقافة والادب في العصر السلجوقي فأقول ان المعلومات التي تمدنا بها المصادر تمكن الباحث من الحكم بأن مقدار الرعاية في العصر السلجوقي كان اكبر منه في العصر البويهي ، وهذه دعوى لا بد من تأييدها بطائفة من الامثلة الحية ، لا مجرد الاشارة العارية الى عدد من الصفحات في المصادر .

يذكر ابن عساكر ان السلاجقة والاتابكة والولاة في العصر السلجوقي كانوا يعتنون بالشعراء ويجزلون لهم العطاء(١). والواقع اننا نجد كثيرا من المعلومات التي تؤيدها هذا الحكم العام الذى اصدره ابن عساكر ، فمنذ عهد السلطان طغرلبك نجد الوزير عميد الملك الكندرى يجيز الشاعر الاديب الباخرزى بألف دينار بعد ان مدحه الشاعر بقصيدة (٢). وعندما قدم السلطان الب ارسلان (٤٥٥ هـ - ٤٦٥ هـ) الى حلب ، كان شاعر يرافق المعسكر السلطاني ، وقد مدح الوزير نظام الملك بقصيدة خارج باب قنسرين بمدينة حلب (٣). وعندما استولى سليمان بن قتلمش ، صاحب قونية ، على مدينة انطاكية ، اظهر السلطان ملكشاه النبأ ، باعتبار ان الفتح كان باسمه ، فهنأه الناس ومدحه الشعراء (٤).

ويذكر ابن الاثير ان الملك سيف الدين غازى بن زنكي ، صاحب الموصل ، أجاز الشاعر الحيص بيص بألف دينار اميرى ، عندما مدحه بقصيدة ، وقد أضاف الى الجائزة خلعا وثيابا ، فضلا عن تعهده الشاعر بالاكرام طوال مدة بقائه في بلاطه (٥).

---

(١) ابن عساكر ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

(٢) الباخرزى ، ص ١٤٠ - ١٤٦ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٨ ، ورقة ١٦٥ و

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩٣ - ٩٤ .

وكان الامراء العرب من بني مرداس ، أصحاب حلب ، وبني عقيل ، أصحاب الموصل ، يجزلون العطاء للشعراء ، ويتنافسون في هذا الميدان . فيذكر الكاتب الاصفهاني ان الشاعر ابن حيوس مدح مسلم بن قريش العقيلي بقصيدة ، وكان أمراء بني مرداس يعطون هذا الشاعر ألف دينار على القصيدة ، فقال مسلم : " همتي تسمو الى أن أزيد على عطاياهم ..." [(١)] وتحقيقا لذلك أقطع مدينة الموصل للشاعر الذى ما لبث ان توفي قبل ان يجبي ارتفاع المدينة . [(٢)] والظاهر ان اقطاعه الموصل كان بعد ان ملك الامير العقيلي حلب .

ولقد هزت انتصارات نور الدين محمود على الصليبيين الشعراء فمدحوه بعديد من القصائد ، وكان يجزل لهم العطاء . [(٣)] وكان الوزير جمال الدين الاصفهاني ، الملقب بالجواد ، وزير عماد الدين زنكي وأولاده من بعده ، كان من رعاة العلم والادب ، يجزل العطاء للشعراء ، " فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح ، وأتوا اليه من كل فج عميق ... وقصده العظماء ومدحه الشعراء . " [(٤)] وممن مدحه منهم الحيص بيص ، والكاتب الاصفهاني . [(٥)]

وكانت المجالس العلمية تعقد تحت رعاية بعض الوزراء ، وتجرى فيها المناقشات والمناظرات . فيخبرنا ياقوت ان القاسم بن علي الحريرى ، صاحب المقامات ، " دخل يوما ديوان السلطان ببغداد ، وهو منغص بذوى الفضل والبلاغة ... فقال له بعض

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ٥٦ ؛ ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٦٤ـ٦٥ .

(٢) المصدران والصفحات ذاتها .

(٣) الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ١ ، ص ١١١ـ١١٤ و ١٢٥ و ١٥٧ـ١٥٨ ؛ ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩٩ـ١٠١ و ١٠٣ و ١٠٩ ، أبو شامة ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ١٤٠ـ١٤١ و ١٤٤ ـ ١٤٧ و ١٥١ ـ ١٦٣ و ١٦٨ ـ ١٧٠ و ١٧٤ـ١٧٧ و ١٧٩ـ١٨٣ و ١٨٥ـ٢٠٠ و ٢٠٣ـ٢٢١ و ٢٢٨ـ٢٣٥ و ٢٣٧ ـ ٢٣٨ و ٢٥٤ـ٢٥٨ و ٢٧٢ـ٢٧٣ و ٢٧٦ ـ ٢٧٩ ، وهناك أمثلة أخرى .

(٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٢١٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

الكتاب : أى شيء تتعانى من صناعة الكتابة حتى نباحثك فيه ؟ فأخذ بيده قلما وقال : كل ما يتعلق بهذا ، وأشار الى القلم . فقيل له : هذه دعوى عظيمة ، فقال : امتحنوا تخبروا . فسأله كل واحد عما يعتقد في نفسه اتقانه ، فأجاب الجميع احسن جواب ... فانتهى خبره الى الوزير انو شروان بن خالد ، فأدخله عليه ، وما بكليته اليه ...(١)

وكان للوزير يحي بن هبيرة مجلس دورى للفقه والحديث والادب ، يجتمع فيه اهل العلم أياما معينة في الاسبوع ، ويتداولون العلوم ، يشاركهم في ذلك الوزير نفسه .(٢)

واذا اعتبرنا التعميم الذى اصدره الاستاذ Gibb بالنسبة لجهل السلاطين بالعربية منطبقا على السلاطين الاوائل فان ذلك الحكم لا ينطبق على من جاءوا بعدهم ، فيصف ابن خلكان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ هـ – ٥٢٥ هـ) بأنه كان قوى المعرفة بالعربية ، حافظا للأشعار والتواريخ والسير ، شديد الميل الى اهل العلم والخير(٣) . ونقرأ عن السلطان محمود انه كان يناظر العلماء ويروى الاحاديث ، فقد أورد ابن رجب ان الفقيه ابن فورك دخل على السلطان محمود فتناظرا . قال ابن فورك للسلطان :" لا يجوز ان تصف الله بالفوقية ، لأنه يلزمك ان تصفه بالتحتية ، لأنه من جاز ان يكون له فوق كان له تحت . فقال محمود : ليس أنا وصفته بالفوقية فتلزمني أن أصفه بالتحتية ، وانما هو وصف نفسه بذلك . قال : فبهت ."(٤) وقد نسب الى السلطان مسعود انه كان يروى الحديث ، وكان القاضي ابو بكر محمد بن عبد الباقي الانصارى يروى جزءا من الحديث عن السلطان بروايته عن شيوخه :" وكان الناس يشمعون

---

(١) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ٢٦٤ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ ، الذهبي ، مجلد ١ ، ص ١٢١ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٦٩ .

(٤) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٥ – ١٦ .

عن السلطان عن قاضي المارستان ..."[١] ويذكر ابن عساكر ان الملك نور الدين محمود سمع الحديث وأسمعه ، وكان مجازا في الحديث[٢]، وقد نسب ابن قاضي شهبة الى نور الدين انه صنف كتابا في الجهاد[٣].

وهكذا نرى ان الادب والعلم لقيا رعاية وتشجيعا على نطاق واسع خلال العهد السلجوقي ، وان بعض رعاة الادب والعلم من الحكام شاركوا في الانتاج بانفسهم. ولعلنا قدمنا الدليل على عدم صحة القول بأن سلاطين السلاجقة كانوا جهلة باللغة العربية.

لقد ذكرنا الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي كعامل من عوامل تدني المستوى النوعي للانتاج الادبي ، غير ان هناك سببا أهم — في رأينا — وأشد تأثيرا.

لقد شهدت الدولة العربية الاسلامية اختلاط العرب بشعوب اعجمية ، وهي تلك التي كانت تقطن البلاد المفتوحة ، كما شهدت سيلا متدفقا من العبيد المجلوبين والجنود المرتزقة والشعوب غير المتحضرة تنال متتابعة لتستقر مع العنصر العربي وتختلط به ثم لا تلبث ان تسيطر على مقدرات الدولة وتخضع العرب بسلطانها. وبذلك اصبح العرب أقلية وسط طوفان من البشر غير العرب. وزاد الطين بلة تفوق تلك العناصر غير المتحضرة من حيث مركزها السياسي والاجتماعي ، الأمر الذى أزال دافعا سابقا شجع الاعاجم على اتقان العربية ، وهو دافع تعلم لغة الحكام سواء كان ذلك من قبيل تشبه الادنى بالاعلى ، ام بغرض تحقيق منافع مادية. كذلك فان هذا الامتزاج الذى امتزجه العرب بغيرهم قد خفض مستوى صلتهم هم انفسهم بلغتهم وقدرتهم على اتقانها. وظلت هذه الافة في تزايد يتناسب مع تزايد اعداد الاعاجم غير المتحضرين.

فتدني المستوى النوعي للانتاج الادبي يعود الى عملية الاختلاط الواسعة هذه ، بالدرجة الاولى ، ثم الى الاضطراب الذى شهدته الاراضي العربية منذ عهد المتوكل ،

---

(١) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢٢٢.

(٢) نقله عنه ابن قاضي شهبة ، ٨١.

(٣) ابن قاضي شهبة ، ٨١.

لا الى نقص الرعاية وجهل السلاجقة بالعربية بصفة خاصة .

التعليم وانتشار المدارس :

كان المسجد ، منذ صدر الاسلام ، مركزا تعليميا بجانب كونه مركزا تعبديا . وقد ظل الامر كذلك حتى العهد السلجوقي ، وفي أثنائه وفيما بعده . ولكن هذا العصر شهد انتشارا واسعا للمدارس ، التي غدت أكثر أهمية من المساجد في حقل التعليم .

ويبدو لي ان من غير السهل تحديد أول زمن بنيت فيه المدارس ، وأول من بناها . وقد ذكر السبكي ان الذهبي نسب الى نظام الملك انه اول من بنى المدارس . ولكن السبكي نفي زعم الذهبي ، وقال ان المدرسة البيهقية بنيسابور كانت موجودة قبل عهد نظام الملك . وكان الامير نصر بن سبكتكين ، أخو السلطان محمود الغزنوى ، قد بنى المدرسة السعدية بنيسابور قبل العهد السلجوقي بزمن طويل . ويضيف السبكي ان أبا سعد اسماعيل بن على بن المثني الاستراباذى بني مدرسة ثالثة في المدينة نفسها ، وأن مدرسة رابعة بنيت في تلك المدينة للاستاذ أبي اسحاق الاسفرائيني ، المتوفى سنة ٤١٨هـ . بل لقد كانت المدارس معروفة بنيسابور قبل ان تبنى هذه المدارس الاربع التي عددنا .(١)

أما في العصر السلجوقي فقد أصبحت المدارس العالية تنتشر في معظم المدن العربية التي ضمتها سلطنة السلاجقة ، حتى لم تكد تخلو منها مدينة أو بلدة . والمهم في الامر ان انشاء المدارس غدا سياسة اتبعها الكثيرون من الحكام لاستخدامها — على ما يبدو للباحث الحالي — في تأييد الاتجاهات المذهبية والسياسية التي يعمل لها أرباب الحكم . وهذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، ان يكون هناك اناس بنوا المدارس بقصد نشر العلم والحصول على الذكر الحسن او المثوبة في الدار الاخرة .

وقد ذكر ابن جبير انه كان في بغداد وحدها نحو ثلاثين مدرسة ، " وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية . . . "(٢) أما الموصل فقد كان فيها نحو ست مدارس او أكثر ، تلوح " كأنها القصور المشرفة . "(٣) وكانت لنصيبين مدرستان(٤) ولرأس العين مدرسة(٥) ولحران مدرسة(٦) ولدنيصر مدرسة .(٧) أما حلب فقد

---

(١) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٤ ، وانظر ص ٢٥٦ كذلك .
(٢) ابن جبير ، ص ١٨٣ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ .

فقد بلغ عدد مدارسها التي وردت اسماؤها في المصادر تسع مدارس، وثلاث دور للحديث . ويخبرنا ابن جبير انه كانها ، حين زارها ، ست مدارس [١]. وكانت لحماة ثلاث مدارس [٢]. أما حمص فقد كانت فيها مدرسة واحدة [٣]، ولعل السبب في ذلك وقوعها على الحدود مع الصليبيين ، وتعرضها لغارات حصن الاكراد ، الذى كان بيد الغزاة [٤]. وكان في دمشق نحو عشرين مدرسة [٥].

ويذكر ابن الاثير ان نظام الملك بنى المدارس في اكثر البلدان "حتى جزيرة ابن عمر – التي هي زاوية من الارض لا يؤبه لها – بنى فيها مدرسة كبيرة ، وهي تعرف الان بمدرسة رضي الدين." [٦] ويؤكد السبكي هذه الرواية ويقول انه كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق مدرسة [٧]. وقد اتفق ابن الجوزى ، الحنبلي ، والسبكي ، الشافعي ، على ان العلم كان منتعشا ، وان سوقه كانت رائجة وان أهله كانوا محل التكريم في عهد الوزير نظام الملك ، الذى استغرق ثلاثين سنة [٨].

وقد نشر نور الدين محمود المدارس في بلاد الشام ، حيث بناها في دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة [٩].

وفي الموصل بنى الملك سيف الدين غازى بن زنكي المدرسة العتيقة ، وكانت

---

(١) ابن شداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ٩٦ و ٩٨ و ١٠٠ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١١٠ و ١١٣ و ١٢١ – ١٢٢ ، ابن جبير ، ص ٢٠٤ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٠٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

(٦) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩ .

(٧) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٣ – ٣١٤ .

(٨) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٨ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٩ .

(٩) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٢٥٦ ومجلد ٤ ، ص ٢٧٢ .

احسن المدارس واكبرها[١]. وبنى الوزير ابن هبيرة مدرسة بمحلة باب البصرة في بغداد[٢]، وقد حولت بنفشا الرومية ، وهي جارية للخليفة المستضيء، دارا كانت تملكها الى مدرسة وقفتها على الحنابلة[٣]. ووقفت عصمت خاتون بنت ملكشاه ، زوجة الخليفة المستظهر، مدرسة على اصحاب ابي حنيفة . وقد وصفها ابن الساعي بأنها "ليس في الدنيا مدرسة اكبر منها..."[٤] وعندما قدم ابو سعد محمد بن منصور، مستوفي المملكة الى بغداد سنة ٤٥٦ هـ بنى مدرسة لاصحاب ابي حنيفة[٥]. ونقرأ ان نائب صاحب اربل بنى مدرسة للفقيه الشافعي ابي العباس الخضر بن نصر الاربلي[٦].

وكان الاثرياء يشاركون في بناء المدارس وسنجتزىء من ذلك بأمثلة قليلة ، فقد بني القاضي ابو سعد المخرمي مدرسة بباب الازج ببغداد[٧]، وبنى الشيخ عبد الوهاب بن الحنبلي مدرسة للحنابلة بدمشق بباب الفراديس[٨]، وبنى تاج الملك ابو الغنائم مدرسته التاجية بباب ابرز ووقفها على اصحاب الشافعي[٩].

وكانت تخصص لهذه المدارس اوقاف كثيرة تغطي نفقاتها ونفقات الاساتذة والطلاب ، وكان يدفع للطلاب رواتب ايضا . وقع رجح السبكي ان نظام الملك هو "اول من قدر المعاليم للطلاب".[١٠]

---

(١) ابن الاثير ، الباهر، ص ٩٣ ، ابن خلكان مجلد ٣ ، ص ١٧٧ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٤ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٥٨١ .

(٣) ابن الساعي ، جهات الخلفاء ، ص ١١١ — ١١٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١٠٨ —١٠٩ .

(٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ السلجوق ، ص ٣٢.

(٦) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ١٠ .

(٧) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٠ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٦ .

(١٠) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٤ ، ٣١٩ ، وانظر امثلة اخرى : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٦ و ٢٦٢، ابن جبير ، ص ١٨٣ و ٢٢٠ و ٢٢٥، ابن الساعي ، جهات الخلفاء ، ص ١١١ — ١١٢ .

ولدينا العديد من الامثلة لمحسنين ساهموا في تشجيع الحركة العلمية بوقف الكتب على طلبة العلم ، بجانب ما كان يقفه الحكام والوزراء ، فالطبيب الاديب ابو علي يحي بن عيسى بن جزلة وقف كتبه قبيل وفاته (١) ، وكذلك فعل الفقيه ثابت بن منصور الكيلي (٢) ، وعلي بن طاهر بن جعفر السلمي النحوى ، الذى وقف خزانة كتب له في موضع حلقته بجامع دمشق (٣) . وقد ابتنى محمد بن هلال بن المحسن الصابي ، الكاتب المؤرخ (ت٤٨٠ هـ) دار كتب ببغداد ووقف فيها نحوا من اربعمائة مجلد (٤) وهناك امثلة اخرى كثيرة (٥) .

ويستطيع الباحث في تأريخ الحركة التعليمية ان يحدد عدة مستويات سارت فيها حركة التعليم والتعلّم ، فقد كان هناك تعليم اولي ، يقابل المدرسة الابتدائية في عصرنا ، وتعليم عال ، يقابل الجامعات . وفضلا عن ذلك فقد كان الكثيرون من طلاب العلم يجوبون مختلف الاماكن سعيا الى مشاهير العلماء واهل التخصص ليتلقوا العلم عنهم ، اى أنه كان بجانب المراكز التي يعلّم فيها الطلاب جهود فردية خاصة للتعلم عن طريق السعي للوصول الى العلماء .

كان الصبيان يتلقون التعليم الاولي في المكاتب ، علي يد المؤدبين ، او المعلمين (٦) . ونعرف من بين المواضيع التي كان يتعلمها الصبيان القرآن ، الذى كانوا يلقنونه تلقينا ، والحديث ، والخط (٧) . وكانوا يتدربون على الخط بكتابة ابيات من الشعر ، تنزيها للقرآن . وكان هناك مدرس خاص يلقن القرآن ، وآخر لتدريس الخط في وقت محدد . وقد لاحظ ابن جبير ان تخصيص مدرس وحصص خاصة

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٣١١ -

(٢) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٢٢ .

(٣) القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٢ - ٤٣ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ص ١١٦٣ - ١١٦٤ .

(٥) انظر ابن عساكر ، ج ١ ، ص ٤٠٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٣ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٥ .

(٦) الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ١٦٩ .

(٧) ابن جبير ، ص ٢٢٠ .

بالخط يعين على اتقانه (١). وكان هناك اشخاص يسمى الواحد منهم ب" الكافل " مهمتهم كفالة التلاميذ في طريق مجيئهم الى المكتب وعوذتهم منه عند انتهاء الدروس، حيث كانوا يرافقونهم في الذهاب والاياب (٢).

أما المدارس العالية فقد كان ينتدب للتدريس فيها مشاهير العلماء ، وكانت تولية المدرس أمرا أعتبر خطيرا ، فكان الحاكم ، سواء كان سلطانا أو وزيرا أو ملك اقليم ، هو الذى يختار المدرس ويعينه (٣). وفي بعض الاحيان كان التعيين يتم بموسوم (٤). ويبدو انه كان هناك ثمة نظام للتخرج ، اذ يذكر ابن خلكان ان أبا حامد الغزالي اختلف الى دروس امام الحرمين ، وجد في الاشتغال حتي تخرج في وقت قصير (٥).

وكانت المساجد مراكز يتلقى فيها الطلاب العلم عن المشايخ ، فقد كان ابو اسحاق الشيرازى يدرس في مسجد باب المراتب ببغداد ، قبل ان تبنى المدرسة النظامية (٦). وكانت في جامع دمشق حلقات يحضرها من لا يجيدون قراءة القرآن. وقد بلغ عدد الذين كانوا يتعلمون القرآن في ذلك الجامع عند مرور ابن جبير بدمشق سنة ٥٨٠ هـ اكثر من خمسمائة شخص. وبجانب هؤلاء كانت تعقد حلقات التدريس للطلبة في الجامع نفسه (٧).

وكان من المألوف جدا في ذلك العصران تجد رجالا من اهل العلم يطوفون البلدان والاقطار ، سعيا الى العلماء المشاهير . ولعل من ابرز الامثلة على ذلك نشاط تاج الاسلام ابي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني الشافعي ، الذى رحل في طلب العلم والحديث الى الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، كما يقول ابن

---

(١) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٢٥ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٣ و ٥٥ ، الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ١ ، ص ٣٠٨ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٣ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٥٣ ، وانظر امثلة اخرى : القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٢ ، ص ١٢٣ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٨٦ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٤٧ .

(٧) ابن جبير ، ص ٢٠ ، وانظر : ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٣ ، ص ٢٥ ، القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٣ .

خلكان ، وسافر الى ما وراء النهر وسائر بلاد خراسان عدة مرات ، ودخل قومس والرى واصبهان وهمدان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والشام والموصل وغيرها من البلاد التي يطول ذكرها ويتصدر حصرها . وقد قيل ان عدة شيوخه تزيد على اربعة آلاف (١).

ومن امثلة السفارين بحثا عن العلم والحديث احمد بن على بن ثابت البغدادى ، الذى يقال انه صنف قريبا من مائة مصنف ، ورحل الى البصرة ونيسابور واصبهان وسمع ببغداد والدينور والكوفة وهمدان والحجاز ، وسكن دمشق فترة من حياته (٢).

ومنهم ابو القاسم علي بن الحسن بن عساكر الذى رحل وطوف وجاب البلاد ، وكان رفيق السمعاني . وعاد من رحلته الى دمشق ، ثم ما لبث ان يمم شطر خراسان ودخل نيسابور وهراة واصبهان والجبال (٣). وهبة الله بن المبارك السقطي ، الذى سمع ببغداد وواسط والبصرة والكوفة والموصل وأصبهان والجبال وغيرها ، وبالغ في الطلب (٤). ومحمد بن موسى الحازمي ، الذى تفقه ببغداد وسمع بهمدان وارتحل الى عدة بلاد في العراق ، ثم سافر الى الشام والموصل وبلاد فارس واصبهان وهمدان وكثير من بلاد اذربيجان (٥). ومحمد بن طاهر المقدسي ، المعروف بابن القيسراني ، الذى كان احد الرحالين في طلب العلم والحديث ، وسمع بالحجاز والشام ومصر الثغور والجزيرة والعراق والجبال وفارس وخورستان وخراسان واستوطن همدان ، وكانت ولادته بالقدس ووفاته ببغداد (٦). وغيرهم كثيرون .

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ١ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، مجلد ٢ ، ص ٤٧١ .

(٤) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٤٠ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٤٢١ .

(٦) المصدر نفسه ، مجلد ٣ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

اما عن المواد التي كان يتعلمها طلاب التعليم العالي في المدارس فانني لم اعثر على تفصيل لها، بيد ان اشارات عرضية وردت بهذا الشأن تعرفنا بعض هذه المواد . فقد ذكر ان نظام الملك اشترط في كتاب وقف المدرسة النظامية ببغداد ان يكون المدرس بها ، والواعظ ، والذى يقرىء القرآن ، والذى يدرس النحو من اتباع المذهب الشافعي (١). فاذا كنا نفهم من شروط وقف النظامية انه كان يدرس بها النحو والقرآن ، وان طلابها كانوا يتلقون نوعا من التربية الاخلاقية على يد الواعظ ، فان المصادر لم تذكر لنا ما كان يلقيه المدرس. ويبدو لي ان المؤرخين لم يحفلوا بتفصيل ذلك لأنه كان من الامور المعروفة بداهة . وطبيعي ان يقوم المدرس بتدريس الفقه . والفقه متعدد الفروع ، والارجح ان فروع العلوم الفقهية كانت مما يتلقاه طلاب المدارس العالية .

ومن ناحية اخرى نجد تفصيلا للمواد التعليمية التي كان يتلقاها الطلاب عن شيوخهم . فكثيرا ما تشير المصادر ، في تراجم الاعيان ، الى شيوخ المترجم له وتعددهم وتعدد العلوم التي تلقاها منهم . فأبو الوفاء بن عقيل ، مثلا ، قرأ علم القراءات على ابي الفتح بن شيطا وآخرين ، وتلقى الادب والنحو عن ابي القاسم بن برهان ، والزهد عن ابي بكر الدينوري ، وعن الحرانية ، وعن بنت الجنيد ، وتلقى آداب التصوف عن ابي منصور العطار ، والحديث عن التوزى وجماعته غيره ، وتعلم الشعر والترسل من ابن شبل ، ودرس الفرائض على ابي الفضل الهمداني ، والوعظ على ابي طاهر بن العلاف ، والاصول على ابي الوليد بن البيان . وأخذ الفقه عن ابي يعلي الفراء ، والمناظرة عن ابي اسحاق الشيرازى (٢) كذلك فاننا نعرف ان الادب والشعر والنحو كان يدرس في المساجد ، جنبا الى جنب مع العلوم الدينية (٣).

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٦ ، وانظر القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٣ ، ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ - ٢١٣ ، وهناك امثلة اخرى كثيرة ، انظر ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ١٦٦ - ١٧٠ ، القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ١ ، ص ٣٠٥ ، الذهبي ، مجلد ١ ، ص ٢٨١ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٥ .

ولم تكن علوم الطب والفلسفة والفلك والكيمياء والرياضيات تلقى الاهتمام المناسب في ذلك العصر ، فأبو حامد الغزالي يشكو انصراف طلاب العلم عن العلوم الطبية مع لزومها وضرورتها ، واهتمامهم بفروع العلوم الدينية مع كثرة المتخصصين فيها ، ويقول ان اكثر الاطباء من اهل الذمة [١]. وكانت الفلسفة من فروع المعرفة الممقوتة في ذلك العصر . وقد ألف الغزالي كتابه تهافت الفلاسفة لتنبيه "من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن ان مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم ."[٢] وفي ترجمة ابن عساكر لتوفيق بن محمد بن زريق الاطرابلسي (ت ٥١٦ هـ بدمشق)، الذى كان اديبا شاعرا مهندسا منجما وحاسبا ، يصفه بأنه "كان يتهم بقلة الدين، والميل الى مذهب الاوائل ..."[٣] ويخبرنا ابن الجوزى ان أبا علي المعتزلي ، الذى كان يدرس علم الفلسفة والمنطق "اضطره اهل السنة الى ان لزم بيته خمسين سنة لا يتجاسر ان يظهر ..."[٤] ويذكر ابن الفوطي ان عبد الله بن محمد الميانجي الصوفي (ت ٥٢٥ هـ) خلط كلام الصوفية بكلام الحكماء ، وصلب .[٥]

وقد اعتنى كثيرون من الناس بتعلم الحساب وتعليمه ، وصنفوا في ذلك الكتب[٦]، غير انني لم اعثر على اية اشارة الى ان الحساب والهندسة والرياضيات عامة كانت تدرس في المؤسسات التعليمية العامة . ويغلب على ظني ان هذه الفروع الهامة من فروع العلم كانت تعتمد على الجهود الفردية . أما الطب فاننا نعرف ان كبار الاطباء الذين كانوا يشرفون على المستشفيات كان يشرفون على تعليم الاطباء فيها ، فمحمد بن عبيد الله الباهلي ، الطبيب المشهور ، كان مشرفا على البيمارستان الكبير بدمشق ، وكان الاطباء يجلسون بين يديه ، ويتداولون علومهم تحت اشرافه [٧].

---

(١) الغزالي ، الاحياء ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(٢) الامام الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة : دار المعارف ، د . ت .) ، ص ٨٠ .

(٣) ابن عساكر ، جـ ٣ ، ص ٣٦٠ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٠ .

(٥) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، ٢ ، ص ١١٣٠ - ١١٣٢ .

(٦) انظر ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٢ ، ص ٤٦ ، ومجلد ١٩ ، ص ١٠٦ ، ابن ابي اصيبعة ، ص ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٧) ابن ابي اصيبعة ، ص ٦٢٨ .

وامين الدولة هبة الله بن التلميذ كان رئيس البيمارستان العضدى حتى وفاته سنة ٥٦٠ هـ • وقد فوض اليه الخليفة رئاسة مهنة الطب ببغداد، وكان عنده خمسون طالب طب يتلقون التدريب على يديه • ونقرأ ان مريضا جاءه وطلابه الخمسون بين يديه، فسألهم امين الدولة عن فرض ذلك الرجل فلم يعرفوا، فوصف له دواء وصرفه [١].

ويبدو انه كان من اساليب التعليم في ذلك الزمان ان تطرح المواضيع ويتداولها الطلاب بالمناقشة تحت اشراف استاذهم، وعن ذلك يقول الفقيه ابو سعد عبد الرحمن المتولي انه حضر مجلس الاستاذ ابي الحارث السرخسي • وكانت ثياب عبد الرحمن خلقة، لا تشبه ثياب اهل العلم، فجلس في اخريات الطلاب • " فتكلموا في مسألة، فقلت واعترضت • فلما انتهيت من نوبتي أمرني ابو الحارث بالتقدم • ولما عادت نوبتي استدناني وقربني حتى جلست الى جنبه، وقام بي وألحقني باصحابه، فاستولى علي الفرح •" [٢]

وكان لكبار الاساتذة معيدون، يعيدون دروسهم للطلاب، مثال ذلك ان محمد بن هبة الله السلماسي تولى الاعادة بالمدرسة النظامية ببغداد [٣]، وكان الكيا الهراسي من رؤوس معيدى امام الحرمين في الدرس [٤]، وقد شغل ابو اسحق الشيرازى وظيفة الاعادة في مطلع حياته التعليمية [٥] •

ويلاحظ ان الاملاء كان من الاساليب الشائعة في التعليم في ذلك العصر، فيروى، مثلا، ان الشريف ابا السعادات هبة الله بن الشجرى (ت ٥١٢ هـ) أملى اكبر تآليفه في اربعة وثمانين مجلسا، وختمه بمجلس قصره على ابيات من شعر المتنبي، حيث ذكر ما قاله الشراح فيها وأضاف الى تلك الاقوال بعض آرائه [٦]• وقد نسب الى محمد بن عبد الله الخطيبي (ت ٥٧١ هـ) انه

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧١ وانظر الصفحات ٣٤٩ – ٣٧١، والقفطي، اخبار العلماء، ص ٢٢٢ – ٢٢٤ •

(٢) ابن خلكان، مجلد ٢، ص ٣١٥ •

(٣) ابن خلكان، مجلد ٣، ص ٣٧٢ •

(٤) المصدر نفسه، مجلد ٢، ص ٤٤٨، وانظر القفطي، انباه الرواة، مجلد ٢، ص ٢٤١–٢٤٢

(٥) السبكي، مجلد ٤، ص ٢١٥

(٦) ابن شاكر الكتبي، مجلد ٢، ص ٦١٠ •

انه أملى مجالس كتبها الناس عنه (١). ومن المرجح ان شخصا بعينه كان يكلف بكتابة ما يمليه الاستاذ ، وهذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، ان يدون من اراد من الحاضرين ما يريد تدوينه ، فقد ورد ضمن الاختصاصات التي نسبت الى الفقيه ابي علي البرداني البغدادى (ت ٤٩٨ هـ) انه كان مستملا (٢).

وكان الحفظ والاستظهار أهم الطرق المعتبرة في استيعاب العلم ، فكان طلاب الاجازات يحفظون ما في الكتب عن ظهر قلب ثم يقلونها على مصنفيها (٣)، وهذه طريقة لا تخلو من عقم وضعف .

أما عن طريقة اعطاء الاجازات والحصول عليها من المشايخ فالظاهر أنها لم تكن دائما تعطى بعد تثبت دقيق من مقدرة الطالب العلمية ، بل كانت تعطى في بعض الاحيان في لقاء عرضي ، أو حتى دون لقاء الطالب بالمدرس ، فقد روى القاضي ابو الفرج محمد بن عبد الله البصرى أنه اجتمع بالشيخ محمد بن احمد بن سهل ، المعروف بابن بشران (ت ٤٦٢ هـ) "وكان في صحبتي ... من الكتب التي تصلح ان تقرأ عليه الحماسة ، وشعر ابي الطيب ، وغريب الحديث ... فسألته وقلت : ايها الشيخ ، لا بد من قراءة أحد هذه الكتب عليك ثم استجازتك جميع ما ترويه من الكتب لا روية عنك . فوقع الاقتصار على الحماسة لأنها اصغر حجما من الآخرين . فبدأت بقراءته عليه يوم الجمعة رابع عشر من جمادى الاولى سنة ستين واربعمائة . وسألته عن استاده فيها فقال : قرأتها على ابي الحسين بن علي ... بن دينار عن ... عن ... عن ابي تمام." (٤) وذكر غيث بن علي ان ثابت بن احمد البغدادى ، المحدث ، "قدم علينا وذكر لنا ان له اجازات متعددة ،

---

(١) الذهبي ، مجلد ١ ، ص ٦٥ .

(٢) ابن ابي يعلى ، مجلد ٢ ، ص ٢٥٣ ، السمعاني ، مجلد ٢ ، ص ١٤٤ ،

(٣) انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٧ ، ص ١٦٠ ، ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ٢ ، ص ١٥٣ ، القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٣ ، ص ٤٤ — ٤٥ .

(٤) القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٣ ، ص ٤٤ — ٤٥ ، وانظر امثلة اخرى في : ابن عساكر ، جـ ٥ ، ص ٢٩١ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٥٦ .

وكتب لنا خطه بالاجازة بجميع مسموعاته في مستهل شهر ربيع الاول سنة سبع وسبعين واربعمائة ثم توجه الى الحج ..." (١) وأورد ابن عساكر ان الواعظ المحدث ذو الفقار بن محمد جاء دمشق سنة ٥٢٠ ، وكان يروى الحديث "فلم احفظ عنه شيئا . وخرج عن دمشق بعد حدوث فتنة جرت وسكن الموصل ، وسمع منه بها ، واستجيز لي منه ." (٢) ثم اسند الحافظ عنه حديثا (٣). وروى ابن جبير انه قابل رئيس علماء الشافعية باصبهان في الحج ، "شاهدناه في مجلسه فرأينا رجلا يذوب طلاقة وبشرا ، ويخف للزائر كرامة وبرا ... استجزناه فأجازنا نثرا ونظما ..." (٤)

أما الطلاب الذين كانوا يتلقون العلم في المدارس العالية فأرجح انهم كانوا يعطون اجازة تبين المستوى العلمي الذى بلغوه ، غير انني لم أعثر على أية اشارة الى مثل هذه الاجازات في كل ما قرأت .

---

(١) ابن عساكر ، ج ٣ ، ص ٣٦٢

(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥١ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) ابن جبير ، ص ١٦٠ .

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

الحيـاة الاجتماعيـــة

ان عناية الباحث، في هذا الفصل ، موجهة لدراسة المجتمع من حيث تركيبه ، ومن حيث مظاهر نشاط الناس ومكاناتهم الاجتماعية وطرائق كسبهم لمعايشهم ٠

والواقع ان هذا الموضوع غاية في التعقيد، لان الباحث لا يستطيع التحدث عن المجتمع دفعة واحدة ككل موحد، لانه — في واقع الامر — ليس كذلك ٠ وهو من ناحية اخرى لا يستطيع تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات يتكلم عن كل منها على حدة واضعا بينها خطوطا فاصلة مميزة ، لانها — في واقع الامر — ليست كذلك٠ فاذا كان بامكاننا ان ندرس طبقة الحكام كفئة واضحة المعالم، بارزة الحدود الى حد كبير، فان الامر بالنسبة لرجال الدين، مثلا، لا يبدو كذلك٠ ان بامكاننا ان نتحدث عن رجال الدين من حيث اختصاصهم ونمط تفكيرهم، بيد ان مراتبهم كانت مختلفة متفاوتة تفاوتا كبيرا، اذ لا يمكن مقارنة قاضي القضاة وكبار القضاة والفقهاء ومشايخ الطرق الصوفية الكبار بقاض في قرية ، او امام مسجد صغير في منطقة قليلة الاهمية ، او باحد صغار المتصوفة ممن كانت تمتلئ بهم الخوانق العديدة ٠ وما قلناه عن رجال الدين ينطبق على التجار وعلى المرأة وعلى اهل الذمة ، وحتى الرقيق ، اذ ان هناك الكثيرين من الارقاء الذين تولوا ارقى المناصب في الدولة ، كامارة الحج وشحنكية العراق ، وقيادة الجيوش ٠

وليس من السهل كذلك ، الحديث عن طبقة الخاصة وطبقة العامة ، لان ذلك لا يختلف عن بحث المجتمع دفعة واحدة ، اذ يلزم ان ندخل في طبقة الخاصة الحكام وكبار الفقهاء والعلماء ومشايخ الصوفية وكبار التجار والاطباء، وكبار الارقاء ونساء الخاصة ، الى غير ذلك٠ وهذا الخليط غير متجانس، يصعب بحثه مرة واحدة ٠ واذا اردنا ان نقسم كلا من طبقتي الخاصة والعامة الى فئات فمعنى ذلك ان نتحدث عن رجال الدين مرة عند بحثنا لفئات

الخاصة ومرة عند بحثنا لفئات العامة ، وكذلك الحال بالنسبة للتجار واهل الذمة والمرأة والبدو. وهذه الطريقة تبدو مملة وممجوجة لما تنطوى عليه من تكرار.

وسنحاول التغلب على هذه الصعوبة باتباع خطوتين : اولهما تقسيم مجمل للناس من حيث مكانتهم الاجتماعية ، وثانيهما بحث اكثر تفصيلا عن فئات الناس من حيث نشاطاتهم وانماط حياتهم الخاصة .

يمكن القول ان المجتمع انقسم في نظر المعاصرين الى فئتين: الخاصة والعامة . الا ان من البديهي ان هذا التقسيم لم يكن دقيقا، اذ ان هناك افرادا كثيرين يصعب تصنيفهم مع الطبقة العليا او الدنيا، وربما كانوا في مركز وسط ، او اقرب الى الطبقة العليا دون ان يعدوا منها، او اكثر قربا من طبقة العامة دون ان يدخلوا في عداد افرادها . وقد تخطر للمرء فكرة طبقة وسطى ، بيد ان هذه الفكرة الحديثة لا يمكن تطبيقها على ذلك المجتمع الذى ندرسه، اذ لا يمكن وضع حدود تقريبية لطبقة وسطى ، كما ان المعاصرين انفسهم لم يحسوا بمثل هذا الاحساس ولم يتصوروا هذا التصور.

وعلى ذلك فاننا سنأخذ بتقسيم الناس الى خاصة وعامة ، مع ما فيه من نقص وخلل .

كانت الطبقة الحاكمة ، التي تشمل الخلفاء والسلاطين والملوك وامراء النواحي والوزراء وكبار الموظفين وكبار القادة العسكريين تتربع على قمة المجتمع، وبجانبها او بعدها مباشرة كبار رجال الدين من فقهاء وقضاة وكبار محدثين ومشايخ صوفية . ورغم اننا لا نجد الا القليل عن كبار التجار، الا ان هناك اشارات في المصادر تخبرنا انهم كانوا على صلة وثيقة بالحكام(١) . ويبدو لي ان عدم بروز اهمية التجار يرجع الى تسلط العسكريين وتعرض

---

(١) ابن ابي يعلي ، ج ٢، ص ٢٤٦-٢٤٧، ابن الجوزى، المنتظم ، مجلد ٩، ص ٨٦ و ١٧٩ - ١٨٠، السبكي ، مجلد ٤، ص ٢٩٩-٣٠١، ابن رجب ، مجلد ١، ص ١٧٩-١٨٠ .

التجار للنهب والابتزاز في فترات الفوضى • كذلك فقد دخل رجال من اهل الذمة الوظائف الحكومية وبلغوا مناصب عالية مما سنتعرض له فيما بعد • اما الارقاء فكان منهم اناس من الفئة الحاكمة • وكان مشايخ البدو حكاما على قبائلهم، كما تملك بعضهم اقاليم رئيسية، وصاهروا سلاطين السلاجقة (١) •

اما طبقة العامة فيدخل فيها عامة اهل المدن من صغار الموظفين وصغار رجال الدين واهل الحرف، كالنجارين والحدادين والاساكفة وصغار التجار، وكذلك السقاؤون والحمالون والكناسون وافراد العشائر البدوية • ومن دخل في حكم هؤلاء جميعا، كما يدخل فيها الفلاحون الذين لا نجد عنهم اخبارا تعرفنا باحوالهم •

وسنحاول الآن دراسة كل قطاع من القطاعات الاجتماعية على اساس نشاطات المنتمين اليه، بغض النظر عما اذا كان يدخل في نطاق الخاصة أو العامة •

الطبقـــة الحاكمـــة :

لقد سبق لنا الحديث عن نشاط الفئات الحاكمة اثناء بحثنا لنظم الحكم والادارة • وليس ثمة داع لاعادة ما ذكرنا عن حياتهم السياسية • بيد ان حياة اولئك الناس لم تكن كلها حروبا ومؤامرات ونزاعات وادارة، بل تخللتها اوقات هدوء مارس فيها الحكام ما كان يمارسه غيرهم من الناس من ضروب اللهو وانتهاب اللذات •

وتحكي لنا المصادر ان بعض الخلفاء مارسوا لعبة الكرة والصولجان، اذ يروى الكاتب الاصفهاني ان الخليفة المقتدى واولاده لعبوا بالكرة عندما كانوا في زيارة لمدينة واسط، وقد شاهدهم بنفسه (٢) •

---

(١) تزوج مسلم بن قريش العقيلي، صاحب الموصل وحلب، اخت السلطان الب ارسلان، عمة ملكشاة •

(٢) الكاتب الاصفهاني، تواريخ السلجوق، ص ٢٩١ •

وقد اغرم بعض السلاطين والملوك بهذه اللعبة ، فكان السلطان ملكشاة يمارسها (١) ، وكان نور الدين محمود اذا الم به غم نزل الى الميدان وظل يلعب بالكرة طول نهاره ، فاذا جن الليل ، بدأ يلعب الشطرنج حتى ينام (٢) . وكان السلطان صلاح الدين يخرج الى ميدانين غربي دمشق حيث يلعب بالصوالجة ، وكان ابناوءه يخرجون الى هذين الميدانين للعب كل ليلة ، فضلا عن سباق الخيل والرماية (٣) .

وكان الصيد احدى الرياضات والهوايات التي احبها السلاطين والامراء ، ويبدو ان السلطان ملكشاة كان اشهر من مارس هذه الهواية ، اذ تذكر المصادر انه حسب ما صاده فكان اكثر من عشرة آلاف (٤) . وفي بعض الاحيان كان يسم مايصطاده من الحيوانات البرية بوسمه ثم يطلقه (٥) . وتذكر الروايات انه خرج مرة لوداع الحجيج ، فجاوز العذيب ، ثم انتنى الى الصيد ، وقد بلغ من كثرة ما اصطاده تلك المرة انه بنى منارة من حوافر حمر الوحش وقرون الظباء (٦) . ولدينا رواية عن خروج الخليفة المستنجد للصيد سنة ٥٦٠هـ (٧) . وفي سنة ٥٠١ هـ بعث السلطان محمد بن ملكشاة اربعين ظبيا من صيده هدية الى دار الخلافة ، وكانت كلها تحمل وسم السلطان ملكشاة ، الذى سبق له صيدها واطلاقها (٨)

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٥٦ .

(٢) الشيزرى ، المنهج المسلوك ، ص ٦٨-٦٩ .

(٣) ابن جبير ، ص ٢٣٥ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧١ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٥٥ .

(٦) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧١ .

(٧) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٣٢٠ .

(٨) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٥٥ .

ويبدو أن الامراء وعلية القوم كانوا يمارسون هذه الهواية . ومن الادوات التي كانت مستعملة في الصيد الفهود والكلاب والصقور. وكان الصيادون يصطادون الحيوانات البرية ، كالحمر الوحشية ، والغزلان ، والارانب ، كما كانوا يصطادون انواعا من الطيور (١) .

وكان الكثيرون من الحكام مولعين بالغناء ، فيروى ابن خلكان ان السلطان ملكشاة اعجب بغناء احدى المغنيات ، "فهم بها ، فقالت : يا سلطان العالم ، اني اغار على هذا الوجه الجميل ان يعذب بالنار ، فان الحلال ايسر ... فقال : صدقت ، واستدعى بالقاضي فتزوجها ..." (٢) وكان السلطان مسعود يهب مبالغ كبيرة من المال للمغنين في الليلة الواحدة (٣) ، وكان من عادة الامير نصر بن مرداس ، صاحب حلب ، ان ينزل الى دار بولص ، النصراني ، فيعقد مجلس الانس عنده (٤) .

وغنى احد المطربين بابيات من شعر ابن منير الطرابلسي ، الشاعر المشهور ، امام عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل ، اثناء حصاره لقلعة جعبر ، فاعجب عماد الدين بالشعر ، وبعث يستدعي الشاعر لموافاته (٥) .

وفي سنة ٥١٥هـ الم مرض بوزير السلطان محمود ، فعاد السلطان وزيره ، فاقام الوزير حفلة بلغت تكاليفها خمسين الف دينار ، وتخللها الاغاني والملاهي (٦) .

وكانت حياة اكثر رجال الحكم تتسم بالبذخ والاسراف المتناهي ، فعندما تزوج الخليفة

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ١ ، ص ٣٦٧ـ٣٩٠ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٣ .

(٣) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، مجلد ٨ ، ص ١٨٨ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٦٦ .

(٥) المصدر نفسه ، مجلد ١ ، ص ١٤٢ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٢٨ .

المستظهر اخت السلطان محمد بن ملكشاة وزفت اليه سنة ٥٠٤هـ زينت بغداد ، ووصل جهاز العروس على "مائة واثنين وستين جملا، وسبعة وعشرين بغلا، وجاءت النجائب والمهور والجوارى المزينات ...."(١) . وحين احترقت دار المملكة ببغداد سنة ٥١٥هـ كان فيها من الاثاث والجواهر "ما يزيد على قيمة الف الف دينار...."(٢) وفي السنة التالية خرجت زوجة وزير السلطان للنزهة في موكب من جواريها، وهي تركب بغلة تساوى ثلاثمائة دينار، "بمركب لا تعرف قيمته ، وبين يديها خمس عشرة جنبية بالمراكب الثقال المذهبة ، ومعها نحو مائة جارية ، مزينات بالجواهر والذهب ، وتحتهن الهماليج بمراكب الذهب والفضة ، وبين ايديهن الخدم والغلمان والنفاطون بالشموع والمشاعل ...."(٣)

ويذكر عن السلطان سنجر بن ملكشاة ان خزائنه ضمت من الاموال ما لم يسمع بمثله في سابق العصور، وانه كان معطاء مسرفا . وفي موجة من موجات سخائه بلغ ما وهبه في خمسة ايام متتابعة — كما تقول الرواية — سبعمائة الف دينار، هذا بالاضافة الى عدد من الخيل والخلع والاثاث(٤) .

وليس لدينا الكثير عن الحياة الخاصة للحكام، اذ ان الاضواء كلها مسلطة على دورهم السياسي . ولدينا وصف اورده السبكي لعمل الوزير نظام الملك اليومي ، فقد كان النظام يخرج مبكرا الى دار السلطان ، ثم يعود من الديوان وقت الضحى فيخلو بنفسه حتى الظهر . وبعد صلاة الظهر يتخذ مجلسه، ويجتمع عنده جلساؤه، ويقرأ بين يديه جزء من

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٢٤٠ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٢، ص١٤٨، ويمكن الاطلاع على امثلة اخرى بالرجوع الى ابن جبير، ص١٨٥، و ١٩٠ .

الحديث على شيخ من كبار المحدثين . وكان من عادة الوزير ان يكرم هذا الشيخ باجلاسه الى جانبه . ثم يتكلم الفقهاء ويتداولون المسائل الفقهية ، والنظام جالس خافض الرأس ، يسمع كل ما يجرى في مجلسه ، ويسأل اهل مجلسه عن حوائجهم " وينعم بالاموال الطائلة والهبات الجزيلة . ويقال : كان يتصدق في بكرة كل يوم بمائة دينار "(١) .

ويورد الشيزرى وصفا للصورة التي كان الناس يجلسون عليها في مجلس الملك ، ورغم ان الشيزرى لا يصف ملكا بعينه ، اى انه يضع صورة عامة مجردة ، الا اننا نعتقد انه استجمع هذه الصورة مما كان يعرفه عن حياة الملوك وقواعدهم . ولو اضفنا الى ذلك انه الف كتابه للسلطان صلاح الدين ، فالارجح ان هذه الصورة تنطوى على بعض الواقع ، على الاقل ، وان كنا نميل الى الظن انها لم تكن تطبق بحذافيرها دائما .

فهو يقول ان الآداب الملكية تقتضي ان يجلس اصحاب الملك واعوانه واولياؤه ثلاث مراتب : ففي المرتبة الاولى ، وهي الدنيا حسب ترتيبه ، يجلس الجند والغلمان . ويجلس في المرتبة الثانية القواد المتوسطون الذين يوليهم الامراء بعض الاعمال ، ويجلس معهم الطواشية وغيرهم . اما المرتبة الثالثة فهي مخصصة للامراء والاكابر الذين يخطب لهم على المنابر ويتولون الاعمال . وممن يجلس مع هذه الطبقة كبار الحجاب والقضاة والعلماء . وتعرف هذه المرتبة بـ دهليز الخاصة ، ومكانها قريب من الستارة . وعند جلوس الناس لا يسمح ان يختلط قوم بأخرين ولا ان يعلو احد على من هو فوقه مرتبة . ويتولى الحجاب مراقبة ذلك وتنفيذه ، فاذا اقدم احد على الجلوس في غير منزلته اقاموه . اما صاحب الحجاب فيجلس ملاصقا للوزير والي الباب الذى يصل منه الى الملك . ويمسك بالستارة المسبلة على الباب بوابون اشداء ، ولا يطلقونها لاحد ليطلع منها على صحن الدار ، حيث

---

(١) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٢ .

يجلس الملك[١] . وقد سبق ان اشرنا الى ما يقوم به الحاجب من ادخال الاعيان على الملك ، واحدا واحدا .[٢]

ومن الآداب التي يجب على الوزير ان يراعيها وهو ماثل بحضرة الملك ان يمسك بيده مذبة صغيرة يروح بها على على الملك. وفي هذه الاثناء ينبغي ان يكون صاحب الحجاب واقفا على بعد ، بحيث اذا نودى اجاب. وبعد ذلك يخرج الوزير ومعه الحاجب فيجلسان في دهليز الخاصة وينظران في اعمال الدولة المهمة وحوائج الناس[٣] .

وعندما يسير الموكب الملكي ، تتقدمه مجموعة من الحجاب ، كما سبق ان ذكرنا ، يخلون الطريق ، وتسير امام الملك وعلى جانبيه خيول مسومة عليها احسن العدد . اما الوزير فيسير خلف الملك بحيث اذا دعاه اجاب ، دون ان يحوج الملك الى الالتفات الى الوراء بعنقه. وعندما ينهي الملك كلامه يعود الوزير الى مكانه[٤] .

ويكون خلف الوزير رؤساء الخدم ومختلف طبقات العساكر ، وبغال تحمل الشراب واخرى تحمل الماء . وهناك خادم يحمل الجوائز في صرر ذات مبالغ متنوعة ، من خمسة دراهم الى مائة الف ، فاذا امر الملك بهبة عرف الكيس الذى يحتويها فصرفه. ويلزم ان يسير في الموكب الملكي العلماء والفقهاء والموذنون والفضلاء[٥] .

ومن الافضل الا " يكثر الملك من الركوب ، فان هيبته كالاسد في قلوب اهل البلد ... ولا يتحجب فان ذلك مضر بالملك ، بـــل يكون التحجب والظهور بقدر الحاجة بهم ، فان

---

(١) الشيزرى ، المنهج المسلوك ، ص ٦٩-٧٠ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٢٨ .

(٣) الشيزرى ، المنهج المسلوك ، ص ٧١ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧١-٧٢ .

السباع الكاسرة اذا لم تشاهد الراعي بلغت مرادها من الغنم"(١) .

رجال الديـــن :

شهد العصر السلجوقي انتعاش المذاهب السنية من الناحية السياسية ، اذ دالت دولة بني بوية الشيعة ، وانتزعت بلاد الشام من ايدى الفاطميين ، وانتهى الامر بازالـــة الخلافة الفاطمية ذاتها . وقد استغرقت هذه العملية كل الفترة التي ندرسها .

وفي هذه الاثناء كان الحكام يبذلون جهودا كبيرة للقضاء على نفوذ المذاهـب الشيعية ، فشهدت فارس والعراق والشام جهودا تكاد تكون متواصلة في هذا السبيل ، ولم يستثن السيف وعمليات الابادة من الوسائل التي تذرع بها اهل السنة (٢) وقد ساهم رجال الدين من السنة بنصيب وافر في هذا الميدان ، وكانوا يضغطون باستمرار ، كلمـا رأوا من السلطة بعض تراخ ، ويحرضون عامة السنة على الاشتباك مع مخاليفهم (٣) . ومن جراء ذلك نرى الاشتباكات بين السنة والشيعة في بغداد تكاد لا تنقطع ، وكانت السلطة تقف بجانب السنة في اغلب الاحوال (٤) . وكان الشيعة يجبرون على محو شعارهم المفضـل الذى كانوا يكتبونه على مساجدهم : محمد وعلى خير البشر ، ويجبرون على كتابة شعار السنة : خير الناس بعد محمد ابو بكر وعمر وعثمان ثم علي (٥) . وفي سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م ورد بغداد رأس مقدم الباطنية بقلعة اصفهان ورأس ولده ، وكان السلطان محمد بن ملكشاة قـد

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٩ و ٤٧-٤٨ ، الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ١٦٨ ، ابن قاضي شهبة ، ٧-٨ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٤٠ و ٢٧٧ ومجلد ٩ ، ص ٢٦-٢٧ و ص ٤٧-٤٨ مثلا .

(٤) المصدر نفسه ، والصفحات ذاتها .

(٥) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ١٧٢

وجه جهوده للقضاء عليهم بعض ان ظلوا في تلك القلعة اثني عشرة سنة يقلقون البلاد بغاراتهم (١) . ويحدثنا ابن جبير ان بلدة الباب في منطقة حلب كان اهلها يدينون بالمذاهب الاسماعيلي ، فتجمع اهل البلاد المجاورة واعملوا فيهم السيوف حتى افنوهم عن آخرهم (٢) . كذلك ذكر ابن جبير ان جماعات الفتوة ببلاد الشام كانت تقتل الروافض اينما وجدتهم (٣) .

ان ما صاحب هذه العمليات السنية من ظاهرة نشر المدارس لتعليم مذاهب السنة ، وانتشار ونشر الحركة الصوفية ببناء الرباطات والخوانق واغداق الاوقاف عليها يحمل الباحث على الظن بان هذه الحركة التعليمية والدينية كانت تهدف الى تعضيد الجهود التي مارسها الحكام لدخر التشيع . وربما ساعدنا هذا الغرض على فهم اهمية رجال الدين ، بشقيهم الثقافي والصوفي في المجتمع .

وفضلا عن مساهمتهم في محاربة التشيع فقد كان الفقهاء والعلماء هم العارفون بالدين والامناء على الشريعة في مجتمع يستند كيانه السياسي وحياته العقلية غلي الفكرة الدينية بدرجة كبيرة . يضاف الى ذلك ان الحكام كانوا ينتظرون من الفقهاء الدعم والتأييد الذى يطوع لهم الرعية . لهذا لا نجد غرابة في قيام تحالف بين رجال الحكم ورجال الدين ، بغض النظر عما اذا كان ذلك التحالف عن وعي اوعن عفوية ، وسواء تم بالتفاهم الصريح ام بادراك كل فريق ما يريده من آلاخر ادراكا قلبيا اوغريزيا صامتا .

ولدينا كثير من الشواهد على ان الحكام كانوا يحرصون على كسب رضا رجال الدين وتأييدهم ، فعندما تزهد الفقية على بن الحسن الصندلي وانقطع عن زيارة السلاطين قال له

---

(١) المصدر نفسه ، مجلد ٦ ، ص ١٥٠–١٥١ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٠٢ .

(٣) ابن جبير ، ص ٢٢٧ .

السلطان ملكشاة بن الب ارسلان في الجامع: لم لا تجيء الي ؟ ، فرد بقوله : "اردت ان تكون من خير الملوك حيث تزور العلماء ولا اكون من شر العلماء حيث ازور الملوك"(١) .

وكان الوزير نظام الملك يعظم الفقهاء، وكان مجلسه عامرا بالعلماء في اغلب الاوقات. حتى ان بعض خلصائه نصحوه بالحد من ذلك حتى لا يشغله الفقهاء عن اعمال الدولة ، فرد بقوله: " هذه الطائفة اركان الاسلام، وهم رجال الدنيا والآخرة ، ولو اجلست كلا منهم على رأسي لاستقللت لهم ذلك"(٢) . وقد اعطى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاة الى الفقيه احمد بن محمد الغزالي، الواعظ (ت ٥٢٠هـ) ، اخي ابي حامد الغزالي، الف دينار(٣) . وكان امراء عساكر نور الدين محمود يقفون بين يديه، ولا يجروءون على الجلوس الا اذا امرهم، ومع ذلك فقد كان اذا دخل عليه الفقيه يخف لاستقباله، ويمشي بين يديه، ويجلسه بجانبه(٤) . وكان نور الدين حريصا على التقرب من الفقهاء والوعاظ ، فقد ذكر ابن الجوزى ان نور الدين كاتبه مرارا(٥) ، كما كان يكاتب الفقهاء والعباد والزهاد في جهات كثيرة ، فعندما استقر رأيه على فتح حصن حارم ودعا الملوك المجاورين لدولته لموءازرته عزم فخر الدين قرا ارسلان على التخلف ، الا انه عاد فقرر الذهاب ، فلما سأله اصحابه عن سبب ذلك ، رد بان اهل بلاده سيخرجون عن طاعته ان تخلف ، لان نور الدين " كاتب زهادها وعبادها ... يستمد منهم الدعاء، ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على الغزاة ..."(٦)

---

(١) ابن ابي الوفاء، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ٦٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .

(٤) ابن قاضي شهبة ، ص ٢٧ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠، ص ٢٤٩ .

(٦) ابن الاثير، الباهر، ص ١٢٣، وانظر ابا شامة ، الروضتين، مجلد ١، قسم ٢، ص ٣٤٠ . ونحن نعتقد ان تقوى نورالدين محمود كان لها اثر كبير في دفعه للتقرب من الفقهاء ورجال الدين ، بجانب رغبته في الاستفادة من دعمهم وتأييدهم لسياسته .

ومما ساعد على ازدياد مكانة الفقهاء انهم الفئة التي كان يختار من بينها القضاة . ولم يكن اختصاص القضاة محصورا في نظر القضايا واصدار الاحكام، بل كانوا يتولون الاشراف على الاوقاف، والوصايا، والتركات(١) . ولكي ندرك اهمية هذا الجانب من عملهم علينا ان نتذكر ان الاوقاف كانت عظيمة المقدار في ذلك الزمان، اذ ان التعليم والمستشفيات وكثير من المنافع العامة كانت تعتمد في استمرارها على اوقاف تعين لها، كالبساتين، والطواحين وغيرها . وقد لاحظ ابن جبير ان الاوقاف تكاد تستغرق كل اراضي دمشق ونواحيها(٢) .

ونظرا لمكانة الفقهاء فقد كانوا ينتدبون للسفارة بين الملوك والحكام في اوقات السلم والحرب، وفي ظروف مختلفة . فقد وجه الخليفة القائم الفقيه والقاضي ابا الحسن الماوردى الى طغرلبك سنة ٤٣٥هـ، ليعنفه على ما سببه جنوده من تخريب بنواحي الرى(٣)، وفي سنة ٤٥١هـ انفذ السلطان طغرلبك الفقية الاشعرى احمد بن فورك برسالة الى اميـــر الموصل قريش بن بدران، وقد وصف طغرلبك رسوله بانه "الاستاذ العالم فخر العلماء بن فورك من اعيان العلماء بخدمة دولتنا، المتخصصين بشرف ايجابنا ودعوتنا"(٤) .
وعندها انهكت حروب الوراثة السلطان بركيا روق ارسل القاضي ابا المظفر الجرجاني، وابا الفرج احمد بن عبد الغفار الهمداني، ليتوسطا في اصلاحه مع اخيه السلطان محمد، وقد تم

---

(١) الامام ابو حامد محمد بن محمد الغزالي، احياء علوم الدين (القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده، د .ت .)، جـ١، ص ١٩، السمعاني، مجلد ٤، ص ١٥-١٦ .

(٢) ابن جبير، ص ١٨٣ و ٢٢٣، انظر ايضا ابن الساعي، جهات الخلفاء، ص ١١١-١١٢، والسبكي، مجلد ٤، ص ٣١٩ .

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٨، ص ١١٦ .

(٤) ابن الغوطي، مجلد ٤، قسم ٣، ص ٩٧ .

الصلح سنة ٤٩٧هـ(١) . وعندما استطال ينال بن انوشتكين، احد مقدمي جيوش السلطان محمد، على اهل بغداد راسله الخليفة المستظهر بقاضي القضاة الدامغاني، ليكف عن ظلمه(٢) . وراسل السلطان بركياروق بن ملكشاة ابراهيم بن مسعود الغزنوى بالفقيه ابي الحسن الطبرى، المعروف بالكيا(٣) . وفي سنة ٥١٣هـ راسل السلطان سنجر الخليفة المسترشد بالقاضي الهروى(٤) . وثمة اشارة تحمل على الاعتقاد بان السفارة كانت في بعض المناطق والاحوال وظيفة ومنصبا رسميا دائما، لا مهمة طارئة تجدد كلما جد طارئ، فقد ذكر ابن طولون ان السلطان صلاح الدين اراد ان يولي الفقيه عبد الله بن ابي عصرون قضاء دمشق، وكان القاضي بها ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزورى، الذى كان لا بد من عزله لتحقيق ما اراده السلطان، "فاعفي، وترك له وكالة بيت المال والسفارة الى الملوك. وولى السلطان ابن ابي عصرون ...(٥) .

وفضلا عن ذلك فقد كان الفقهاء يمثلون النخبة المثقفة في المجتمع، وكان تأثيرهم على العامة كبيرا، ونستطيع ان نتبين مدى تأثير الفقهاء على العامة من بعض ما توردة المصادر من امثلة، ففي سنة ٤٨٦هـ مر ببغداد واعظ فقيه من اهل مرو، عائد من الحج، فجلس للوعظ بالمدرسة النظامية، فتكاثر عليه الناس "حتى امتلأ صحن المدرسة واروقتها وبيوتها وغرفها وسطوحها، وعجز المكان، فكان يجلس في قراح ظفر، وفي كل مرة يتضاعف

---

(١) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ٣٧٠ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٤، وانظر ص ٣٥٧ .

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٠٩ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٩ .

(٥) ابن طولون، ص ٤٧ .

الجمع ... وكان النساء اكثر من ذلك، فكانوا على سبيل الحزر ثلاثين الفا ... وكانوا اذا تكلم ضجوا وهاموا، وترك الناس معايشهم، وحلق اكثر الصبيان شعورهم وأووا الى المساجد ... واريقت الانبذة والخمور، وكسرت آلات الملاهي"(١) . وذكر ابن الجوزى ان احد المجالس التي وعظ بها هو، اى ابن الجوزى نفسه، قدر الحضور فيه بمائة الف. "وتاب خلق كثير، وقطعت شعورا، ثم نزلت فمضيت الى زيارة قبر احمد، فتبعني من حزر بخمسة آلاف"(٢) . وقال ان الخليفة والوزير وصاحب المخزن وكبار العلماء كانوا يحضرون مجلسه، وان عدد الشباب الذين جز نواصيهم بلغ اكثر من عشرين الفا(٣) .

ويؤيد ما ذكره ابن الجوزى عن نفسه وصف ابن جبير الذى حضر بعض هذه المجالس في طريق عودته من الحج . فيقول ان الواعظ ابن الجوزى اطار قلوب مستمعيه "الى ان علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج ، واعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده، فيجزها، ويمسح على رأسه داعيا له. ومنهم من يغش عليه فيرفع في الاذرع اليه ..."(٤)

هذا، ولا يفوتنا ان ننوه بالجهد الكبير، والنشاط الواسع الذى قام به الفقهاء في حقل التعليم والكتابة والتأليف مما سنتعرض له في الفصل الخاص بالحياة العقلية(٥) وقد برز من بين الفقهاء رجال ادركوا قيمة الوقت وقيمة العلم، فحرصوا على الاستفادة من كل

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص٧٥–٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ١٠، ص٢٨٤ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) ابن جبير ، ص١٧٧ .

(٥) انظر ص ١٤٧–٨ فيما ~~سبق~~ سبق .

دقيقة من حياتهم .[١]

غير ان محتوى علمهم وحصيلتة نشاطهم — من ناحية اخرى — كانت ادنى بكثير من حجم هذا النشاط وزخمه ، الامر الذى لا يشجع الباحث على النظر اليهم باحترام كبير .

ورغم هذه المكانة التي تمتع بها الفقهاء والعلماء فان دورهم في توجيه الاحداث السياسية الكبرى في الدولة والمجتمع كان تافها ، ثم انهم من جهة ثانية قصروا — في اعتقادى — تقصيرا شنيعا عن رؤية مصادر الالام التي كان المجتمع يعاني منها أشد المعاناة ، ولم يكونوا أهلا لقيادة المجتمع ، رغم ان مركزهم كان مركز قادة ، فكانوا قادة خاملين بلداء متحجرين .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الفقهاء لم يكن لهم أى تنظيم يضمهم ، مثل التنظيمات الكنسية المعروفة في المسيحية ، ولكنهم انقسموا الى تكتلات مذهبية لا ترقى الى درجة التنظيم ، بل هي بعيدة عنه بعدا كبيرا . وكان التنافس والتنابذ والاحقاد بين هذه المذاهب شديدة ، وكان محور الاختلافات شكليات تافهة لا مساس لها بحياة الناس ، حتى ولا بأصول المعتقدات.[٢]

لقد عرف العصر السلجوقي علماء جديرين بالاحترام ، لترفعهم عن المطامع واحتقارهم للمغريات المادية[٣] ، بغض النظر عن تقصيرهم في ادراك مشاكل الامة ، بيد ان هذا النوع من العلماء كانوا أقلية ضئيلة . في حين ان أكثر العلماء كانوا منافقين متلونين ، يتهافتون على المناصب والمطامع . وفي ذلك يقول الامام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ان علماء

---

(١) انظر ص ١٥١ فيما سبق .

(٢) انظر ص ١٣٨ — ١٣٩ فيما سبق .

(٣) انظر مثلا : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٩٥ و ١١١ و ١٧٣ ؛ القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٢ ، ص ٢٧٩ — ٢٨٣ ؛ ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٤١ .

عصره قيدت الاطماع السنتهم فسكتوا . "وان تكلموا لم تساعد اقوالهم احوالهم، فلم ينجحوا . ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لافلحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه . . ." عليهم (١) . ويعترف الغزالي انه كان هو نفسه يعمل كما يعمل غيره من العلماء، في سبيل الحصول على المال والجاه والابهة ، وظل هذا الشعور يعذبه الى ان اقتنع ان الخلاص انما يكون في طريق التصوف (٢) . وقد وصف ابو الوفاء بن عقيل (ت ٥١٣هـ) كبير فقهاء الحنابلة في عصره، ظاهرة نفاق العلماء وتهافتهم على المال والمناصب ، وكيف انهم كانوا يتلونون بلون ارباب الحكم ، وكيف ان بعضهم كان يتقرب الى الوزير ابن جهير برفع الاخبار اليــه . وعندما ارتفع شأن نظام الملك في السلطنة ، وكان يميل الى الاشاعرة ، انقلب بعض الحنابلة المتشددين، الذين كانوا يناوئون ابن عقيل متهمين اياه بالتراخي في حنبليته، والميل الى الاشعرية ، لمجرد انه كان يعارض التشدد ، انقلب هؤلاء الى اشاعرة متحمسين، وصاروا يهاجمون ابن عقيل على اساس انه حنبلي متزمت . كل ذلك "طمعا في العز والجرايات" (٣) .

ويتفق الامام الغزالي مع ابن عقيل في اتهام علماء ذلك العصر بالتهافت على المناصب والاموال، والتقرب من الحكام من اجل ذلك (٤) .

وكان عدد الفقهاء كبير جدا ، لدرجة ان الغزالي تذمر من كثرتهم، وقال ان "البلد مشحون بالفقهاء . . ." (٥) في حين لم يكن هناك اقبال على علوم الطب والحساب

---

(١) الغزالي ، الاحياء ، جـ٢، ص ٣١٢ .

(٢) ابو حامد محمد بن محمد الغزالي ، المنقذ من الضلال مع ابحاث في التصوف ودراسات عن الامام الغزالي بقلم عبد الحليم محمود (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٨) ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ٩٣ .

(٤) الغزالي ، الاحياء ، جـ١ ، ص ١٩ .

(٥) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

لانها لا تجلب المنافع التي كانت تجلبها العلوم الفقهية (١) . ومن مظاهر كثرة عدد الفقهاء ان السلطان محمد بن ملكشاة خرج من دار السلطنة ببغداد يوما فرأى حول الدار نحو اربعمائة فقيه، "فامر بكسوتهم جميعا" (٢) .

والصنف الثاني من رجال الدين هم الصوفية . وقد سلك هؤلاء طريقا غير طريق الفقهاء، وعاشوا حياة مختلفة عن حياتهم . ذلك ان الكثيرين منهم اقاموا في الرباطات والخوانق التي انتشرت في المدن الكبيرة (٣) وفي الاماكن النائية على حد سواء (٤) . واتخذت بعض جماعاتهم مراكزها في منطقة البطائح ، في جنوب العراق (٥) ، وفي جبال الهكارية بمنطقة الموصل (٦) . كما اتخذ بعضهم من جبال لبنان مقرا للخلوة والتعبد (٧) . وبينما تركز الفقهاء في المدن، وعاشوا في عزلة نسبية عن سواد الناس، نظرا للفرق بين مستواهم الثقافي والعقلي ومستوى العامة ، نجد ان بعض دعاة المتصوفة اختلطوا بالناس واقتربوا من العامة وربطوا الكثيرين منهم بعجلتهم . ويبدو لي ان مما ساعدهم على هذا النجاح كون الدخول في سلك الصوفية لا يحتاج الى كبير علم او ثقافة كبيرة . واذا كان الفقهاء قد اسرفوا في الاهتمام بالشكليات والتنطع في المجادلات الجوفاء الجافة فقد خاطب دعاة الصوفية عواطف العامة ، ولجأ بعضهم الى اساليب الشعوذة التي تنطلي على السذج وترضي الجهلة .

---

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج١، ص١٩ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩، ص١٥٦ .

(٣) بلغ عدد الرباطات التي انشئت في بغداد في العصر السلجوقي ثمانية وعشرين رباطا .

(٤) انظر ابن جبير، ص١٩٨ و ٢١٩ و ٢٢٣ و ٢٣١ و ٢٣٣، مثلا .

(٥) عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار في طبقات الاخيار (القاهرة : ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) ج١ ، ص١٢٠ .

(٦) ابن خلكان ، مجلد ٤، ص٤١٧-٤١٨ .

(٧) ابن عساكر، ج٢ ، ص٢٩٩، ابن جبير، ص٢٣٣، ابن شداد، مجلد ٢، قسم ٢، ص٣٥ .

ويمكن ان يضاف الى الاسباب التي ساعدت على انتشار الحركة الصوفية ما كان يرصد للرباطات من اوقاف تدر الاموال التي توفر لنزلائها ونزيلاتها حياة وادعة ، بعيدة عن الجو العام الذى يموج بالاضطرابات والفوضى ، وتكفيهم مؤونة الكدح في سبيل العيش .

فالشيخ احمد الرفاعي (ت ٥٧٠هـ) ، مثلا ، اقام بمنطقة ام عبيدة بارض البطائح بالعراق وربى الكثيرين من المريدين "وتلمذ له خلائق لا يحصون". وتبعه اهل القرى المحيطة بام عبيدة (١) . والشيخ عدى بن مسافر الهكارى الذى نسبت اليه طائفة العدوية ، صحب الكثيرين من اعيان الصوفية ، ثم اعتزل في جبال الهكارية ، بمنطقة الموصل وبنى له بها زاوية ، فمال اليه اهل تلك المناطق لدرجة لم يسمع بها من قبل ، وتبعه اناس كثيرون ، وبالغوا في اعتقادهم فيه "حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون اليها ، وذخيرتهم في الاخرة التي يعولون عليها" (٢) .

وكان بعض الصوفية يختارون العزلة للتعبد والتأمل ، وربما عاد الواحد منهم بعد فترة وخالط العامة ودعاهم الى اتباع طريقته ، وربما اقام باحد الربط ، فالغزالي ، مثلا ، اعتزل الناس ، ثم بنى رباطا للصوفية . وقد ألف بعد ان اعتزل اروع كتبه ، الاحياء ، والمنقذ من الضلال (٣) . والشيخ ابو النجيب عبد القاهر السهروردى تلقى الفقة في المدرسة النظامية ببغداد ، ثم مال الى التصوف ، وانقطع عن الناس مدة طويلة ، "ثم

---

(١) السمعاني ، مجلد ١ ، ص٣٦٣ ، ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص٣٧٣ ، الشعراني ، ج ١ ، ص١٢٠-١٢١ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص٤١٧ .

(٣) الغزالي ، المنقذ ، ص١٣١ و ١٤٠-١٤٧ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص١٦٩ ، ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص٣٥٣ - ٣٥٤ .

رجع ودعا جماعة الى الله ... فرجع بسببه خلق كثير الى الله تعالى ، وبنى رباطا ....
ببغداد ، وسكنه جماعة من اصحابه ...»(١)

وكان الشيخ احمد بن محمد بن دوست يجمع اعدادا من المتصوفية ويدور بهم على قبائل العرب فينتقل من حلة الى حلة ، وكان ينزل — احيانا — عند صديقه الصوفي ابي بكر الطريثيثي الذى كانت له زاوية في البادية (٢) .

وكان الكثيرون من الاغنياء والحكام الاتقياء ، او الساعين الى الشهرة ، يبنون الرباطات للصوفية ويوقفون عليها الاوقاف التي تقوم بنفقة نزلائها (٣) . وكانت هناك رباطات للنساء اسوة برباطات الرجال (٤) .

وقد شارك بعض الصوفية في النشاط العلمي لعصرهم ، فهناك من جمع بين التصوف ورواية الحديث ، مثل احمد بن محمد الطريثيثي (ت ٤٨٧) الصوفي المحدث الذى سمع بمصر ودمشق وبيت المقدس (٥) ، واسماعيل بن احمد ، ابو البركات ، المعروف بشيخ الشيوخ (ت ٥٤١ هـ) (٦) ، والحسن بن الحسين الاندقي ، الذى كان شيخ وقته وكان ذا طريقة حسنة في تربية المريدين ، وقد سمع منه الحديث (٧) . كما كان من بين الصوفية فقهاء ،

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٣—٣٧٤ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١ و ١٤٦ او ١٥٩ او ١٨٤ او ٢٣٨ ، ابن جبير ، ٢٢٣ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ١ ، ص ١٥٨ .

(٤) ابن عساكر ، مجلد ٢ ، قسم ١ ، ص ١٥٨ ، وابن شداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ٩٥ ، ومجلد ٢ ، قسم ٢ ، ص ٢٦ .

(٥) ابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٧) السمعاني ، مجلد ١ ، ص ٣٣٦ .

ووعاظ ، ومفسرون ، ومتكلمون ومقرئون وشعراء وادباء ، مثل ابي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، الفقيه المفسر المحدث الاصولي المتضلع في الادب والشعر والكتابة وعلم التصوف ، صاحب المصنفات (١) ، وعلي بن عقيل ، ابو الوفاء ، المقرئ الفقيه الصوفي الواعظ الاصولي (٢) ، وسعد الله بن نصر الله الدجاجي ، الواعظ الشاعر الصوفي (٣) ، وعين القضاة ابو المعالي عبد الله بن محمد الميانجي ، الصوفي الفقيه الاديب الفيلسوف (٤) ، ومحمد بن نباء ، ابو البيان القرشي ، المعروف بابن الحوراني ، الذى كان اديبا لغويا شاعرا فقيها زاهدا متصوفا ، وكان شيخ الطريقة البيانية بدمشق (٥) . وقبل هؤلاء جميعا وفوقهم من حيث الاهمية ابو حامد الغزالي ، الملقب بحجة الاسلام ، الذى ساهم مساهمة جديرة بالتقدير ، في ميدان الحياة العلمية والتعليمية ، وخلف عددا كبيرا من المصنفات التي بذت ما نعرفه من مؤلفات علماء ذلك العصر (٦) . وغير هؤلاء كثيرون .

ويبدو ان الحركة الصوفية غشيها التفسخ قبل عهد السلاجقة وظل ملازما لها ، اذ يبدى عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥ هـ) ، صاحب الرسالة ، تألمه لما آلت اليه احوال الصوفية في عصره ، ذلك "ان المحققين من هذه الطائفة انقرض اكثرهم ، ولم يبق في زماننا ... الا اثرهم ... لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة ... وزال الورع واشتد الطمع ... وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين اوثق

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٥–٣٧٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢١٢–٢١٣ .

(٣) ابو عبد الله محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، بتحقيق محيى الدين عبد الحميد (القاهرة : مكتبة النهضة ، ١٩٥١) ، مجلد ١ ، ص ٣٤١ .

(٤) ابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١١٣٠–١١٣٢ .

(٥) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٩ ، ص ٢١٣ .

(٦) ان شهرة الغزالي تغني عن ذكره انظر ترجمته في : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٦٨–١٧٠ ، ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٥٣–٣٥٥ .

ذريعة ... واستخفوا باداء العبادات ... وركنوا الى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المخطورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان ، واصحاب السلطان ... وادعوا انهم تحرروا عن رق الاغلال وتحققوا بحقائق الوصال ... وليس لله عليهم فيما يؤثرونه او يذرونه عتب ولا لوم، وانهم كوشفوا باسرار الاحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية [(١)] ، وزالت عنهم احكام البشرية [(٢)] . وقد حاول القشيرى في رسالته اصلاح هذه الحال ورأب الصدع الذى قام بين فئات من المتصوفة من ناحية واهل السنة من ناحية اخرى [(٣)] .

وقد اشار ابو حامد الغزالي الى ما يدعيه "بعض من يدعي التصوف انه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى اسقطت عنه الصلاة واحلت له شرب الخمر والمعاصي واكل مال السلطان ..." [(٤)] وهذا الصنف ، في رأى الغزالي ، "ممن لا شك في وجوب قتله ... وقتل مثل هذا افضل من قتل مائة كافر، اذ ضرره في الدين اعظم ، وينفتح به باب من الاباحة لا ينسد" [(٥)] . وقام الغزالي بمحاولة ، كسابقة القشيرى ، للتوفيق بين التصوف والتسنن [(٦)] .

ويبدو لي ان اتساع حركة التصوف ، وتغلغلها في صفوف العامة ، في الحضر والريف والبادية ، كان من اهم العوامل التي حولت كثرة الناس الى مذاهب اهل السنة ، تلك العملية

---

(١) اى جذبت قلوبهم وارواحهم للحق جذبا سريعا . (وهذه الحاشية لمحقق كتاب الرسالة القشيرية) .

(٢) ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى، الرسالة القشيرية ، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م) ، مجلد ١، ص ٢٠–٢١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٥٥، مثلا .

(٤) الغزالي ، فيصل التفرقة ، ص١٩٧ .

(٥) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٦) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص١٢٦–١٣٩ و ١٤٨ ، والاحياء ، جـ١ ، ص١٥–٢٦ .

التي احتاجت سنين طويلة ، والتي بلغت غايتها بعد عصر السلاجقة بزمن طويل ، كما ذكرنا .

المرأة :

حددت الشريعة الاسلامية للمرأة وضعا يختلف عن وضع الرجل من بعض الوجوه ، فالبقاء في البيت اولى من الخروج (١) ، والمرأة لا يحق لها ان تسافر الا ومعها زوجها او احد محارمها كما ان من المحظور عليها ان تختلي باجنبي (٢) . هذا فضلا عن قضية الميراث وقضية الشهادة . وقد تأثرت حياة المرأة بهذه التعليمات الشرعية تأثرا كبيرا رغم ان هذه التعليمات لم تلق التزاما بها بصفة كاملة دائما .

ومن هنا ينبغي ان لا يتوقع الباحث ان يجد معلومات عن حياة المرأة العربية تساوى او تقارب المعلومات المتوفرة عن نشاط الرجال .

ومع ذلك فاننا نجد امثلة _ وان كانت قليلة _ لنساء ساهمن في الحياة العامة ، السياسية والعلمية ، فقد سبق ان ذكرنا نشاط ارملة السلطان ملكشاة وجهودها الرامية الى حفظ العرش لابنها السلطان محمود بن ملكشاة (٣) . ولدينا عدد من الامثلة لنساء ساهمن في الحركة العلمية ، كفاطمة بنت علي المؤدب المعروفة ببنت الاقرع المحدثة ، كاتبة الخط الحسن . وقد اهلها حسن خطها لان تكتب كتاب الهدنة الذى صدر عن دار الخلافة الى ملك الروم . وقد سافرت الى بلاد الجبل وكتبت ورقة لعميد الملك الكندرى ، وزير السلطان طغرلبك ، فاعطاها الف دينار (٤) . وقد بلغ من مكانة المرأة ان كبار

---

(١) سورة الاحزاب ، اية رقم ٣٣ .

(٢) ابن ابي الوفاء ، ج ٢، ص٢٧٦ .

(٣) انظر ما سبق ، ص ٥١ _ ٥٢ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ٤٠ .

العلماء في ذلك العصر لم يجدوا اى حرج في تعداد استاذاتهم من النساء، فقد ذكر الفقيه الحنبلي ابو الوفاء بن عقيل ان ممن تلقى العلم عنهم امرأة تدعى الحرانية ، واخرى تعرف ببنت الجنيد (١) . ويطلق ابن الجوزى على المحدثة شهدة بنت الابرى لقب شيختنا، وينقل عنها الكثير من الروايات (٢) ، خاصة في كتاب ذم الهوى (٣) . وكانت فاطمة بنت محمد بن احمد السجرقندى، الفقيه الحنفي الكبير، زوجة الامام علاء الدين الكاساني، فقيهة عالمة ، وعندما كانت الفتوى تخرج من بين ابيها، قبل زواجها، كان يظهر عليها توقيعها بجانب توقيع والدها . وعندما تزوجت كان توقيعها يظهر على الفتاوى بجانب توقيع والدها وتوقيع زوجها . وقد سكن زوجها الشام في عهد نور الدين محمود لعرف لها نور الدين مكانتها . وينسب اليها انها اول من سنت لفقهاء حلب سنة الافطار في المدرسة الحلاوية ايام رمضان، اذ تبرعت باسورتين للانفاق منهما على هذا الفرض، ثم جرت العادة به بعد ذلك (٤) هذه امثلة ، وهناك كثير غيرها لا يتسع المجال لذكرها . وفضلا عن ذلك كانت هناك رباطات للصوفيات من النساء (٥) .

اما نساء العامة فقد كانت الكثيرات منهن ياسعدن ازواجهن في العمل ، فلدينا بعض الاخبار عن عمل بعضهن غسالات او خبازات في بيوت الاثرياء (٦) .

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٧، ١٥١، ١٧٢ .

(٣) ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى، ذم الهوى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ومراجعة محمد الغزالي (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م) ، الصفحات ٤١٧ و ٥٣٦و ٥٣٨ و ٥٤٥ — ٥٤٨ و ٥٥٣و ٥٥٧و ٥٦١و ٥٦٣و ٥٦٤و ٥٧٤و ٦٢٥و ٦٥٤ ، مثلا .

(٤) ابن ابي الوفاء ، ج٢، ص ٢٧٨—٢٧٩ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠، ص ٧—٨، وابن شداد ، مجلد ١، قسم ١، ص ٩٥، ومجلد ٢، قسم ٢، ص ٢٦ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٦٩ .

ولم يكن المجتمع يلتزم الحدود التي ارادها الفقهاء، لذلك نجد المحتسب يمنع عبور النساء مع الرجال في الزوارق (١)، مما يدل على ان العبور المختلط كان يؤدى الى ما يخالف الشريعة، ومثل ذلك ما نقرأه تحذير الفقهاء مما يتبع اللقاءات العارضة التي كانت تحدث بين الجنسين، سواء على شطوط الانهار اوقات النزهة، او على ابواب الحمامات المخصصة للنساء (٢)، او الاسواق . ويبدو ان محاولات كانت تبذل من كل من الجنسين للاتصال بالجنس الآخر خارج حدود الشريعة، اذ نرى الشيزرى يحذر المؤدب، اى معلم الصبيان، من ارسال صبي مع امرأة ليكتب لها خطابا، خوفا من ان يستغل الصبي بعض الرجال للاتصال بتلك المرأة (٣) . كما يحذر الشيزرى من تعليم الكتابة للنساء "لان ذلك مما يزيد المرأة شرا، وقيل ان مثل المرأة التي تتعلم الخط مثل الحية التي تسقى سما ..."(٤) ورغم ان الشيزرى ربما كان يمثل آراء عدد من الناس، الا ان الآراء الغالبة لم تكن بهذا التشدد المسرف بدليل ما سقناه من امثلة عن النشاطات العلمية لبعض النساء وما كن يلقينه من احترام، حتى من كبار الفقهاء، امثال ابن الجوزى، الذى تتلمذ على امرأة، ولقبها ب شيختنا، رغم قوله ان النساء من طباعهن الغدر وانه لا وفاء لهن (٥) .

اهل الذمـــة :

عاشت في العصر السلجوقي جماعات من المسيحيين واليهود بين المسلمين في بلاد العراق والجزيرة والشام . وليس لدينا اى احصاء لعدد المسيحيين في هذه البلاد، الا ان

---

(١) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٥٩، ومجلد ١٠، ص ١١٧ .

(٢) الشيزرى، نهاية الرتبة، ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٤ .

(٤) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٥) ابن الجوزى، ذم الهوى، ص ٦٤٦–٦٤٧ .

آدم متز قدر انه كان في بغداد خلال القرن الرابع الهجرى ما بين اربعين الى خمسين الف مسيحي . وقد بنى تقديره على ارقام الاموال المجموعة جزية في القرن الثالث واوائل القرن الرابع الهجريين (١) . كما ذكر ان الرحالة اليهودى بنيامين التوديلي Benjamin of Tudela قدر عدد اليهود في المملكة الاسلامية، باستثناء المغرب، بحوالي ثلاثمائة الف يهودى، وذلك في اواخر العهد السلجوقي . في حين ان كاهنا يهوديا آخر سافر الى المشرق حوالي ١١٨٥م قدر عدد اليهود في العراق وحده بستمائة الف . ومما ذكره بنيامين ان عدد اليهود في دمشق بلغ ثلاثة آلاف، في حين ان بتاحيا Petachia قدرهم بعشرة آلاف . اما حلب فقد كان فيها خمسة الاف يهودى . وكانت لليهود تجمعات في منطقة الموصل، باعداد كبيرة ، حيث عاشوا في جميع المدن الواقعة "بين نينوى ودجلة" . وكان في جزيرة ابن عمر اربعة آلاف ، وفي الموصل ما بين ستة وسبعة آلاف ، وفي حربة ، بشمال العراق ، خمسة عشر الفا، وعكبرا وواسط عشرة آلاف وفي بغداد الف ، وفي الحلة عشرة آلاف وفي الكوفة سبعة آلاف وفي البصرة الفان (٢) .

وقد ذكر ابن جبير بضع قرى مر بها كان جميع اهلها نصارى ، مثل قرية تل العقاب قرب مدينة رأس العين شمال الشام وهي "للنصارى المعاهدين الذميين (٣) ، وقرية الجسر ،

---

(١) آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادى ابو ريدة (القاهرة : المعهد الخليفي للابحاث المغربية ، ١٩٤٠م) مجلد ١، ص٦٣-٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٦١-٦٢ .

(٣) ابن جبير ، ص١٩٥ .

بازاء سابقتها (١) وبلدة القارة ، جنوبي حمص (٢) ، كما ذكر النصارى المعاهدين المجاورين لجبل لبنان (٣) .

وكان الجاتليق ، وهو الرئيس الروحي لطائفة النساطرة ، يعتمد من قبل دار الخلافة رئيسا لجميع الطوائف المسيحية في اراضي الخلافة ، وكان يتولى منصبه بعهد يصدره الخليفة . ولعل من حسن الحظ ان نظفر بصورة عهد صدر عن الخليفة بتولية الجاتليق سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م، اي في عهد الخليفة المقتفي لامر الله ، وهذا نصه كما نشره آمدروز :

" ولما انهيت حالك الى امير المؤمنين، وانك امثل اهل ملتك طريقة ، واقربهم الى الصلاح مذهبا ... وحضر جماعة من النصارى الذين يرجع اليهم في استعلام سيرة امثالك ... فاتفقوا باجماع من ارائهم واهوائهم على اختيارك لرياستهم ومراعاة شئونهم وتدبير وقوفهم والتسوية في عدل الوساطة بينهم، قويهم وضعيفهم، وسألوا ايضا نصبك عليهم بالاذن الذى به تثبت قواعده ... وبرز الاذن الامامي الاشرف ، لازالت اوامره معضودة بالتوفيق بترتيبك جاتليقا لنسطورى النصارى بمدينة السلام ومن تضمنته ديار الاسلام ، وزعيما لهم ومن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد وكل حاضر في هذه الطوائف وباد ، وانفرادك عن كافة اهل ملتك بتقمص اهبة الجتلقة المتعارفة في اماكن صلواتكم ومجامع عباداتكم، غير مشارك في هذا الانسان ، ولا مفسح في التحلي به لمطران او اسقف او شماس، حطا لهم /عن/ رتبتك ووقوفا بهم دون محلك ، وان ولج احد في باب المجادلة ... وابى النزول على حكمك ... كانت العقوبة به حائقة حتى تعتدل قناته ...

---

(١) ابن جبير، ص١٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٢٣٤ .

وامر بحملك على مقتضى الامثلة الامامية في حق من تقدمك من الجتالقة ... والحياطة لك ولا هل ملتك في الانفس والاموال والحراسة للكافة بصلاح الاحوال واتباع العادة المستمرة في موارارة امواتكم وحماية بيعكم ودياراتكم ... وان يقتصر في استيفاء الجزية على تناولها من العقلاء والواجدين من رجالكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم من اطفالكم ، ويكون استيفاؤها نوبة واحدة في كل سنة من غير عدول في قبضها عن قبضة الشرع المستحسنـــة ...."(١)

ومن هذا النص يتبين لنا ان المسيحيين كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي في ادارة شئونهم تحت رئاسة زعمائهم الروحيين ، وانهم كانوا يدفعون الجزية مرة فــي السنة عن كل واحد من الرجال البالغين ، بغض النظر عما كانوا يتعرضون له في فترات الاضطراب ، اذ ان الاذى في تلك الظروف يلحق بجميع المدنيين مسلمين كانوا او مسيحيين اوغيرهم .

واعتقد ان هذا الوضع ينطبق على الجماعات اليهودية كذلك ، فقد كان لهم رئيس روحي معتمد لدى دار الخلافة يلقب بـ رأس الجالوت وكان يستدعى مع جاتليق النصارى كلما طرأ طارىء يتعلق باهل الذمة (٢) . ولدينا ادلة على ان بعض اهل الذمة شغلوا مناصب عالية في الدولة ، واشهر من شغلوا المناصب العالية في دار الخلافة

---

(١) وردت صورة هذا العهد في تذكرة ابن حمدون التي نشرها آمدروز فــــي
Journal of the Royal Asiatic Society, (1908), 467.
ولم اعثر على هذا المجلد من مجلة الجمعية الاسيوية الملكية ، وقد اخبرني موظفو المكتبة انه ناقص ، ولم يرد الى المكتبة اصلا . وقد نقلت هذه الصورة عن آدم متز ، مجلد ١ ، ص٥٩ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص٩٦ .

العلاء بن الحسين بن وهب بن الموصلايا، كاتب الانشاء بدار الخلافة ، الذى امضى في الخدمة اكثر من نصف قرن .

وكان هبة الله بن التلميذ ، الطبيب الاديب المسيحي المشهور، مختصا بالخلفاء ، يتولى علاجهم، وقد كان يعالج سلاطين السلاجقة احيانا (١) . وكان ابو علي بن فضلان اليهودى كاتبا للخاتون زوجة الخليفة القائم (٢) . ويبدو من رواية اوردها ابن الجوزى عن احداث سنة ٤٥٠ هـ ان المسيحيين واليهود كانوا يسيطرون على عدد كبير من الوظائف الهامة ، الادارية والمالية ، في ديوان دار الخلافة ، ففي تلك السنة ، وامام موجة من موجات ضغط المتزمتين لالزام اهل الذمة بلبس الغيار طلب من ابن فضلان وابن الموصلايا وغيرهم من كبار الموظفين الذميين التأخر في دورهم "فانقطعوا عن المعاملات ، وتأخر الكتاب والجهابذة عن الديوان" (٣) . وقد ذكر الامام الغزالي ان معظم الاطباء في زمانه كانوا من اهل الذمة ، ونعى على المسلمين تخلفهم في هذا الميدان (٤) .

وفضلا عن ذلك فقد اشتغل اهل الذمة بالحرف اليدوية ، فكان منهم جهابذة وصرافون وخياطون وصباغون واساكفة وخرازون (٥) . وقد وجد الرحالة بنيامين ان يهود القدس في القرن الثاني عشر الميلادى كانوا يحتكرون صنعة الصباغة (٦) .

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، مجلد ١٠، ٢٣٤ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨، ص ١٩٠ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) الغزالي ، الاحياء ، ج ١، ص ١٩ .

(٥) المقدسي ، ص ١٨٣ .

(٦) انظر آدم متز، مجلد ١، ص ٦٥—٦٦ .

ويمكن ان نستنتج من الخبر الذى اورده ابن الجوزى عن صدور امر الى المحتسب ببغداد بأن " يؤدب كل من فتح دكانة يوم الجمعة ويغلقه يوم السبت من البزازين وغيرهم ... لان ذلك مشاركة لليهود في حفظ سبتهم "(١)، يمكن ان يستنتج منه ان التجار اليهود كانوا يسيطرون على بعض انواع التجارة، على الاقل، لدرجة ان التجار المسلمين كانوا يضطرون لمجاراتهم في التعطيل يوم السبت . ولست اجد لهذه العبارة تفسير غير هذا . ويذكر ابن الاثير يهوديا كان ضامن البصرة سنة ٤٧٢هـ، ويقول انه كان على درجة عظيمة من الثراء، وانه كان وثيق الصلة بنظام الملك . وقد توفيت زوجة هذا الثرى اليهودى فمشى في جنازتها كل من كان في البصرة باستثناء القاضي . وقد اخذ السلطان ملكشاة من هذا المتمول اليهودى مبلغ مائة الف دينار(٢)

ورغم مظاهر التسامح التي تمتع بها اهل الذمة، والتي اشرنا اليها قبل قليل، فان الجو لم يخل من بعض سحب التعصب والاضطهاد . فقد كان المتزمتون من الفقهاء يتحينون الفرص للضغط على السلطة لفرض اللباس الخاص وتوابعه على اهل الذمة . من امثلة ذلك ان الخليفة المقتدى امر بنقض ما علا من دور اليهود وسد ابوابهم المقابلة للجامع وامرهم بخفض اصواتهم بقراءة التوراة، وذلك سنة ٤٧٨هـ(٣) . وتتكرر امثال هذه الجراءات سنة ٤٨٠هـ و ٤٨٤هـ . وفي هذه السنة الاخيرة، وعلى هذه الاجراءات اضطر ابن الموصلايا، كاتب الانشاء بدار الخلافة الى اعتناق الاسلام(٤) . وقد اسندت اليه نيابة

---

(١) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٩١ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ١١٦ .

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٨ و ٥٥، ياقوت، معجم الادباء، مجلد ١٢، ١٩٧ .

الوزارة بعد ذلك بوقت قصير، في السنة ذاتها[١] . ويقال ان خدمته للخلفاء ابتدأت منذ عام ٤٣٢هـ[٢] . وفي سنة ٤٩٨هـ "ازيل الغيار عن اهل الذمة الذى كانوا الزموه سنة اربع وثمانين ولا يعرف سبب زواله"[٣] . وفي سنة ٥١٥هـ طلب من اهل الذمة لبس الغيار "فانتهى الامر الى ان يسلموا الخليفة اربعة آلاف ، والى السلطان عشرين الف دينار"[٤] . ولعل سبب ازالة الغيار سنة ٤٩٨ هـ، الذى جهله ابن الجوزى كان دفع مبالغ من المال .

ورغم هذا الاضطهاد الذى يؤسف له، فانه يمكن القول ان وضع اهل الذمة في البلاد الاسلامية عامة كان طيبا، اذا ما قورن باضطهادات الاقليات في اوربا .

الاشـــراف :

اطلق لقب الاشراف على كل من انتسب الى سلالة العباس بن عبد المطلب ، عم النبي ، وكل من انتمى الى سلالة علي بن ابي طالب. وكان هذا اللقب في العهد السلجوقي يشمل الاسرتين العباسية والعلوية . وكثيرا ما يرد في المصادر اسم نقيب النقباء ، او نقيب العلويين والعباسيين[٥] ، بيد اننا لا نظفر الا بالنزر اليسير عن حياة هذه الفئة . وقد كان الخليفة هو الذى يعين نقيبا لكل من افراد العائلتين في بغداد[٦] ،

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص٥٦ .

(٢) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٢، ص٢٠١–٢٠٣ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص١٤٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٢٢٨ .

(٥) ابن عساكر، جـ ١، ص٣٩٩، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص٥٣ و ٨٢ و ١٠٤ و ١٢٦ ومجلد ١٠، ص١٢٣ ، العماد الاصفهاني الكاتب ، خريدة القصر وجريدة العصر ، بعناية شكري فيصل (دمشق : ١٩٥٩م) ، مجلد ٢، ص٢٤٩ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨، ص٩١ ومجلد ٩، ص٥٣ .

غير اننا نسمع بنقيب للاشراف في البصرة [١]، ونقيب للعلويين في الموصل [٢]، وعليه يمكن استنتاج انه كان للاشراف نقيب في كل بلدت وجدت فيه مجموعة منهم . والذى يشجع على مثل هذا الاستنتاج ان المبدأ الذى انشئت هذه المؤسسة بموجبه يجعل وجود النقيب امرا لا غنى عنه. اما نقيب النقباء فقد كان رئيسا للنقباء جميعا [٣].

وكانت هذه الفئة من الناس تتمتع باحترام المعاصرين، بسبب انتسابها الى النبي [٤]، فلا غرو والحالة هذه ان شكل هؤلاء طبقة خاصة يضعها المسلمون في مكانة اعلى من غيرهم، على اساس النسب وحده.

وقد بين كل من الماوردى والفراء سبب انشاء منصب النقابة والمبدأ الذى قام عليه بانه "صيانة ذوى الانساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف . . ." [٥]

والنقابة على ضربين، خاصة وعامة — حسب رأى الفقهاء — وصلاحيات النقابة الخاصة اضيق من صلاحيات النقابات العامة، اذ ان النقيب من النوع الاول لا يسمح له باصدار الاحكام واقامة الحدود . وتخول النقابة العامة صاحبها ان يحكم في القضايا وان يقيم الحدود . هذا فضلا عن ولايته على الايتام منهم، وعلى املاك الايتام، واختصاصه بتزويج الايامي اللاتي لا اولياء لهن، والحجر على السفهاء . ثم تشترك النقابة العامة والخاصة في الواجبات الاتية :

---

(١) سبط بن الجوزى، مجلد ٨، ص١٩٣ .

(٢) الكاتب الاصفهاني، خريدة القصر، مجلد ٢، ص ٢٤٩ وانظر ص ٢٥٣ منه .

(٣) وهذا مجرد استنتاج .

(٤) انظر مثلا: الكاتب الاصفهاني، خريدة القصر، مجلد ٢، ص ٢٤٩ .

(٥) الماوردى، ص ٩٦، الفراء، ص ٩٠ .

١ - حفظ انسابهم من ان يدخلها غريب او ان يخرج منها منتم اليها •

٢ - تمييز بطونهم ومعرفة انسابهم وتسجيل ذلك في سجلات خاصة •

٣ - معرفة المواليد والوفيات منهم واثباتها في السجلات حفاظا على الانساب •

٤ - حملهم على ادب السلوك الذى يتناسب مع مكانتهم •

٥ - تنزيههم عن المكاسب الدنيئة والمطالب الخبيثة •

٦ - كفهم عن ارتكاب الآثام وغشيان المحارم •

٧ - منعهم من محاولة التسلط على العامة ، اعتدادا بنسبهم وشرفهم ، وحملهم على ان يستعطفوا قلوب الناس ويستميلوهم •

٨ - معاونتهم في استعادة حقوقهم ان اغتصبها آخرون •

٩ - ان ينوب النقيب عنهم في المطالبة بحقوقهم في الفيء والغنيمة •

١٠ - ان يمنع اياماهم من الزواج من غير اكفائهن •

١١ - تقويم ذوى الهفوات منهم •

١٢ - مراعاة اوقافهم والمحافظة على اصولها وتنمية فروعها •(١)

ومن الاخبار القليلة التي وردتنا عنهم ان الخليفة المستضي فرق - عندما تولى الخلافة - مالا عظيما على الهاشميين والعلويين ، وعلى المدارس والربط(٢) • وقد اشار ابن جبير الى ان افراد البيت العباسي كانوا يسكنون الجانب الشرقي من بغداد ، بدار الخلافة ، وهم "في تلك الديار معتقلون اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم المرتبات القائمة بهم"•(٣) .

---

(١) الماوردى ، ص٩٦-٩٧ ، الفراء ، ص٩٠-٩١ •

(٢) ابن شاكر الكتبي ، مجلد ١ ، ص٢٧٠ •

(٣) ابن جبير ، ص١٨١ •

هنا ، في حياة هذه الفئة ، تتجلى الطبقية ، فهذه طبقة ترتكز على مبدأ اعتقادى ، تعتبر نفسها ، ويعتبرها أكثر المعاصرين أهلا لذلك ، وهي طبقة خاملة متعطلة ، تعيش عالة على المجتمع .

القبائل البدوية:

ليس هناك الكثير مما يمكن قوله عن البدو في هذا الفصل ، وقد سبق ان ذكرنا دور بعض القبائل في المجال السياسي ، كبني مرداس ، الذين حكموا حلب (١) ، وبني عقيل ، الذين حكموا الموصل وحلب (٢) ، وبني أسد الذين اتخذ أمراؤهم الحلة لهم مقرا ، وتقلبوا في علاقاتهم مع الخلفاء والسلاطين . (٣)

وقد سبق ان أشرنا الى ما كان البدو يسببونه من تخريب وافساد كلما أحسوا بضعف السلطة المركزية (٤) ، وليس ثمة داع لتكراره ، بيد اننا نود ان نؤكد الاثار الضارة لهذا العبث على حياة المجتمع واستقراره ، حتى ان مدنا هامة عريقة في تاريخها ، كالبصرة والكوفة غشيها الخراب وكادت تندثر وهجرها الكثيرون من أهلها (٥) ، هذا فضلا عما كان يتعرض له أهل السواد من سلب ونهب (٦) .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٦٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٦٥ — ٦٧ .

(٣) انظر ما سبق ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٥) مجهول ، كتاب صورة الارض لابن حوقل ، ص ٢١٣ ، وهذا الشخص احد الذين نسخوا كتاب ابن حوقل ، وقد زار المنطقة في النصف الاول من القرن السادس ، وأضاف معلوماته عنها الى نص ابن حوقل ، بيد انه ميز ما أضافه عن النص الاصلي . وانظر كذلك : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٣ ، ابن جبير ، ص ١٦٨ .

(٦) انظر ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٨٣ و ٢١٧ و ٣٥٦ و ٤٠٠ — ٤٠٢ ، مثلا .

ومن اهم القبائل العربية التي برز ذكرها في المصادر، وقامت بدور هام في حياة المجتمع - سلبيا كان هذا الدور ام ايجابيا - بنو اسد وبنو خفاجة وبنو عقيل وبنو مرداس وبنو منقذ (١) .

وقد اقتضت طبيعة النظام القبلي قيام نوع خاص من العلاقة بين القبائل والدولة ، اذ اعتبر شيخ القبيلة ذا سلطة منفردة على عشيرته او قبيلته (٢) . وهذه الولاية لم تقم على اساس الشرافة ، وانما قامت على اساس الضرورات العملية ، لان السيطرة على افراد وجماعات البدو عن غير طريق شيوخهم امر متعذر، كما قامت على اساس التقاليد والاعراف الراسخة من قرون طويلة تعود الى العصر السابق للاسلام .

الارقـــاء :

كان الارقاء يشكلون عنصرا هاما من عناصر المجتمع في العهد السلجوقي . ولم يكن الارقاء كلهم من مرتبة واحدة ، اذ يمكننا ان نميز منهم اربعة اصناف :

١ - المماليك الجنود

٢ - الخصيان ، خدم البيوت

٣ - الارقاء الذين كانوا يعملون لسادتهم في الارض او اية اعمال من هذا القبيل . وهذا الصنف نفترض وجوده افتراضا، رغم اننا لم نعثر على امثلة تدل على وجوده ضمن اخبار العصر السلجوقي .

---

(١) عن عبث بني خفاجة انظر ابن الجوزي، المنتظم ، مجلد ٩، ص٦٣، ابن جبير، ص١٦٨ . وعن بني منقذ انظر ابن خلكان ، مجلد ٣، ص٨٦-٨٧ ومجلد ٤، ص٣٥٧ . وقد سبق الحديث عن اسد وعقيل والمرداسيين .

(٢) الماوردي ، ص٩٩ ، الفراء ، ص٩٤ .

٤ ـ الجواري ٠

كان استرقاق المماليك الجنود اسمياء رغم انهم كانوا يشترون بالمال ، ذلك انهم بدخولهم الخدمة العسكرية كانوا ينتقلون من حال الى حال ، لان العسكريين هم القوة الفعالة الاولى التي يخشاها السلاطين والخلفاء والملوك ، ويعملون على استرضائها ، ويخشاها العامة كذلك ٠ وقد سبق لنا القول ان معظم جيوش السلاجقة وقادتهم كانوا ينتمون الى هذا الصنف من الارقاء ، وان اولئك القادة اصبحوا المسيطرين على السلاطين عندما ذبلت السلطنة السلجوقية (١) ٠

اما الخصيان ، فهم، كما هو واضح من اسمهم، ذكور قطعت منهم اعضاء الذكورية لكي يخدموا في البيوت دون احتمالات اقامتهم علاقات مع النساء (٢) ٠ ولكن كثيرين منهم تخطوا هذه المنزلة الدنيئة وتوصلوا الى ارفع المناصب في دولتي الخلافة والسلطنة معا ٠ فقد تولى عدد من هولاء الخصيان امارة الحج سنين طويلة (٣) ، وهي من الولايات الكبرى المعدودة ، في نظر الفقهاء (٤) ، كما نجد بعضهم يرسل سفيرا بين الحكام (٥) ، وبعضهم الآخر يتولى منصب شحنة العراق ٠ وقد سبق ان اشرنا الى سعد الدولة كوهرائين ، الخصي الذي كان خادما مملوكا لامرأة ، ثم انتقل الى ملكية السلطان الب الاسلان ، وتولى منصب الشحنة ، في العراق ، وشارك الخليفة في رموز الخلافة ، اعني قرع الطبول على باب داره (٦) ٠

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٤٤٠

(٢) انظر السمعاني ، مجلد ٥، ص ٤ـ٥ ٠

(٣) سبط ابن الجوزي ، مجلد ٨، ص ٧٠ ٠

(٤) الماوردي ، ص ١٠٨ـ١١٢، والفراء ، ص ١٠٨ـ١١٤ ٠

(٥) سبط ابن الجوزي ، مجلد ٨، ص ٧٠ ٠

(٦) انظر ما سبق ، ص ١٢١٠

اما النوع الثالث من الارقاء فلا نكاد نسمع عنه شيئا ، باستثناء اشارات عابرة تذكرنا بوجوده ، من ذلك ما نقرأه عن محمد بن احمد الكركانجي الذى كان له عبيد يرسلهم في تجارته الى الاقطار بينما يشتغل هو بطلب العلم (١) ، وعن صافي ، عتيق القائم بامر الله ، الذى اعتق ، بدوره ، عبيده واماءه قبيل وفاته ، واوصى لكل منهم بجزء من تركته ، وعن ابي سعيد صافي بن عبد الله الجمالي الذى كان احد المعتقين ، وكان سيده قد علمه القرآن والادب مع اولاده ، وقد نقل عنه السمعاني مجلسين من اماليه ببغداد (٢) .

وهذه الامثلة التي سقناها توحي كلها بمعاملة كريمة ، وحياة طيبة لهؤلاء الارقاء ، بيد ان الواقع التاريخي لا يحتمل ما يمكن ان يستنتج من هذه الامثلة من تعميمات . فبالرغم من ان الدين الاسلامي قد وضع اسسا كريمة لمعاملة الرقيق ، سواء في ذلك القرآن والاحاديث النبوية (٣) ، فقد عاش الآلاف من الارقاء في اوضاع بائسة مزرية ، وثورة الزنج في القرن الثالث الهجرى مشهورة . وبالرغم من ان الباحث الحالي لم يعثر على اخبار عن رقيق الارض في العصر السلجوقي الا ان وجودهم امر مرجح .

---

(١) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٧ ، ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(٢) السمعاني ، مجلد ٣ ، ص ٣٢٥ .

(٣) تقول الآية رقم ٣٣ من سورة النور : والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ... " وقد نسب الى النبي انه قال : " ايما رجل اعتق امرًا مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا من النار ... " ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، صحيح البخاري (القاهرة : كتاب الشعب ، د.ت) ، ج٣ ، ص ١٨٨ وانظر ص ١٩٨ ففيها تفسير الاية الآنفة الذكر ، وقد فسرت بان السيد يجبر على تحرير العبد ان طلب العبد ذلك وقدم او تعهد بسداد مال المكاتبة .

وكانت الجوارى صنفين، صنفا للخدمة ، وصنفا آخر للمتعة او الغناء او الابهة . وقد ظهر الصنف الثاني في قصور الخلفاء[١] ، وبلاط السلاطين والملوك ، وبيوت الوزراء والاثرياء[٢] . وقد احرزت الكثيرات ممن ينتمين الى هذا الصنف مكانة عالية ، ويكفي ان نذكر ان جميع امهات الخلفاء في العصر السلجوقي كن من الجوارى ، من مختلف السلالات والاجناس، فالقائم ابن جارية رومية تدعى قطر الندى[٣] ، والمقتدى ابن جارية ارمنية تدعى ارجوان[٤] ، وكانت ام المستظهر جارية تدعى كلهبار[٥] ، وام المسترشد جارية تدعى ربابة[٦] ، وام الراشد جارية تدعى جلنار[٧] ، وام المقتفي جارية حبشية تدعى ست السادة نزهة[٨] . اما المستنجد فقد كانت امه جارية رومية تدعى طاووس، وقيل : نرجس[٩] ، وكانت ام المستضيء جارية ارمنية اسمها غضة[١٠] .

وكانت بعض هؤلاء الجوارى المحظوظات يساهمن في الاعمال الخيرية ، مثل بنفشا بنت عبد الله الرومية ، مولاة الخليفة المستضيء ، التي حولت دارا لها على شاطيء دجلة

---

(١) الاربلي ، ص٢٦٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ٢٤٠ .

(٣) ابن القلانسي ، ص١٠٧ .

(٤) الاربلي ، ص٢٦٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٦) ابن الاثير، الكامل ، مجلد ١١، ص٢٨، الاربلي ، ص٢٧٢ .

(٧) الاربلي ، ص٢٧٣-٢٧٤ .

(٨) ابن الاثير، الكامل ، مجلد ١١،ص٢٥٦ ، الاربلي ،ص٢٧٥ .

(٩) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١،ص ٣٦٠ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص٤٥٩ .

الى مدرسة للحنابلة وعينت لها الاوقاف التي تغطي مصروفاتها (١) .

العامـــة :

العامة هم السواد الاعظم والاغلبية الساحقة من السكان، هم الشعب ، بتعبير عصرنا . تضم هذه الفئة صغار التجار من اصحاب الدكاكين ، والباعة المتجولين ، كما تضم اهل الحرف من خياطين وحدادين ونجارين وبنائين وحاكة وصباغين وكحالين وجزارين واساكفة وصانعي قلانس ومطرزين وصناع حصر وصفارين وكناسين وحراس وحمالين وفعلة ، ومن على شاكلتهم .

ويدخل ضمن هذه الفئة الرقيق ، وصغار الجند ، واهل الريف . وقد عاش العامة تحت وطأة الظروف السياسية المضطربة حياة قاسية وعانوا من الفقر والارهاب ومطالب الحكام (٢) وتعديات الجند (٣) الشيء الكثير . فضلا عن الضرائب المباشرة التي كان الحكام يجبونها كلما شعروا بحاجة الى المال كان هناك نظام الضمان الذى سبق الحديث عنه (٤). وكان الضامن الذى يدفع مبالغ محددة للحكام ولا يتردد في استعمال كل الوسائل التي تمكنه من مضاعفة ارباحه . وبجانب هذا فكثيرا من تعرض الناس للمصادرة ، سواء في المدن او في الريف ، وعندما كانوا يتمكنون من رفع شكاياتهم كانوا يجأرون بالشكوى ، ففي سنة ٤٧٩هـ دخل الى دار الخلافة ثلاثة من اهل ناحية نهر الفضل وشكو للخليفة

---

(١) ابن الساعي ، جهات الخلفاء ، ص ١١١—١١٢ .

(٢) انظر ابن القلانسي ، ص١٠٨ و ١١٢ و ٢٠٢ و ٢٤٥ ، ابن عساكر ، جـ٢ ، ص ٣٣١ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨، ص ١٦٥ ومجلد ٩، ص ١٣٨—١٣٩ ، ومجلد ١٠، ص ٦٩ .

(٣) انظر ابن القلانسي ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨، ص ١٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩، ص ٦١٢ و ٦٢٧ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ٩٨ .

من انهم صودروا وعوقبوا ، وانهم مضت عليهم اربعة اشهر وهم واقفون بالباب شاكين ، دون جدوى . فوعدهم الخليفة المقتدى بانصافهم [(١)] . وفي سنة ٤٩٦هـ دخل الامير ينال ، وهو من اتباع السلطان محمد ، بغداد ، وافسد القرى وقسط عليها اموالا ، فبعث اليه الخليفة بقاضي القضاة حاثا اياه على الكف عن ايذاء الرعية فلم يرتدع ، بل انه احتجز سفنا تحمل بضاعة للخليفة وقرر عليها مالا [(٢)] . وقد ذكر ان احد عمال الخليفة على منطقة نهر الملك بلغ به الظلم انه كان يعذب الرجال فيعلقهم من ارجلهم ، ويعذب النساء لدرجة انه يعلقهن من اثدائهن [(٣)] . وقد فر فلاحو بعض قرى الموصل من قسوة الجباة وثقل الضرائب ، ولكن عماد الدين زنكي لاحقهم واعادهم الى ضياعهم [(٤)] . واخبار المصادرات وارهاق الشعب بالضرائب وتعديات الجند اكثر من ان تستقصى [(٥)] ، خاصة في فترات الفوضى واحتدام الحروب الداخلية . ومن اكثر الامور ايذاء ما كان يتعرض له العامة من نزول الجنود السلاجقة في دورهم عند حلول هولاء ببغداد وغيرها من المدن [(٦)] . على ان هذا لم يكن يحدث دائما ، بل في اوقات الفوضى والحروب .

وخلال عهد السلطانين الب ارسلان وملكشاة كانت الاحوال السياسية مستقرة والنظام

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٣٥ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ٢٢٤ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٩ .

(٥) انظر مثلا : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ١٣٧–١٣٨ و ٢١٨ و ٢٢٢–٢٢٣ و ٢٣٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٥ .

(٦) ابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٩ و ٢٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦٢٧ .

مستتبا ، والتعديات قليلة ، ولكن باب الفوضى انفتح على مصاريعه بعد وفاة ملكشاة ، وكثرت المظالم ، فكثر اللصوص ونشطت حركة العيارين وتكررت مهاجمتهم لاصحاب الاموال . من امثلة ذلك ان العيارين اشتد فتكهم بالجانب الغربي من بغداد سنة ٤٩٠هـ (١) . وفي سنة ٤٩٢ هـ حدثت مجاعة ونشط العيارون في محال العاصمة العباسية (٢) . وتكررت اخبارهم في احداث السنة التالية ، حتى قيل انهم سرقوا بعض متاع قاضي القضاة الدامغاني (٣) . وفي سنة ٤٩٧هـ اضطرت قوة الشرطة الى الانسحاب من الجانب الغربي وتركه للعيارين وعجز الشّحن عن حفظ الامن (٤) . وفي سنة ٥٣٢ هـ عظم امر ابن بكران، زعيم العيارين في العراق وزاد عدد اتباعه وصار يركب في جماعته ويتجول دون تخف . "وكان ابن بكران يكثر المقام بالسواد ومعه رفيق له يعرف بابن البزازه فانتهى امرهما الى انهما ارادا ان يضربا باسمهما سكة في الانبار" (٥) . وتتكرر اخبار حركات العيارين سنة ٥٣٦هـ ، حيث عجز بهروزه الشحنة ، عن كف اذاهم . وفي سنة ٥٣٨هـ كان متولي الشحنكية صارما ، فصلب بعض من كانوا يحمون العيارين ، وطاردهم ، فهرب اكثرهم (٦) .

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية

مما مر معنا في الصفحات السابقة ، سواء عن الحياة السياسية او الاجتماعية ندرك

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ١٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١، ص ٦٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٨٩ و ٩٥ .

انه كان هناك تفاوت كبير من الناحية الاقتصادية ، بين الحكام ومن يمكن ان يعتبروا من الخاصة ، وبين عامة الناس . وهذا التفاوت لم ينتج عن نشاط المترفين وجدهم، وكسل المحرومين وخمولهم في معظم الاحوال ، بل ربما كان اكثر الناس جدا وكدحا هم اقلهم نصيبا من ثروة البلاد ، واكثرهم معاناة من الحرمان والشقاء .

وبجانب مظهر التفاوت هذا نلمس مظاهر اخرى ، منها تفكك الكيان الاجتماعي وتقطع اوصاله ، الامر الذى نلمسه في ظهور جماعات وتكتلات متنوعة ، يجمعها عدم الشعور بوحدة الامة . من هذه الجماعات والتكتلات جماعات العيارين في العراق ، وجماعات الاحداث في البلاد الشامية ، وما نلمسه من تكتل اهل الاحياء واهل الاسواق ، هذا فضلا عن انقسام الناس الى فرق ومذاهب دينية متناحرة .

وفضلا عن ذلك نجد ان الناس كانوا يمارسون ضروبا من اللهو والترويح عن النفس، كما نجد ان بعضهم ينصرف الى حياة المجون والتفسخ الخلقي .

العيارون والاحداث :

شهد المجتمع البغدادى خلال العصر السلجوقي نشاطا لجماعات من الرجال كانت تمارس اعمال السطو على بيوت الاغنياء ، وتثير الرعب في احياء المدينة من حين لاخر ، كلما شعرت بضعف السلطات . وقد عرفت هذه الجماعات باسم العيارين . وقد اشرنا قبل قليل الى بعض اعمال السطو التي كان العيارون يقومون بها، ولا حاجة بنا الى تكرر ما ذكرناه او استقصاء مزيد من اخبار هذه الاحداث(١) .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٢٣ .

غير ان علينا ان نشير الى جانب آخر من حياة العيارين ، وهو انهم كانوا جماعات تمتعت بقدر من التنظيم ، وكانت لهم تقاليد وقواعد خلقية عرفت عن بعضهم ، منها عدم الاعتداء على النساء، وعدم الغدر ، وتخصيص اصحاب الثرا بهجماتهم (١) .

وقد تناول المؤرخون المعاصرون العيارين بالثلب ، ونظروا اليهم باشمئزاز واحتقار ، بينما رأى بعض الباحثين المحدثين فيهم ثوارا على الظلم الاجتماعي الذى عانى منه المجتمع البغدادى (٢) . وقد دافع البعض عن هذه الجماعات لدرجة انه كاد يصفهم بانهم حركة وطنية ثورية تقدمية (٣) .

ويتراءى لكاتب هذه السطور ان الذين كتبوا عن العيارين لم يصلوا الى نتائج حاسمة ، لان الموضوع - في اعتقادى - يحتاج الى دراسات اوفى ، ولست ادرى ان كانت مثل هذه الدراسات ستتوصل الى معلومات كافية تمكن الباحثين من الوصول الى النتيجة المرجوة .

وحيث ان موضوع العيارين يمثل جزءا صغيرا من هذه الدراسة التي اقوم بها فانني ارى في معالجته بسرعة ، واصدار احكام تستند الى هذا النوع من المعالجة مخاطرة لا اود القيام بها . ومع ذلك فسأتحدث عن الموضوع في حدود الجوانب المتعلقة بنشاط هذه الجماعات في العهد السلجوقي ، وساطرح بعض الاستنتاجات التي لا تزيد الا قليل عن درجة التخمينات ولعل الفرصة تتاح لي في المستقبل ، او لغيرى ، باعطاء دراسة

---

(١) عبد العزيز الدورى ، مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربي (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٦٩) ، ص ٧٧-٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(٣) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجرى (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ، ص ٣٠٩ .

هذه الظاهرة حقها .

ليس غريبا ان تظهر في اخلاق العيارين بعض صفات الرجولة والشهامة ، فهم بشر قبل كل شيء ، والانسان لا يكون خيرا كله ولا شرا كله، بل فيه من هذا وذاك. لذلك فانني اعتقد ان المبالغة في اطراء العيارين لا تستند الى ادلة كافية ، سيما اذا كان لدينا قرائن تؤدى الى نتائج مغايرة . من ذلك ما اورده ابن الجوزى في اخبار سنة ٤٢٦هـ حين ذكر ان العيارين اخذوا بغال السقائين وثياب القصارين (١) . وقد تكرر منهم ذلك في سنة ٤٢٨هـ (٢) . وقد ذكر ابن الاثير، في اخبار سنة ٥٣٦ هـ ان العيارين في بغداد كانوا على ارتباط باخي امرأة السلطان ، وبابن وزيره. وقد دوخوا البلد ، وكان الشحنة يعجز عن كفهم فتمتعهم بحماية هذين الشخصين، اذ ان نسيب السلطان وابن وزيره كانا يقاسمان العيارين اسلابهم (٣) . واورد ابن الجوزى خبرا من هذا القبيل مفاده ان جماعة من العيارين سلبوا ثياب احد قومة الحمامات (٤) . وقد حاول احد الباحثين المحدثين نفي نسبة هذه التعديات الى العيارين، ونسبها الى اللصوص العاديين ، دون سند (٥) وذلك بغية تأكيد ما ذهب اليه من تنزيه العيارين عن النقائص والدنايا . انني لا ارى مبررا لهذا التحيز ضد اللصوص الافراد ، فهم ايضا بشر فيهم من نوازع الخير والشر كما ينسب الى العيارين . واعتقد ان اللصوصية ليست دائما ناتجة عن

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨، ص ٨٢-٨٣.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(٣) ابن الاثير، الكامل ، مجلد ١١، ص ٨٩ و ٩٥ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠، ص ٦٧ .

(٥) فهد ، ص ٣٠٦-٣٠٧ .

طبيعة شريرة ، بل انها في اغلب الاحوال تنتج عن فساد اوضاع المجتمع وتعرض فئات منه الى الظلم ، وحرمانها من فرص الحصول على الكفاية بالطرق العادية المشروعة .

ومن خلال هذه المعلومات تراني اميل الى الاعتقاد ان العيارين كانوا جماعات متعددة مختلفة الاحجام، وان سطوهم على الاغنياء كان امرا طبيعيا ، اذ ان ما عند الفقراء لا يستحق المغامرة . وقد اوردنا امثلة من تعرض الفقراء، احيانا لاعتداءات العيارين .

ومن البديهي ان ظهور العيارين على النحو الذى وصفنا نتج عن اختلال الاوضاع السياسية والاقتصادية ، ويمكن ان يقال ان حركاتهم كانت تمردا على ذلك الاختلال ، ولكنه كان تمردا محدود الافق ، لم يستهدف احداث تغييرات سياسية واجتماعية عامة ، بل استهدف مجرد الانتقام من السلطة ، ومن الاغنياء ، كما استهدف الحصول على مال يرفع افراد هذه الجماعات من حضيض الفاقة ، ويجعلها في مركز مهيب يثير الرعب في النفوس، بدلا من الذل والاستكانة للظلمة . ولكن هذه الاتجاهات لم تتسع وتتعمق لتشمل رفع الظلم عن الآخرين، وتغيير الاوضاع العامة . واحكامنا هذه تتعلق بنشاط العيارين في العصر السلجوقي فقط.

وثمة حركات اخرى نجدها في بلاد الشام ، هي حركات الاحداث ، فقد تردد ذكرهم على انهم جماعات من شباب المدن يشاركون في الاحداث السياسية الداخلية ، كما يشاركون في الحروب ضد الاعداء الخارجيين . وقد كانت هذه الحركات موجودة في بلاد الشام قبل العهد السلجوقي ، ففي سنة ٣٦٠هـ اقام الشريف ابو القاسم اسماعيل بن ابي يعلى الدعوة للخليفة العباسي المطيع، بدمشق ، فجاء القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الى دمشق . وقد القي القبض على ابن ابي يعلي وارسله جعفر الى مصر، مع جماعة من الاحداث الذين كانوا

عاونوه(١) . وفي سنة ٣٧١هـ ثار شخص يدعى قسام على الفاطميين ببلاد الشام، وكان قسام هذا قد "نشأ بدمشق ... ثم انه صحب رجلا يقال له ابن الجسطار من مقدمي الاحداث وحملة السلاح وطالبي الشر، فصار من حزبه وتزايد امره الى ما انتهى اليه"(٢) . وفي سنة ٣٧٨هـ تمرد منير، والي دمشق من قبل الفاطميين وجمع "رجالة من احداث البلد من حمال السلاح وطلاب الشر والفساد واستعد للحرب وتأهب للقاء"(٣) . وحين تعرضت دمشق لهجمات القائد السلجوقي اتسز بن اوق ، في اوائل السبعينات من القرن الخامس الهجرى والقى عليها الحصار، استحكم الخلف في داخلها بين العسكرية ، والمصامدة ، والاحداث من اهلها"(٤) .

وعندما حاصر تاج الدولة تتشى حلب ، وكان فيها اصحاب بركياروق ، عول بوزان وكربوقا، على المصابرة حتى وصول النجدة من قبل بركياروق " وقرروا مع الاحداث ذلك"(٥) ، ولكن قوما من الاحداث ، "ممن لا يعرف ولا يذكر ...": فتحوا باب انطاكية ، فدخلت قوات تتش البلد(٦) .

وفي سنة ٥٠٥هـ كان رضوان بن تتش، صاحب حلب ، قد مال الى الباطنية ، وخطب لصاحب مصر. وقد دبر الباطنية مؤامرة لقتل تاجر ثرى من اعدائهم، ينفق الاموال في

---

(١) ابن القلانسي ، ص١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٤٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٩٩ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢، ص١١٧ .

(٦) المصدر والصفحة ذاتهما .

قتلهم ومطاردتهم، ولكن موءامرتهم لم تنجح ، وهرع الناس من السنة والشيعة الى مكان الحادث ، واظهروا انكار ما جرى على الرجل وعبث احداث السنة "بجماعة من احداث الباطنية فقتلوهم ، ولم يتجاسر رضوان على انكار ذلك"(١) .

وفي سنة ٥٣٣هـ ملك الروم ، اى الامبراطور البيزنطي ، لحصار حلب ، ومعه ريمند ، صاحب انطاكية وابن جوسلين، "فنزل على حلب من قبليها ... وخرج اليهم احداث حلب فقاتلوهم وظهروا عليهم، وقتل من الروم مقدم كبير، ورجعوا الى خيمهم خائبين"(٢) .

وعندما عمل تاج الملوك بوری، صاحب دمشق ، على الفتك بالباطنية ، وقتل وزيره الذی كان يظاهرهم ويتآمر معهم سرا، وشاع خبر قتل الوزير في البلد "ثارت الاحداث بدمشق والغوغاء والاوباس بالسيوف والخناجر المجردة ، فقتلوا من ظفروا به من الباطنية ... وافنوهم جميعا ، تقطيعا بالسيوف وذبحا بالخناجر، وجعلوا مصرعين على المزابل ..."(٣) وقد كان جماعة من احداث دمشق يشكلون جزءا من الحرس الخاص لتاج الملوك بوری(٤) .

والواقع ان كل ما يذكر عن الاحداث بدمشق وحلب وبعلبك لا يعدو هذه الانواع من النشاطات .

ومن الامثلة التي سقناها نرى ان الاحداث كانوا جماعات مسلحة من الشبان، يشاركون في الاحداث السياسية بشكل مستمر، وقد يثيرون المشاغبات والمصادمات ، لكنهم لم يرد

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٦٥ .

(٣) ابن القلانسي ، ص٢٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٢٣٠ .

عنهم — في ما قرأنا — القيام باعمال السطو والسلب والنهب ، لا ضد الاغنياء ولا ضد الفقراء ٠

وقد اورد ابن العديم ذكر شقي من الشطار عرف بالمجن ، واسمه بركات بن فارس الفوعي ٠ "وكان هذا المجن اولا من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطرق الذعاره فاستتابه قسيم الدولة آق سنقر، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ٠ وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الاخرة بالفوعة ، ويسرى الى حلب ويسرق منها شيئا، ويخرج ويصلي الفجر بالفوعة ، فاذا اتهم بالسرقة احضر من يشهد له ٠٠٠"(١) انه صلى العشاء والصبح بالفوعة فينجو٠ وقد اساء المجن التصرف في ولايته مما اغاظ الملك رضوان ، فعذبه عذابا شديدا ليستصفي ماله، من ذلك انه حمى طستا حتى احمر ووضعه على رأسه، ونفخ دبره بكير الحداد وثقب كعابه٠ " ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال له : ويلك لا تعرف : احضر خشبة وضعها على الكعب٠ فاحضر خشبة ووضعها على كعبه فدار المثقب ٠٠٠" فقيل له "كيف تجد طعم الحديد ؟ فقال : قولوا للحديد كيف يجد طعمي ٠ ولم يقر المجن مع كل هذا بدرهم واحد"(٢) .

ان صفات المجن هذه هي الصفات المعروفة عن عيارى العراق ، بيد ان ابن العديم لم ينسبه الى الاحداث ، مع انه اورد الكثير من اخبارهم٠ لذلك فانني ارجح ان حركات الاحداث تختلف عن حركات العيارين وعلى الاقل في عهد السلاجقة ٠

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢، ص١٣٨—١٣٩ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص١٤٠ ٠

ولعل من الجائز نسبة حركات الاحداث الى الفتوة . فقد ذكر ابن جبير اثناء حديثه عن طائفة الرافضة ببلاد الشام: "وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية ، سنيون ، يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها . وكل من الحقوه بهم لخصلة يرونها فيه ... يحزمونه السراويل فيلحقونه بهم ، ولا يرون ان يستعدى احد منهم في نازلة تنزل به لهم في ذلك مذاهب عجيبة . واذا اقسم احدهم بالفتوة بر قسمه . وهم يقتلون هؤلاء الروافض اينما وجدوهم . وشأنهم عجيب في الانفة والائتلاف" [1] . غير ان علينا ان نتذكر ان زيارة الرحالة الاندلسي للشام كانت سنة ٥٨٠هـ ، اى اثناء خلافة الناصر لدين الله ، العباسي . الذى تبنى حركة الفتوة وحاول ان ينشرها وان يجعل منها سندا للخلافة العباسية [2] وعلى ذلك لا نستطيع التأكيد ان حركة الفتوة التي وصفها ابن جبير كانت امتدادا لحركة الاحداث ، بل ربما يمكن القول ان جهود الناصر استقطبت الاحداث .

ولا يفوتنا ان نذكر في هذا المقام منظمة للفتوة شكلها في بغداد شخص عرف بابن الرسولي ، الخبازه ، وكانت حركته سرية اسماعيلية ، على ارتباط بالفاطميين ، وقد الف لها الكتب ، ووجه الدعاة الى الاقطار ، حتى اكتشف امره وقبض عليه وعلى نفر من اتباعه ، وفر الباقون [3] . وقد نسب بعض الباحثين هذه الحركة الى العيارين ، واتخذ منها دليلا على انهم خطوا بحركتهم الى الامام [4] . ولكنني لا ارى مبررا لمثل هذه المبالغات ، واعتقد

---

(١) ابن جبير ، ص٢٢٧ .

(٢) الشيخ ابو عبد الله محمد بن ابي الكرم المعروف بابن المعمار البغدادى الحنبلي ، كتاب الفتوة ، تحقيق مصطفى جواد وزملائه (بغداد : مكتبة المثنى ، ١٩٥٨) ، ص١٢٣–١٢٤ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص٣٢٦–٣٢٧ .

(٤) فهد ، ص٣٠٠ .

ان حركة العيارين غير حركة ابن الرسولي ، المنتسبة الى الفتوة ، رغم انها ربما تكون قد اندمجت في الفتوة بعد ان تبناها الناصر الدين الله ٠

وخلاصة القول ان العصر السلجوقي شهد عددا من الحركات المختلفة ، ادت الظروف السياسية والاجتماعية الى نشأتها ٠ واعتقد ان هذه الحركات لم تكن موحدة ، بمعنى ان العيارين لم يكونوا حركة واحدة ، بل كانوا جماعات تختلف في اعدادها ومدى التزام افرادها باخلاق الشهامة ٠ كما اعتقد ان حركات الاحداث في بلاد الشام كانت متعددة ، وان الواحدة منها كانت محدودة بالمدينة التي تنتسب اليها ، وربما وجد في المدينة الواحدة اكثر من حركة ، سيما حين تتعدد فيها الفرق الدينية ٠ وقد مر معنا قبل قليل ذكر احداث السنة واحداث الباطنية ٠

تكتل اهل الاحياء والاسواق :

ومما يلاحظ ، في بغداد خاصة ، ان اهل الاحياء كانوا يشعرون بنوع من الوحدة والعصبية لحيهم ٠ ففي سنة ٤٨١هـ شرع اهل حي باب البصرة في بناء قنطرة جديدة ٠ ومن الطريف ان نقرأ انهم كانوا ينقلون الآجر في اطباق الذهب والفضة ، على نغمات المزامير ودقات الطبول ٠ ويبدو ان المقصود من ذلك هو التظاهر بالعظمة (١) ٠ وبعد شهرين قام اهل الكرخ ببناء عقد لمحلتهم (٢) ٠ وعندما ابتدأ ابن جهير بتعمير سور الحريم ببغداد ، واذن للعامة بالفرجة استعرض اهل الاحياء ابهتهم وتنافسوا في اظهار فنونهم ، فاهل حي باب المراتب عملوا فيلا من البواري المطلية بالقار وتحته اناس يحملونه ويمشون به ، وعملوا زرافة على نفس الشاكلة ٠ اما اهل محلة سوق يحيى فقد خرجوا بناعورة تدور معهم في الاسواق ٠ وجاء اهل سوق المدرسة بقلعة من الخشب تسير على عجل ،

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٣ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ٠

وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب[١] .

كذلك نلاحظ شعور اهل البلد الواحد بان لهم كيانا خاصا يعتزون به، وقد وصف ابن جبير اخلاق البغداديين بالكبر والتعالي ، واذا حاول احدهم ان يظهر التواضع بان تصنعه " يزدرون الغرباء ويظهرون لمن دونهم الانفة والاباء، ويستصغرون عمن سواهم الاحاديث والانباء، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده ان الوجود كله يصغر بالاضافة الى بلده ...."[٢] ، بيد انه استثنى العلماء من نقمته ونقده اللاذع[٣] . وفي سنة ٤٩٧ هـ سقطت منارة واسط التي كانت قد بنيت سنة ٣٠٤هـ . ويبدو انها كانت فريدة في نوع بنائها اذ نقرأ ان الواسطيين كانوا يفتخرون بها . وحين سقطت لم يصب بسقوطها احد بسوء، ولكن البكاء والعويل ارتفع في المدينة اكثر مما لو كانوا فقدوا عزيز عليهم[٤] .

وثمة امر آخر يسترعى انتباه الباحث وهو تماسك اهل الصناعات ، فبمناسبة حادثة بناء سرو الحريم، التي اشرنا اليها آنفا، جاء الحاكة ببئر على عجل ، وفيها حائك ينسج ، وكذلك فعل السقلاطونيون . اما الخبازون فقد جاؤوا بتنور وتحته ما يسير به، والخباز يخبز ويرمى الخبز للناس[٥] . وهذه الاستعراضات وغيرها من الاعمال المشتركة توحي بوجود ارتباطات تنظيمية لاهل كل صناعة ، والا لما امكنهم القيام بهذه الاعمال، كما ان ظاهرة التنافس في هذه المظاهرات تؤيد هذا الاحتمال .

وقد وردت اشارة مقتضبة ومبتورة ، في الوقت ذاته ، الى عريف للصناع والفعلة ، ففي اخبار سنة ٤٧٩هـ ذكر ابن الجوزى انه " ... في صفر.. دخل عريف الصناع والفعلة ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

(٢) ابن جبير، ص ١٧٤ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ١٣٧ .

(٥) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ، ص ٨٥ .

والصناع معه على العادة الى دار الخلافة ، فخرج المقتدى يمشي في الدار، فخرج اليه ثلاثة من الرجال فقبلوا الارض وقالوا نحن رجال من رؤساء نهر الفضل صودرنا وعوقبنا ..." (١)

ويبدو ان هؤلاء الرجال المتظلمين الثلاثة اندسوا بين الصناع والفعلة ليصلوا الى الخليفة ، فانشغل ابن الجوزى بخبرهم واهمل ذكر عريف الصناع والفعلة وبتر خبرهم، ربما لان زيارتهم كانت تقليدية ، وانه ليس فيها شيء يستحق التسجيل من وجهة نظره.

كذلك اورد ابن الجوزى خبرا عن ابي عبد الله بن الجلاب ، شيخ البزازين بباب الطاق في بغداد . وكان ابو عبد الله رافضيا مغاليا في الرفض، فامر وزير الخليفة صاحب الشرطة بقتله ، فقتل (٢) .

ونجد اشارة اخرى الى عرفاء اهل الحرف عند الشيزرى، الذى تحدث عن جواز تعيين عريف لاهل كل صنعة من بينهم ، يكون خبيرا بصناعتهم . وقد نسب الشيزرى حديثا الى الرسول : "استعينوا على كل صنعة بصالح اهلها" (٣) .

ولكن اذا كانت مظاهر تكاتف اهل الصناعات التي ظهرت في الاستعراض الذى ذكرنا خبره اعلاه تشجع على افتراض وجود تنظيمات لاهل الصناعات ، فان اشارة كل من ابن الجوزى والشيزرى لا تعد دليلا او سندا قويا لصحة هذا الفرض . والحقيقة ان الباحث لا يجد في تاريخ هذه الفترة ما يمكنه من معالجة موضوع نقابات الحرفيين بحيث يجلو صورتها كما كانت في العهد السلجوقي بالذات ، لا في العهود او المناطق الاخرى .

---

(١) المصدر نفسه ، ص٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ٨، ص١٧٢ .

(٣) الشيزرى ، نهاية الرتبة ، ص١٢ .

بعض مظاهر اللهو :

ان ذكر الحروب ، والظلم والضرائب وعبث الجند وغارات العيارين ربما يحمل القارئ على الاعتقاد بان حياة العامة كانت حياة عابسة جافة ليس فيها سوى الرعب والقلق والآلام والفقر، كما ان ذكر الفقهاء وتأثيرهم الواسع ، والصوفية ورباطاتهم وخوانقهم، ربما يوحي بمجتمع يعيش ضمن قواعد اخلاقية صارمة ، ولكن مثل هذا التصور لا يتفق مع الواقع•

لقد سبق ان اشرنا الى ضروب اللهو التي مارستها الطبقات العليا في المجتمع ، بيد ان الطبقات الدنيا كان لها نصيبها كذلك، من وسائل الترويح عن النفس والابتسام للحياة الصاخبة ونسيان متاعب الامس والغد •

ففي المناسبات العامة ، كعيد الفطر وعيد الاضحى ، مثلا، كان يجرى في بغداد استعراض عسكرى ، حيث يمر الجنود على صهوات جيادهم والعامة يتفرجون • وكانت بغداد تزين بتعليق ستائر الديباج المختلفة الالوان (١) •

وكانت ثمة مواسم واعياد اخرى كثيرة توفر للعامة فرصة للبهجة والسرور، مثل المهرجان الذى كانوا يسمونه الصدق ، وقد عمله السلطان ملكشاة في بغداد سنة ٤٨٤هـ واورد لنا ابن الجوزى وصفا ضافيا لكيفية تلك الاحتفالات : فقد اشعلت النيران، واضيئت الشموع العظيمة على ظهور السميريات والزوارق الكبيرة ، ونصبت على كل زورق قبة عظيمة ، وخرج عامة بغداد يتفرجون فامضوا ليلتهم على الشواطئ• واشعلت النار في مواضع كثيرة على شاطئ دجلة ، وقد شارك كبار رجال الدولة في هذا الاحتفال وعرضوا من مظاهر الزينة ما يتناسب مع مكانتهم • وقد مدت من على سطح دار السلطنة حتى النهر حبال شدت باحكام وعلق بها

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨، ص ٤٤ و ٥٧ ومجلد ١٠، ص ٣٥ و ٥٨ و ١٥٧، ابن الاثير، الكامل ، مجلد ٩، ص ٢١٦ •

زورق يصعد به رجل في الحبال وفيه نار مشتعلة [١] ، وواضح ان عملية هذا الزورق المعلق تشبه (التلفريك) الحديث من بعض الوجوه.

ومن المناسبات التي كان العامة يحتفلون بها مناسبات زواج الخلفاء او ختان اولادهم، فعندما تزوج الخليفة المستظهر ابنة السلطان ملكشاة ، وزفت اليه سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م لبست بغداد حلل زينتها [٢] .

وعندما كانت تعود قافلة الحجاج كان الناس يستقبلونها بالزينات ، ويصف لنا ابن جبير الذى كان ضمن قافلة الحج التي وصلت الى الموصل سنة ٥٨٠هـ كيف خرج الناس جميعا، ركبانا ومشاة ، نساء ورجالا ، وخرج امير البلد ليستقبل والدته التي كانت عائدة مع الحجاج ، "فدخل الحاج المواصلة ... على احتفال وابهة ، قد جللوا اعناق ابلهم بالحرير الملون، وقلدوها القلائد المزوقة" [٣] .

ويبدو ان عامة بغداد كانوا يتحينون الفرص، مهما كانت ، للترويح واظهار البهجة ، فعندما شرع الوزير عميد الدولة بن جهير في عمارة سور محلة الحريم ببغداد "حمل اهل المحال السلاح والاعلام والبوقات والطبول ، ومعهم المعاول والسبيلات وانواع الملاهي والخيالات ، فعمل اهل باب المراتب من البوارى المقيرة على صورة فيل وتحته قوم يسيرون به، وعملوا زرافة كذلك ، واتى اهل قصر عيسى بسميرية كبيرة فيها الملاحون يجدفون ، وهي تجرى على هاذور، واتى اهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الاسواق ، وعمل اهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسى البندق والنشاب ، واخرج

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص٥٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص٢٦٦ .

(٣) ابن جبير، ص١٩٠ .

قوم بئرا على عجل ، وفيها حائك ينسج ... وكذلك الخبازون ، جاءوا بتنور وتحته ما يسير بها والخباز يخبز ويرمي الخبز الى الناس"(١) .

وكان عامة بغداد يخرجون للنزهة في الزوارق ، ليلا ونهارا، وقد شاهد ابن جبير عددا كبيرا منها، قال انه يفوق الحصر. وكان اهل دمشق يلتقون للنزهة والفرجة عند جامع دمشق كل عشية ، يروحون ويجيئون مشرقين مغربين، من باب جيرون الى باب البريد ، يتحادثون او يقرأون، ويظلون على هذه الحال حتى وقت العشاء حيث ينصرفون . وكان بعضهم يمارس هذه النزهة في الفترة الصباحية كذلك(٢) .

وفضلا عن هذه الانواع من اللهو كانت لبعض الناس مجالس طرب وغناء، يشدو فيها المغنون وتصدح الموسيقى وتغني القيان، من ذلك ما اورده ياقوت ان مطربا غني في حفلة ختان لابن احد وجهاء البصرة ، وكان صوت المغني جميلا فظل القوم يستمعون اليه يومهم بطوله(٣) .

وحضر الشاعر محمد بن القيسراني مجلس سماع ، اى حفلة غنائية ، وكان المطرب عذب الصوت فطرب القوم وهاجهم الوجد ، فانشد الشاعر القيسراني :

"والله لو انصف العشاق انفسهم   فدوك منها بما عزوا وما صانوا
ما انت حين تغني في مجالسهم   الا نسيم الصبا والقوم اغصان"(٤) .

وكان المغنون يشدون برائقات ابيات الشاعر محمد بن بختيار، المعروف بالابله

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص٨٥ .

(٢) ابن جبير، ص ٢١٥ .

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦، ص ٢٧٠ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٤، ص ٥٤ .

" ويتهافتون على نظمه تهافت الطير الحوم على عذب المشرب" (١) .

وقد عمل الشاعر الطبيب الاديب الموسيقي عبيد الله المظفر الباهلي (ت ٥٤٩هـ) ارجوزة طويلة يصف فيها مجالس اللهو والشراب، يذكر فيها ان المتنادمين في تلك المجالس كانوا يبدأون بتناول الاكل ، ثم شراب الفقاع ، يتبعه النبيذ ، ثم النقل والرياحين والورود والتفاح والخيار. وبعد ذلك تغني القيان ، وبعد ان ينتهي الغناء يشرع السمار في رواية النوادر ويتطارحون الشعر، وهنا يكون الشراب قد فعل فعله في الروءوس، واذ ذاك تبدأ الفوضى ، فربما احدثوا تخريبا في اثاث البيت من جراء عربدتهم، وقد يكسرون الاقداح والقناني . واذا خرج احدهم لقضاء حاجة فقد يقابل جارية او غلاما فيغازلها او يغازله ، وربما يصادف ابن صاحب البيت او ابنته ، وربما يكون الغزل باللسان او باليد . وقد يقتتل المتنادمون بفعل الخمر ويعلو صياحهم فيتأذى الجيران ويشكونهم الى الشحنة . والويل لربة البيت ان قرروا النوم فيه حتى صباح اليوم التالي (٢) .

حتى الصوفية كانت لهم اشعار خاصة وكانوا يستمعون الى الغناء (٣) .

وكان الفقهاء يضيقون ذرعا بمظاهر التحلل الخلقي التي كانت منتشرة في المجتمع البغدادي ، ففي سنة ٤٦٤هـ اجتمع زعماء الحنابلة والشافعية في جامع القصر ، وطلبوا من الخليفة جملة مطالب ، منها ازالة المواخير ، " وتتبع المفسدين والمفسدات ومن يبيع النبيذ ... فتقدم الخليفة بذلك ، فهرب المفسدات ، وكبست الدور، واريقت الانبذة ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

(٢) ابن ابي اصيبعة ، ص ٦٢٠–٦٢٣، وانظر الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ١، ص ٣٥٨–٣٦٤، ففيها وصف آخر لمجالس الشراب واللهو .

(٣) سبط بن الجوزي ، مجلد ٨، ص ١٤٩ .

ووعدوا بقلع المواخير ...»[١] . وفي سنة ٤٧٨ هـ صدر امر بقمع المجون واراقة الخمور وكسر ادوات اللهو الموسيقية ، ونقض دور اهل الفساد [٢] . ويبدو ان الظروف التي كانت تساعد على انتشار هذه المظاهر كانت قوية ، يدعمها نفوذ الجند السلجوقي واتباع السلطان، ففي السنة التالية ، ٤٧٩هـ ، تكررت عملية محاولة ازالة ما يشكو منه الاتقياء ، ونادى المنادون في الاسواق بالوعيد لمن لا يرتدع [٣] . وفي سنة ٤٨٨هـ احتج الفقهاء على استهتار العامة والجند بالاخلاق ، وعولوا على لزوم بيوتهم، وكتب ابو الوفاء بن عقيل ، كبير الحنابلة الى الوزير بن جهير تقريعا غاضبا : "فما بالنا نعقد الختمات ورواية الاحاديث ، فاذا نزلت بنا الحوادث تقدمنا بجمع الختمات والدعاء عقيبها ، ثم بعد ذلك طبول وصواني ، ومخانيث وخيال ، وكشف عورات النساء مع حضور الرجال ... كيف تطالب الاجناد بتقبيل عتبة ولثم ترابها، وتقيم الحد في دهليز الحريم، صباحا ومساء، على قدح نبيذ مختلف فيه، ثم تمرح العوام في المسكر المجمع على تحريمه هذا مضاف الى الزنا الظاهر بباب بدر ولبس الحرير على جميع المتعلقين والاصحاب ... ثم لا تلمنا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام، لانهم ان سألونا لم نقل الا ما يقتضي الاعظام لهذه القبائح والانكار لها، والنياحة على الشريعة »[٤] .

---

(١) ابن رجب ، مجلد ١، ص ٢٤ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

(٤) ابن رجب ، مجلد ١، ص ١٧٨–١٧٩ .

الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية

الحيـــاة الاقـتـصـاديـــة

ان المقومات التي تتشكل منها الحياة الاقتصادية لاى شعب من الشعوب هي الانتاج ، وطرائق توزيعه وأساليب تبادل السلع في داخل البلاد وخارجها . لذلك فان الحديث عن الحياة الاقتصادية لا بد له من ان يتناول الزراعة والتجارة والصناعة وما يتعلق بها . وسنحاول التحدث عن كل جانب من هذه الجوانب بقدر ما تمدنا به المصادر .

أولا : الزراعة :

لقد لقيت الزراعة الكثير من عناية الحكام . وسنرى من خلال الامثلة التي سنسوقها بعد قليل ان معظم الحكام كانوا يدركون اهمية الانتعاش الزراعي ويبذلون في سبيل تحقيقه جهودا تستحق التنويه .

بيد ان الزراعة لم تسلم من عوامل التخريب التي تمثلت في عبث القبائل البدوية [1] وحروب المتنازعين من السلاطين والملوك ، وكذلك الحروب الصليبية . [2] الا ان التخريب الذى سببته هذه العوامل لم يكن مستمرا كما انه لم يحدث في جميع المناطق العربية في آن واحد . لقد كان التخريب يحدث عندما ينشغل أصحاب السلطة بالنزاع فيما بينهم وينصرفوا بذلك عن النظر في حفظ الامن وترقية اقتصاد ممتلكاتهم . ومما خفف عن المناطق العربية ان معارك الوراثة التي كانت تدور بين المعسكرات السلجوقية كانت تجرى في الاراضي الفارسية في أغلب الاحيان . وتجدر الاشارة الى ان النزاع بين أرباب الحكم لم يجتذب الى حلبته سوى الحكام والعسكريين وطبقة الموظفين ، بينما ظل افراد الرعية عامة بمنأى عن تلك الحلبة ، غير ان الرعية لم تسلم من رذاذ يطالها بين آونة وأخرى .

أما الاشتباكات التي نتجت عن الغزوات الصليبية فقد انحصرت في أغلب الاوقات في مناطق الحدود بين العدوين ، كما تخللتها فترات هدوء وتفاهم من آن لاخر .

ومهما يكن من أمر فقد مرت السلطنة السلجوقية في فترة استقرار ساد فيها الامن والهدوء بين سنتي ٤٥١ و٤٨٥هـ كما ان ولاية الموصل وبلاد الشام نعمت بدرجة طيبة من الامن والاستقرار تحت حكم الاتابكة . وقد بذل كثيرون من الحكام جهودا خليقة بالتقدير في ميدان تنشيط الزراعة وانعاشها .

---

(١) انظر أمثلة عن عبث البدو في : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٢٤ ومجلد ٩ ، ص ٦٣ و٩٧ و١٣٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢٧ و ١٨٣ و٢١٧ و٣٥٦ و٤٠١ .

(٢) انظر أمثلة في : ابن القلانسي ، ص ١٤١ و١٧١ ، أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، حققه فيليب حتي (برنستون : مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠م) ، ص ٨٥–٨٨ .

وتمدنا المصادر بمعلومات لا بأس بها عن جهود قام بها الحكام لاصلاح وسائل الرى ، ففي سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠م سد بنو ورام ، وهم جماعة من الاكراد بثق النهروانات ، كما عمل العميد ابو الفتح على اصلاح بثوق الكرخ (١) وعندما انفجرت البثوق في منطقة الفلوجة سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦م انقطعت المياه من النيل وغيره في تلك المنطقة . وجلا اهل البلاد قام عميد الدولة ابن جهير باصلاحها سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠م (٢) وفي سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١م سد ظفر القائمي بثق نهر عيسى الذى كان قد مضى على خرابه ثلاث وعشرون سنة ، سد فيها مرارا لكنه لم يثبت الا عندما اصلحه ظفر المذكور (٣)

وتكاد المصادر تجمع على ان السلطان ملكشاه بن الب ارسلان (٤٦٥ هـ / ١٠٧٣م — ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) قام باصلاحات كثيرة منها حفر الانهار وتعمير القناطر (٤) وفي سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩م فوض السلطان محمد بن ملكشاه عمارة العراق الى معروف الخادم فـ" حفر الانهار وكدى السواقي فعم الرخص بالعراق (٥) وفي سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠م ولي على العراق بهروز الخادم الذى زادت مدة ولايته على ثلاثين سنة ، قام خلالها بكثير من الاصلاحات الانشائية من ضمنها انشاء بعض السدود (٦)

وهكذا يستطيع الباحث القول بان الحكام في العهد السلجوقي كانوا يدركون اهمية العناية بنظام الرى ، وكانوا يبذلون في ذلك الجهود المناسبة كلما واتتهم الفرصة وكلما مكنتهم مشاغلهم من ذلك . وقد مرت معنا بعض الامثلة على اهتمام الشحن بامور الزراعة والرى ، ويبدو ان الشحنة والعميد (٧) كانا يتعاونان في هذا المضمار .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ — ١٠١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٩ و ٧٠ ؛ ابن الاثير ، الباهر ، ص ١١ ؛ ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧١ ، مثلا .
(٥) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ٢٧ .
(٦) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٧٧ ؛ سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ١٨٦ .
(٧) عن وظيفة العميد انظر ما سبق ص ١٢٥ .

ولعل مما يدعم هذا الراى ما نجده من امثلة عن حرص الحكام على انعاش الزراعة فحتى قواد الجيوش السلجوقية كان بعضهم يدرك اهمية هذا الانتعاش من ذلك ما نقرأه عن اتسز بن اوق الذى انتزع دمشق من ولاة الفاطميين سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦ م اذ لم يكد يستقر بالمدينة حتى نظر" في امور دمشق واحوالها بما يعود بصلاح اعمالها ووفور استغلالها ، واطلق لفلاحي المرج والغوطة الغلات للزراعات والزمهم الاشتغال بالعمارات والفلاحات ، فصلحت الاحوال وتواصلت من سائر الجهات الغلات .. (١) فهذا القائد السلجوقي الذى لم يعرف عنه انه كان من كبار الامراء لا يكتفي بالتشجيع الكلامي بل يقدم البذار ويلزم الفلاحين بالعمل . وقد اعتم اتابك طغتكين صاحب دمشق باصلاح الاوضاع الزراعية وتعمير الضياع المهجورة واحياء الاراضي الميتة فاستأذن السلطان والخليفة في ذلك فاذنا له : " فعمرت عدة ضياع يبابا خالية .. فاجريت عيون مياهها واعيدت الى اجمل عاداتها (٢) وليس ادل على اهتمام عماد الدين زنكي صاحب الموصل بالزراعة من انه هدّد حسام الدين تمرتاش، صاحب ديار بكر بغزو بلاده ان لم يعد بعض فلاحي الموصل الذين هربوا اليه كما سبق ان ذكرنا (٣) وقد اشرنا الى ان زنكي كان يشدد على منع اصحابه من ظلم الرعية (٤)

والذى نخرج به من هذه العجالة عن حالة الزراعة في العهد السلجوقي بشكل عام انها كانت مزدهرة وان الحكام او معظمهم على الاقل كانوا يدركون اهمية الانتعاش الزراعي وكانوا يبذلون جهودا وعناية ليست بالقليلة في سبيل توفيره .

وقد خلف لنا الرحالة ابن جبير الذى سار من جنوب العراق ، فمر ببغداد والموصل وحلب ودمشق ، ثم خرج منها الى عكاء ، على الساحل الفلسطيني ، خلف لنا وصفا شيقا لازدهار الزراعة

---

(١) ابن القلانسي، ص ١٠٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٩.
(٣) انظر ما سبق، ص ٩٧.
(٤) انظر ما سبق ، ص ٩٠.

في هذه المناطق . فالمنطقة المجاورة للحلة " وارفة الظلال بشجرات الفواكه (١) والقرى الواقعة على الطريق من الحلة الى بغداد محاطة كلها ببساط اخضر من الزروع والاشجار والبساتين وحدائق النخيل (٢)

ويمتد امام مدينة نصيبين وخلفها " بسيط اخضر من البصره " فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار ، يانعة الثمار .. والحدائق تنتظم بحافتيه .. " (٣) وقرية تل العقاب على طريق الموصل — حلب " تحفها البساتين والكروم وانواع الاشجار وينسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه .. والبساتين قد انتظمته (٤) واما مدينة راس العين فتنساب جداول الماء من العيون المتفجرة في ارضها وتسير وسط المروج الخضر " كأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد ، تحف بها اشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها الى اخر انتهائها من عمارة بطائحها (٥) وتحيط البساتين بمنبج وترف الحدائق النضرة حول بزاغة (٦) ولحلب ربض يسقيه نهر وبالربض بساتين كثيرة وبها الكروم المعروشة تتدلى منها عناقيد العنب (٧)

وبلاد المعرة ، سواد كلها ، تغطيها اشجار الزيتون والتين والفستق وانواع الفاكهة ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب .. البلاد واكثرها خيرات .[٨]

---

(١) ابن جبير ص ١٧١ — ١٧٢ .
(٢) المصدر نفسه والصفحتان ذاتهما .
(٣) ابن جبير ص ١٩٢ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٥ .
(٥) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
(٦) المصدر نفسه ص ٢٠١ .
(٧) المصدر نفسه ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .

وتحف البساتين بنهر حماة وتلتف فيها اشجار الاعناب ، وتتسع المزارع والمحارث .[1]

والبساتين التي يراها المسافر عندما يقترب من دمشق لا يوصف حسنها ، فدمشق "جنة المشرق ، تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، أحدقت بها احداق الهالة بالقمر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر.[2] وجبل لبنان من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفاكهة ، وفيه المياه المطردة ، والظلال الوارفة .[3]

وقد أوردت المصادر التي بين ايدينا ذكر عدد من أنواع مزروعات العراق بصورة عرضية ، وهي لذلك لا تعتبر حصرا لكل أنواع المحاصيل الزراعية العراقية . ومن هذه المحاصيل التي ذكرتها المصادر : النخيل[4] والحنطة والشعير[5] والدخن[6] والفواكه ، بتعبير مجمل[7] ، والعنب[8] والتوت ،[9] والسفرجل ،[10] والتفاح ،[11] والرمان ،[12] والتين ،[13] والاترج والليمون ،[14]

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٤) السمعاني ، مجلد ٥ ، ص ٢٩ ، ابن جبير ، ص ١٦٧ — ١٦٩ .

(٥) ابن جبير ، ص ١٧١ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٩٧ .

(٧) ابن جبير ، ص ١٧١ و ١٨١ .

(٨) الماوردى ، ص ١١٧ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ٢٨٩ .

(٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ٢٧٣ ومجلد ٩ ، ص ٧٦ .

(١٠) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ١٧٠ ، ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(١١) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(١٢) الخطيب البغدادى ، مجلد ١ ، ص ١١٢ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٣٢ .

(١٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٨٩ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .

والخرنوب [١] والبطيخ والقثاء [٢] والخيار [٣] والباذنجان [٤] والباقلاء [٥] والحمص [٦] .
وقد ذكر المقدسي المتوفى ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م زراعة السمسم في منطقة تكريت ، كما أشار الى التمور والحنطة والشعير باعتبارها من محصولات العراق الرئيسية . [٧] ورغم ان المقدسي متقدم عن فترتنا بما يقرب من ثلاثة أرباع قرن ، فالذى نرجحه ان انتاج هذه المحصولات قد استمر في العصر السلجوقي ، بغض النظر عن احتمال تعرضه للزيادة أو النقصان في بعض الاحيان .

والموصل من أكثر البلاد فاكهة "فالرمان يبقى الى ان يدرك العتيق والجديد ، وكذلك الكمثرى ، وقريب منه الغب . وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد . [٨] وعندما حاصر محمد شاه وزين الدين على كوجك بغداد سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م كانت الامدادات التموينية ترد للغزاة من الموصل ، دقيقا وسكرا وعسلا وسمنا . [٩] وقد ذكر ابن الاثير ان الموصل في العهد الاتابكي كانت تمير بغداد أربعة أشهر من كل سنة . [١٠] ومن قبله ذكر المقدسي في وصفه لاقليم آقور ، الذى يشمل ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر ، وقصبته الموصل ، ذكر ان هذا الاقليم يمير أكثر العراق . [١١]

---

(١) المصدر نفسه ، ص٢٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٨٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ١٢٦ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص٢٨٩ .

(٦) الخطيب البغدادى ، مجلد ١ ، ص١١٩ .

(٧) ابوعبدالله محمد بن احمد المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (بيروت : مكتبة خياط ، د . ت .) ، ص١٢٣و١٣٣ .

(٨) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٨٧ .

(٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٧٠ .

(١٠) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٣٩ .

(١١) المقدسي ، ص ١٣٦ .

ويذكر ابن حوقل من زراعات منطقة الموصل الحبوب والقمح والشعير والكروم (١) والسمسم والقطن والارز (٢) والنخيل (٣) والقطاني (٤) والجوز واللوز والبندق والزبيب والتين وغير ذلك (٥) وقد وصف احد الذين زاروا الموصل سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م بانها عمرت عمارة لم تكن قط منذ اسست (٦)

وكانت بلاد الشام غنية بزراعة الزيتون والفستق والفاكهة من تين وعنب ومشمش ولوز ورمان وموز وليمون ونارنج وترنج ونخيل • وكان قصب السكر يزرع في كثير من المناطق الساحلية من بلاد الشام وفي وادي الاردن (٧) ومن حاصلات البلاد الشامية ذات الاهمية الحنطة والشعير والعدس والجلبان والقطن (٨)

وقد اعتمد الناس في ري مزروعاتهم على مياه الانهار والعيون والمطر ولسنا نعرف الكثير عن نظام الري في تلك الحقبة ، ولكن المعلومات القليلة التي تسعفنا بها المصادر تمكن من

---

(١) ابو القاسم بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الارض (بيروت : دار مكتبة الحياة د ٠ت) ، ص ١٩٣.
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٤.
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ — ١٩٧.
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢.
(٦) مجهول ، كتاب صورة الارض ، لابن حوقل ، ص ١٩٥ ؛ وهذا الشخص احد الذين نسخوا كتاب ابن حوقل وقد اضاف ثلاثة اسطار خلاصتها انه زار منطقة الموصل في تلك السنة وروى ما شاهده من ازدهارها
(٧) ناصر خسرو علوي ، سفرنامه ، ترجمة يحي الخشاب (القاهرة : مطبوعات معهد اللغات الشرقية — كلية الاداب ، جامعة فؤاد الاول (١) : ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م) ، ص ١١ — ١٩ و ٣٣ — ٣٥ ؛ ابن عساكر مجلد ٣ ص ٣٦١ ؛
Steven Runciman, A History of the Crusades (Cambridge: 1955), Vol. III, pp. 352 - 353.

(٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٥.

تكوين فكرة عامة . فيذكر ناصر خسرو ان نهر الابلة الذى تحيط به الحدائق ، تتفرع منه قنوات كل منها في سعة نهر (١) ووصف ابن جبير الطريق بين الحلة وبغداد بانها اكثر الطرق سواقي وجسورا ، " فلا تكاد تمشي ميلا الا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات .. (٢) ومدينة راس العين ، ونصيبين تسقى بساتينها وحقولها بقنوات تنساب فيها المياه من العيون والانهار فتسقى الاشجار والزروع (٣)

وكان الزراع يستعملون الدواليب او السواقي لرفع المياه الى الاراضي المرتفعة عن مستوى مصدرها (٤) فقد ذكر ناصر خسرو انه راى كثيرا من السواقي على نهر العاصي بحماه (٥) وبعده باكثر من مائة سنة مر ابن جبير وراى الشيء نفسه وقال ان الدواليب تكثر على جانبي نهر العاصي الذى تكتنفه البساتين (٦) وفي عهد الخليفة المستضيء كان الماء يرفع من دجلة الى دار الخلافة بواسطة اربعة دواليب ، كل منها اعلى من الاخر ، بحيث ياخذ اولها من النهر ، والثاني من الماء الذى يرفعه الاول ، والثالث من الثاني والرابع من الثالث (٧) ويذكر ابن الجوزى انه كانت في منطقة البصرة قناة من الرصاص تنقل المال الى الخزانات البعيدة وانه كانت لهذه القناة اوقاف خاصة بها (٨)

---

(١) ناصر خسرو ، ص ٩٩.
(٢) ابن جبير ، ص ١٧١.
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ و ١٩٥ — ١٩٦.
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٩.
(٥) ناصر خسرو ، ص ١٢.
(٦) ابن جبير ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧.
(٧) تاج الدين ابو طالب علي بن انجب المعروف بابن الساعي ، نساء الخلفاء المسمى جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والاماء (القاهرة : دار المعارف د . ت) ، ص ١١٢ — ١١٣.
(٨) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٣.

ثانيا : التجـــــارة

بديهي ان التجارة ضرورة من ضرورات الحياة الحضرية ، وهي تنشط وتتسع دائرتها وتتنوع السلع الداخلة فيها كلما ارتقت حياة الانسان وزاد حظه من الحياة المدنية وتعددت مطالبه . وقد شهدت الدولة العربية الاسلامية — خاصة ابان ازدهارها السياسي — حركة تجارية من اعظم ما عرفه التاريخ حتى ذلك العصر . ورغم الاضطراب السياسي الذى نلمسه بوضوح في كثير من سني العهد السلجوقي فقد بلغت الحركة التجارية في المشرق العربي السلجوقي حظا مرموقا من النشاط .

التجارة الداخليــة :

كانــت المدن العربية في العهد السلجوقي عامرة الاسواق كثيرة المتاجر ، فكانت اسواق بغداد تعج بالنشاط التجارى حتى قال ابن جبير انها " تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله..."(١) وقد وصف ناصر خسرو اسواق مدينة الابله ، جنوبي العراق بانها من احسن الاسواق في العالم(٢) وكانت اسواق مدينة الحلة مشحونة بمختلف انواع البضائع (٣) وكذلك الحال بالنسبة لتكريت فـي الشمال (٤) بل ان بعض القرى كانت لها اسواق وصفت بانها كاسواق المدن (٥)

اما الموصل فقد كانت الحركة التجارية فيها على درجة عالية من الازدهار ، وكانت اسواقها تحتوى على مختلف البضائـع وتضم عشرات الخانات الكبيرة والقيسريات والمحلات التجارية الواسعـــة المكتظة ببضائع الشرق والغرب . وكان بها اربعة اسواق او اكثر للصنف الواحد من البضاعة (٦) وكانت دنيــفر ونصيبين وحران ومنبج وبزاغة عامرة الاسواق.(٧)

---

(١) ابن جبير، ص ١٨٢ — ١٨٣.

(٢) ناصر خسرو، ص ٩٩.

(٣) ابن جبير، ص ١٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٦) ابن حوقل، ص ١٩٤ — ١٩٥؛ ابن جبير، ص ١٨٨ — ١٨٩؛ وانظر : ياقوت الحموى، معجم البلدان (بيروت : دار بيروت ودار صادر ١٩٥٧ م)، مجلد ٥، ص ٢٢٣.

(٧) ابن جبير ، ١٩٢ — ١٩٣ و ١٩٧ — ٢٠١.

وأما حلب فكانت اسواقها واسعة وحوانيتها كثيرة تحوى من مختلف البضائق .[١] وأسواق دمشق " من أحفل اسواق البلاد وأحسنها انتظاما ... ولا سيما قيسارياتها ."[٢]

وكانت المدن الكبيرة تحتوى على كثير من الاسواق بعضها مخصص ومنسوب لاصناف من البضائع بذاتها والبعض الاخر منسوب لاسماء المواضع التي تقوم فيها ، وغير ذلك .[٣] وليس أدل على مدى ازدهار التجارة في المدن العربية من ان عدد أسواق دمشق التي أورد ابن عساكر أسماءها بلغت ثمانية وأربعين سوقا ، بالاضافة الى ستة أسواق صغيرة سماها سويقات ، وسبع قيساريات. ومن أسماء هذه الاسواق نعرف أنواع البضائع التي كانت تصنع او تتبادل فيها ، وسنذكر منها مادل على صنف من المصنوعات او السلع. فمن هذه الاسواق الدمشقية : سوق الريحان[٤] وسوق الشعير[٥] وسوق البر وسوق السراجين وسوق القطانين وسوق القلانسيين[٦] وسوق الرطابين وسوق الرماحين وسوق الصرف وسوق الطير[٧] وسوق الحبالين وسوق اللؤلؤ.[٨]

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ ، وقد بلغ عدد أسواق حلب التي أورد ابن شداد أسماءها أربعين سوقا .

(٢) ابن جبير ، ٢٣٦ .

(٣) الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد (دمشق : مطبوعات المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٤) ، المجلدة الثانية ، القسم الاول ، ص ٦٢ و٦٤ و١٣٠ و١٥٦ و١٥٨ . وسنظل نميز هذه الطبعة بعبارة "المجلد ٢ ، قسم ١ " بدلا من عبارة "جـ١ ، ص ٥ " ، مثلا ، التي نشير بها الى طبعة تاريخ ابن عساكر الاخرى التي هذبها بدران . وانظر كذلك ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٧ و١٣٥ ، مثلا .

(٤) ابن عساكر ، مجلد ٢ ، قسم ١ ، ص ٢٤ و١٣٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٧ و٧١ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٥٨ و٦١ و١٥٥ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٦١ و٧١ و١٥٥ .

سوق الدقاقين، سوق البقل ، سوق دار البطيخ (١) سوق السلالين (٢) سوق الغزل (٣) ، سوق القناديل (٤) سوق الاساكفة (٥) سوق الاطباقيين (٦) سوق الخواصين ، سوق القمح (٧) سوق الكتانيين (٨) سوق الفاكهة (٩) سوق الحذائين ، سوق الدقيق ، سوق النحاسين (١٠) سوق الابارين ، سوق البزوريين ، سوق المناخليين (١١) سوق الحدادين ، سوق المطرزين (١٢) ويبلغ عدد اسواق حلب التي وردت اسماؤها ضمن كتاب الاعلاق الخطيرة ، لابن شداد اربعين سوقا منها : سوق الحريريين (١٣) وسوق البز (١٤) وسوق الحدادين ، وسوق الكتابيين (١٥) وسوق الخشابين (١٦) وسوق الطير ، وسوق الخزازين (١٧) وسوق الفرائيين (١٨) وسوق الحصارين ، وسوق السراجين (١٩) وسوق الفقاعيين (٢٠) وسوق الطباخين (٢١) وسوق الغنم (٢٢) وسوق التبن (٢٣) وسوق السلاح (٢٤)

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٣ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٦٨ و ١٦٠ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٦٩ .
(٥) المصدر نفسه، ص ٧١ .
(٦) المصدر نفسه، ص ٧٣ .
(٧) المصدر نفسه، ص ٧٤ و ١٤٢ و ١٥٨ و ١٦٢ وقد ذكر ايضا باسم سوق البر .
(٨) المصدر نفسه، ص ٧٤ .
(٩) المصدر نفسه، ص ١٢٩ .
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢٧ .
(١١) المصدر نفسه، ص ١٥٥ .
(١٢) المصدر نفسه، ص ١٦٣ .
(١٣) ابن شداد، الجزء الاول، القسم الاول، ص ١٤ .
(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٢ و ٣٦ و ١٤٧ .
(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٢ و ٤٥ و ٦٢ .
(١٦) المصدر نفسه، ص ٦٣ و ١٤٤ و ١٤٧ .
(١٧) المصدر نفسه، ص ٦٦ و ١٤٦ و ١٤٧ .
(١٨) المصدر نفسه، ص ٦٨ .
(١٩) المصدر نفسه، ص ٦٩ .
(٢٠) المصدر نفسه، ص ٧٥ .
(٢١) المصدر نفسه، ص ٨٩
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٧٩ و ١٥١ .
(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٣٤
(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٤٤ .

وسوق الصاغة ، وسوق النطاعين ،[1] وسوق الاساكفة ، وسوق الزجاجين ، وسوق العطارين ،[2] وسوق الخيل ،[3] وغير ذلك .

وكان المار بأسواق بعض المدن العربية يشاهد فيها ، فضلا عن البضائع التى تدل عليها أسماء هذه الاسواق ، أفرانا تبيع الخبز للجمهور ،[4] وأناسا يقلون الزلابية ،[5] وآخرين يقلون السمك ،[6] والنقانق ،[7] كما كان هناك صانعو الهريسة ،[8] والقصابون ،[9] وشواءو الخراف ،[10] وبائعو الرؤوس والاكارع[11] والحلوانيون ،[12] وثمة حوانيت للحاكة ،[13] والخياطين ،[14] والصباغين .[15]

ونقرأ أحيانا عن سوق خاصة بالصيدلة في واسط ،[16] حيث تباع الادوية والعقاقير التي كانت مستعملة في ذلك العصر ، كالراوند الصيني ، والافيون المصرى ، واللبان الذكر ، والتمر الهندى ، والمصطكى ، وغير ذلك .[17]

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

(٣) المصدر نفسة ، ص ١٤٩ و ١٥١ .

(٤) الشيزرى ، نهاية الرتبة ، ص ٢٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٢٧ ــ ٢٨ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٧١ ــ ٧٢ .

(١٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٧ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٤٢ ــ ٤٧ .

وبالاضافة الى التجارة المحلية في البلد الواحد كان هناك تبادل السلع بين المدينة والريف ، وبين منطقة واخرى ، وبين قطر واخر ضمن المنطقة العربية السلجوقية ومع اقطار دار الاسلام المختلفة . وقد توفر الامن خلال بعض فترات الحكم السلجوقي ، خاصة في عهد السلطان ملكشاه حيث كانت القوافل تسير من بلاد ما وراء النهر الى اقصى بلاد الشام دون حراسة . وكان التاجر الواحد والاثنان يسافران دون خوف او رهبة (١) وفي اوقات الخطر كان التجار يسيرون في قوافل كبيرة ، او ينتظرون قافلة الحج لمصاحبتها (٢) بل كانوا يصاحبون الحملات العسكرية احيانا (٣) وقد كانت الحركة التجارية بين العراق والموصل والشام ناشطة ، فكانت السفن تملأ دجلة وتنقل البضائع الشرقية العابرة (٤) والبضائع المحلية (٥) وفضلا عن ذلك فقد كانت القوافل التجارية تنقل البضائع من قطر الى اخر (٦) حتى ان القار ، وهو سلعة ثقيلة ورخيصة كان ينقل من العراق ليباع في كل انحاء الشام بما في ذلك عكا وسائر المدن الساحلية (٧)

ومن التسهيلات التي اعدت للحركة التجارية توفر الخانات لنزول التجار والقوافل ، على طول الطريق من الخليج ، جنوبي العراق ، الى دمشق (٨) وقد نصح ابن جبير معاصريه من الحجاج المغاربة ان يسلكوا هذا الطريق في سفرهم مفضلا اياه عن الطريق المار بمصر عبر الصعيد فميناء عيذاب على البحر الاحمر (٩)

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٠.
(٢) ناصر خسرو ، ص ١٠ ؛ والكاتب الاصفهاني ، وتواريخ ال سلجوق ، ص ٢٥١ ؛ وابن جبير ، ص ١٨٥ـ١٨٦.
(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٤٤.
(٤) Atiya, p.175. ؛ وانظر ابن الجوزي ، مجلد ٩ ، ص ٢١٦ ؛ وابن جبير ، ص ١٨٠.
(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٥٠.
(٦) المصدر والصفحة ذاتها.
(٧) ابن جبير ، ص ١٨٧.
(٨) ابن جبير ، ص ١٧١ و ١٨٧ ـ ١٨٨ و ١٩١ و ١٩٣ و ٢٠٠ و ٢٠٥ ـ ٢٠٧ و ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٩) المصدر نفسه ، ص ٤٣.

وفي موسم الحج كان التجار يجتمعون من مختلف الاقطار الاسلامية ، فقد كان يعقد في منى أثناء الحج "سوق من أعظم الاسواق ، يباع فيها من الجوهر النفيس الى أدنى الخرز ، الى غير ذلك من الامتعة وسائر سلع الدنيا ، لانها مجتمع أهل الافاق ." (١) وفي مكة كان يعقد سوق مماثل ، يباع فيه " من الدقيق الى العقيق ، ومن البر الى الدر ." (٢)

وتورد لنا المصادر بعض الامثلة عن نشاط تجارى بين العراق وسواحل الخليج العربي ، من ذلك ما يذكره ابن خلكان عن عادة تجار عراقيين السفر الى البحرين للحصول على اللؤلؤ من المغاصات هناك . (٣)

ورغم نشوب الحروب الصليبية فان الحركة التجارية بين الشام ومصر استمرت برا وبحرا ، (٤) فكان المحاربون منهمكين في صراعهم والتجار منهمكين في تجارتهم . (٥) ومن الطريف ان نقرأ عن قافلة تجارية متجهة الى الاراضي الصليبية ، يقابلها جيش اسلامي عائد من المعركة ، محملا بالغنائم ، فلا يمنعها ذلك مواصلة السفر الى وجهتها . (٦)

وكان التجار والحجاج المغاربة يقدمون الى الشرق على السفن الاوروبية ، (٧) اذ اصبحت السيطرة في البحر المتوسط للاوربيين ، خاصة الجنويين والبنادقة ، وذلك منذ ان انتزعت صقلية من أيدى المسلمين ١٠٩١م . ويذكر القفطي ان تاجرا شاميا جلب كتابا نفيسا من أصبهان الى الشام ، حيث اشتراه منه أندلسي من أهل مرسية ، ونقله الى مصر . (٨)

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٠٣ .

(٤) أسامة ، ص ٣٥ .

(٥) ابن جبير ، ص ٢٣٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٣٥_٢٤٥ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ و ٢٥٥_٢٥٦ .

(٨) القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٣ ، ص ١٩٤_١٨٥ .

التجارة الدولية : الهند والصين :

بدأت تجارة العرب في العصر الاسلامي مع بلاد الصين والهند في وقت مبكر ، اذ نجدها مزدهرة في القرن الثامن الميلادى ونجد جالية عربية اسلامية كبيرة في ميناء كانتون الصيني سنة ٧٥٨ م (١) وقد بلغت هذه التجارة ذروة نشاطها في القرن التاسع الميلادى (٢) وقد استمر النشاط التجارى خلال القرن العاشر الا ان المعلومات التي توردها المصادر بعد هذه الفترة قليلة ومتباعدة الزمن ، بيد انها تبين استمرار الحركة التجارية على ما كانت عليه في السابق (٣) وقد جرت العادة بان تنقل بضائع الهند على ظهور السفن عبر الخليج الفارسي وشط العرب ودجلة الى بغداد والموصل ، ومن هناك تحمل القوافل السلع المجلوبة لاسواق حلب ودمشق وبلاد الساحل الشامي عامة (٤) وقد ظلت المراكب الصينية تبحر الى الموانيء العربية اثناء القرن الثاني عشر الميلادى وحتى زمن التوسع المغولي (٥) وعندما كان ناصر خسرو في طريق عوده الى بلاده بعد ختام رحلته شاهد في مياه الخليج بين البصرة وعبادان منارتين خشبيتين ارتفاع الواحدة منهما اربعون ذراعا و يضاء في البرج المقام على راس كل منهما مصباح داخل غطاء زجاجي لارشاد السفن حتى لا ترتطم بالارض في المياه الضحلة (٦) ويعدد ابن جبير اسماء اصناف من البضائع الهندية التي كانت تباع في موسم الحج بمكة (٧)

---

(١) Hourani, pp.62-63.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid., p.83.

(٤) Aziz S. Atiya, Crusade, Commerce and Culture (Bloomington: Indiana University Press, 1962), pp.175 - 176.

(٥) Runciman, III, p.359.

(٦) ناصر خسرو، ص ١٠٠ .

(٧) ابن جبير، ص ٨٦ .

ورغم ان المصادر لا تمدنا بأخبار عن نشاط التجار العرب في هذا الميدان الشرقي ، فثمة ذكر لبعض تجار كانوا يسافرون الى الهند ، مثل علي بن أحمد القطان الحلابي ، التاجر البغدادى الذى سافر الى مـــرو ، حيث قابله السمعاني ، وخرج منها الى بلاد الهند .(١) ومثل رامشـت ، التاجر الفارسي الثرى ، الذى كان يسافر الى الهند ، والذى قام بكسوة الكعبة عندما انشغل الخلفاء والسلاطين بحروبهم عن هذا الواجب الديني سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م .(٢)

التجارة مـــع أوروبـــا :

ظل العرب يسيطرون على التجارة الدولية في البحر الابيض المتوسط الى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، واذ ذاك تمت للنورمان السيطرة على جزيرة صقلية وانتزاعهـــا نهائيا من أيدى المسلمين سنة ١٠٩١م ، الامر الذى آذن ببدء تنصير مياه هذا البحر . وجـــاء نجاح الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٦م فأكمل حلقة تلك السيطرة الاوربية . ومع هذا فقـــد ظلت صقلية ملتقى التجارة المتبادلة بين الغرب الاوربي والشرق العربي .(٣)

ومع ان الموانى الشامية كانت قبل عصر الحروب الصليبية تستقبل السفن القادمة من الموانىء البيزنطية والاوربية الغربية والاندلسية والمغربية ، موقرة بالبضائع ، وكانت تبحر منها السفن العربية في اتجاه معاكس الى موانىء تلك الاقطار (٤) الا ان خضوع البحر الابيض المتوسط للسيطرة الاوربية بعد بدء الحروب الصليبية زاد من حجم التبادل التجارى بين الشرق والغرب ووسع آفاقه الى درجة لم تعهد من قبل .(٥)

---

(١) السمعاني ، الانساب ، مجلد ٤ ، ص ٣١٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٦٥ .

(٣) Atiya, pp. 169 - 170.

(٤) ناصر خســرو ، ص ١٣ .

(٥) Atiya, p.170.

واتخذ الصليبيون من عكا ميناء رئيسيا وجعلوها اهم مركز تجارى في شرق المتوسط ، فصارت "محط الجوارى المنشآت في البحر كالاعلام ، .. وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطي ُ الاقدام .. (١) ولم تكن عكا هي الميناء الوحيد ، فهناك ميناء صور الذى كانت تقلع منه السفن الى اوروبا كذلك (٢) وميناء اللاذقية الذى ظل يستأثر بمقدار كبير من التجارة الشرقية الى زمن المماليك (٣) .

وكانت السلع المصدرة من المشرق العربي الى اوروبا اما مستوردة في الاصل من بلدان الشرق الاقصى ، كالقرفة والتوابل والزنجبيل وجوزة الطيب والقرنفل والمسك وعود الند (٤) او من انتاج البلاد العربية كالسكر والزجاج ، والاقمشة المختلفة الانواع (٥) وبعض مواد الصباغة مثل النيلة العراقية وكذلك المصنوعات المعدنية الدمشقية والتوابل من جنوب الجزيرة العربية (٦) ويفترض ان حركة عامة لمعدن الذهب قد سارت من الاقطار الاسلامية الى الاقطار المسيحية ، عبر الدول الصليبية اذ ان العملة الذهبية لم تكن مستعملة في اوروبا المسيحية قبل عهد الحروب الصليبية (٧)

وكانت اهم البضائع التي يستوردها المشرق العربي من اوروبا هي المعادن والخشب (٨) .

---

(١) ابن جبير، ص٢٤٩.
(٢) المصدر والصفحة ذاتهما.
(٣) Runciman, III, p.361.
(٤) Ibid., p.359.
(٥) Ibid., p.353.
(٦) Ibid., p.355.
(٧) Ibid., pp.363-364.
(٨) Ibid., p.357.

وكانت الارباح التي تدرها هذه التجارة الشرقية تسيّل لعاب التجار الايطاليين فتحملهم على التخاذل عن المشاركة الجادة في الحروب الصليبية لنصرة العقيدة ، وعلى عدم الانسجام مع الــــروح الدينية التي جاءت الحملات الى الشرق باسمها (١) وقد اضطرت الاحتياجات المالية قادة الدويلات الصليبية والحكام المسلمين انفسهم الى المحافظة على قدر مناسب من اسس التعامل السلمي يسهّل استمرار التجارة بين الجانبين (٢) ومن مظاهر حرص الصليبيين على ما كانت تدره التجارة مع اعدائهم المسلمين حسن معاملتهم للتجار وتخفيفهم للرسوم الجمركية (٣) وقد كان التجار العرب يتنقلون بحرية داخل الاراضي الصليبية وبين مدنها (٤) وبالمثل فقد كان التجار الاوربيون لا يكتفون بشــــراء البضائع المجلوبة الى اسواق المدن الصليبية ، بل كانوا يختلفون الى الاسواق العربية ، حيث يستطيعون شراء البضائع باسعار اقل من اسعار مثيلتها في اسواق المدن الصليبية (٥)

ورغم الانانية المفرطة التي طبعت سلوك معظم الحكام في العهد السلجوقي فقد ادرك الكثيرون منهم اهمية توفر الامن والاستقرار لازدهار البلاد ، وحرصوا على استمرار الحركة التجارية . فقد كان السلطان البارسلان ، ثاني السلاطين السلاجقة ، شديد الاهتمام بردع جنده عن اموال الرعية ، وقد بلغه ان واحدا من خواص مماليكه سلب من احد الناس ازارا ، فامر بالقبض على ذلك المملوك ، وصلبه (٦) وقــد روى عن ابنه السلطان ملكشاه ان بائع بطيخ من اهل السواد شكا اليه ان بعض الجنود نهبوا بضاعته ، فاهتم السلطان بالامر ، الى ان اكتشف ان مرتكبي تلك الجريمة من اتباع الامير الذى كان يشغل منصب الحاجب فالزمه باحضارهم لينالوا القصاص . وحين ابلغــه انهم فروا قال للسوادى : " خذ مملوكي هذا قــد

---

(١) Ibid., pp. 356, 365.

(٢) ابن جبير ، ص ٢٣٥؛ وانظر

(٣) ابن جبير، ص ٢٤٧.

(٤) ابن جبير، ص ٢٤٩ - ٢٥١.

(٥) Runciman, III, pp. 353-354.

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠، ص ٧٥.

وهبته لك عوضا عن بطيخك ٠٠٠" (١) وكان يشير الى الحاجب ٠ ولم يفك ذلك المملوك نفسه من بائع البطيخ الا بعد ان دفع له مبلغ ثلاثمائة دينار٠ (٢) وقد جاء هذا السلطان الى بغداد ثلاث مرات وكان الناس يتخوفون من ارتفاع الاسعار واعتداءات الجند ،ولكن الامر كان على العكس من هذه التوقعات ،اذ كان الباعة المتجولون يخترقون عسكره ليلا ونهارا " ولا يخافون ، ولا يبيعون الا بما يريدون ٠٠٠" (٣) ولم يتعد عليهم أحد من الجند ٠ (٤)

وعمل قسيم الدولة آق سنقر (ت٤٨٧هـ) أمير منطقة حلب ،على استئصال شأفة قطاع الطرق ، وكان يأمر أهالي القرى والضياع بالا يغلق أحد بابه ،وبأن يترك الحراثون أدوات الحراثة في الحقول دون حراسة ،امعانا منه في تحدى من قد تنازعهم أنفسهم الى اغتصاب الاموال ٠ وقصد عمرت "حلب في أيامه بسبب ذلك ،لورود التجار والجلابين اليها من كل مكان ٠" (٥)

وكان عماد الدين زنكي يهتم بحفظ الامن ومنع الاعتداء واغتصاب الاموال ، وكان شديد السطوة على من يتجاسر على ذلك ،حتى ان أحدا من جنده لم يكن ليجرؤ على أخذ علاقة تبن لاطعام دابته " الا بثمنها او بخط من الديوان ٠٠٠" (٦)

أما عدالة نور الدين محمود بن زنكي فهي أشهر من ان تحتاج الى تنويه ، وقد أطنب المؤرخون في مدحه وفي التنويه بعمران البلاد في عهده ،وباسقاطه للجمارك عن التجارة ٠ (٧)

ووصف ابن جبير حرص أمراء الدويلات الصليبية وجيرانهم حكام الاقاليم العربية على انتعاش الحركة التجارية بقوله: " ٠٠٠ والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ،وأهل الحرب مشتغلون

---

(١) ابن الجوزى ،المنتظم ،مجلد ٩ ، ص٧٠، ابن الاثير ،الكامل ،مجلد ١٠،ص ٢١١ـ٢١٢٠

(٢) ابن الاثير ،الكامل ،مجلد ١٠،ص ٢١٢٠

(٣) ابن الجوزى ،المنتظم ،مجلد ٩، ٧٢،٦٩ ابن الاثير ،الكامل ،مجلد ١٠،ص ٢١٣٠

(٤) ابن الاثير ،الكامل ،مجلد ١٠،ص ٢١٣٠

(٥) ابن العديم ،زبدة الحلب ،مجلد ٢ ،ص ١٠٤٠

(٦) المصدر نفسه ،ص ٢٨٣ـ٢٨٤٠

(٧) المصدر نفسه ،ص ٢٣١ ، ابن قاضي شهبة ، ٦٣ ـ ٦٤٠

بحريهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب . هذه سيرة اهل البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك . ولا تعترض الرعايا ولا التجار .. (١) وهذا الوصف يمثل الحقيقة الى درجة كبيرة لو تغاضينا عن التعميم الذى اطلقه الرحالة الاندلسي .

والواقع اننا نجد ثمة امثلة لتعرض التجار والمسافرين للعدوان وقد سبق ان اشرنا الى ان احد الذين تولوا امرة منطقة حمص كان يشارك قطاع العراق اسلابهم (٢) وهناك امثلة لتعديات قليلة من جانب الصليبيين ، من ذلك ما ذكره ابن العديم عن مجيء اثنتين وعشرين قطعة بحرية من قبرص هاجمت ميناء اللاذقية سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م حيث نهب المغيرون جميع ما كان للتجار (٣) وما ذكره الامير اسامة بن منقذ ان صاحب عكا الفرنجي نهب مراكب كان فيها اهل اسامة ومتاعه وكتبه التي اسف عليها الشاعر الاديب كثيرا ، وذلك رغم ان نورالدين اخذ عهدا من الامير الفرنجي بعدم التعرض لتلك القافلة (٤) واورد ابن الاثير حادثة مشابهة اذ تعرض الفرنج لسفن كانت فيها بضاعة تخص والده وتجارا كثيرين غيره فنهبوها (٥)

ويمكن ان يضاف الى ذلك اعمال السلب والنهب التي كانت تقوم بها القبائل العربية في جنوب العراق كلما احست بضعف السلطة السلجوقية في تلك الاقاليم (٦) وقد ذكر ابن جبير ان اكثر مدينة الكوفة خراب بسبب هجمات البدو من قبيلة خفاجة عليها (٧) وقد وصف احد الذين زاروا البصرة سنة ٥٣٧ هـ تلك المدينة بانها قد خربت " ولم يبق من اثارها الا الاقل وطمست محالها فلم يبق منها

---

(١) ابن جبير، ص ٢٣٥.
(٢) انظر ما سبق ص ٩٥.
(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ٢، ص ١٣٠.
(٤) اسامة، ص ٣٥.
(٥) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ٤٨٢ — ٤٨٣.
(٦) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٦٣ و ٩٧ و ١٣٤ و ٢١٧ و ٢٢٧ و ٢٣١ و ٢٣٥.
(٧) ابن جبير، ص ١٦٧ — ١٦٨.

الا محال معلومة .. وقد بقي في كل محلة بيوت معدودة وباقي بيوتها اما خراب واما غير مسكونة . وجامعها باق في وسط الخراب .. (١) ويعود السبب في خرابها الى جور الولاة ، وغارات البدو من قبيلة خفاجة . بيد ان اضمحلال المدينة لم يحدث كله في عصر السلاجقة بل انه بدأ منذ ثورة الزنج في القرن الثالث الهجرى (٢)

وفضلا عن هذا فان الصراع بين المتنازعين من السلاجقة ، ثم بين السلاطين والخليفتين المسترشد والراشد كان يتيح الفرصة للجنود الراغبين في السلب والنهب والاعتداء على الاهالي لاشباع نهمهم (٣) ولعل من حسن حظ الاقاليم العربية ان اكثر معارك الصراع على السلطة دارت في المناطق الايرانية كما سبق ان ذكرنا .

اما العيارون فقد اذاقوا التجار والمتمولين ضروبا من التنكيل والرعب كلما شعروا بضعف السلطة الحاكمة ، خاصة في بغداد واخبارهم كثيرة التردد على صفحات الحوليات التاريخية (٤)

ولكن بالرغم من هذه المعوقات التي تعرضت لها الحركة التجارية بشكل جزئي ، فقد كانت التجارة مزدهرة ناشطة ، بل انها حققت توسعا ملحوظا عما كانت عليه قبل عهد السلاجقة ، او قبل بدء الحروب الصليبية بتعبير ادق (٥) وذلك بفضل انفتاح الطريق للاوروبيين على مصراعيه الى شرق البحر الابيض المتوسط ، وبفضل وجود قواعد تجارية اوروبية هامة على تلك الشواطئ ، بجانب حرص الحكام في المنطقة على ترقية التجارة ، كما سبق ان ذكرنا (٦)

---

(١) مجهول ، كتاب صورة الارض لابن جوقل ، ص ٢١٣ ؛ اضاف احد نساخ كتاب ابن حوقل سطورا من عنده وقد ميزت في الطباعة بحروف صغيرة .

(٢) المصدر والصفحة ذاتها .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١١١ و ١٢٤ و ١٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ٧٥ و ٧٨ — ٧٩ و ٨٢ و ٩٢ ومجلد ٩ ، ص ١٠٣ و ١٠٩ و ١١٣ و ١٣٧ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٤٥ و ٦١ و ٨٩ .

(٥) Atiya, p.170.

(٦) انظر ما سبق ص ٤٥ — ٤٦ .

ثالثا : الصناعـــــة

كانت صناعة النسيج من اهم الصناعات المزدهرة في المشرق العربي اثناء الحكم السلجوقي فقد اشتهرت بغداد من ضمن ما اشتهرت به بنسج الاقمشة العتابية ، المصنوعة من الحرير والقطن ، والمنسوبة الى محلة العتابية ، احدى محال بغداد ، التي كانت مركز صناعة هذه الاقمشة (١) وكان السلاطين والملوك يحتفظون في خزائنهم بكميات من هذا النوع من القماش ويعدونه من ضروب المال العظيمة القيمة (٢) وقد ذكر الوزير ابو شجاع في تاريخه ان صمصام الدولة بن بويه عول في سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥ م ، على فرض ضرائب على انتاج المنسوجات الحريرية والقطنية في بغداد ونواحيها وقد تهيأ له ان يضمن هذه الضرائب مليون درهم في السنة (٣) وهذا يدلنا على عظم مقدار ما كانت تنتجه بغداد من الاقمشة ايام البويهيين ، بيد اننا لا نعرف اذا كان الانتاج قد استمر بنفس المستوى في العهد السلجوقي ام لا . ويذكر المقدسي اصنافا من النسيج الذى انتجته بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع ونرجح ان انتاجها استمر في العهد السلجوقي ، فيعدد منها القز والعباداني والازر والعمائم الرفيعة التي عرفت باسم (يكانكي) والمناديل القصرية والبويبية وكانت بلدة النعمانية تنتج ثياب الصوف العسلية (٤)

وقد نوه المقدسي بكثرة الحاكة في مدينة قصر ابن هبيره (٥) وبصناعة الصوف في تكريت (٦) وقد اشتهرت واسط بصناعة الستور الواسطية (٧) وحفظ لنا الرحالة الاندلسي ابن جبير وصفا شيقا للاقمشة الكتانية العراقية التي كانت تصنع منها الخيام والسرادقات والقباب مرقشة باللونين الابيض والاسود (٨) ووصف الكسوات التي كان الخليفة العباسي يبعث بها للكعبة وللفقهاء الائمة بالمسجد

---

(١) ابن جبير، ص ١٨٠ ؛ وانظر ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٨٥ .

(٢) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٣٠ .

(٣) ابو شجاع، ص ١١٧ — ١١٨ .

(٤) المقدسي، ص ١٢٨ .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢١ .

(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٣ و ١٢٨ .

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢٩ .

(٨) ابن جبير، ص ١٢٧ .

الحرام نذكر ان كساء سقف الكعبة كان من الحرير الملون بينما كان ظاهرها مكسوا بستور من الحرير الاخضر وعليها اسم الخليفة العباسي الذى ارسلها (١) وقال ابو عبدالله بن النجار ان الخليفة المستضيء بعث الى الكعبة بـ " ستارة من الابريسم البنفسجي ، عليها الطراز والجامات البيض المرقومة ... فلما ولي الامام الناصر انقذ بستارة اخرى من الابريسم الاسود ، وطرزها وجاماتها من الابريسم الابيض . فلما حجت الجهة ام الخليفة وعادت الى العراق عملت ستارة من الابريسم الاسود ايضا تنفذ بها فعلقت على هذه (٢) ويمكن ان يستنتج من هذه الروايات ان هذا النوع الفخم الثمين من الاقمشة كان يصنع في العراق .

اما الموصل فقد ارتقت وازدهرت في العصر الاتابكي الى درجة لم تبلغها من قبل (٣) وقد نقل صاحب كتاب منهل الاولياء عن سبط بن الجوزى ان عدد خانات الحياكة في الموصل في اواخر العهد الاتابكي بلغ ٩٠٨ خانات وخمسة وسبعين الف جومة . (٤) (نول) .

وكان الوزير جمال الدين المعروف بالجواد ، الذى وزر للاتابكة بالموصل يبعث في كل سنة احمالا كثيرة من القماش على ظهور الجمال لتوزيعها على المحتاجين في الديار الحجازية (٥) وقد شاهد ابن جبير اهل الموصل وهم خارجون لاستقبال زوجة ملكهم العائدة من الديار الحجازية وقد زينوا وجللوا اعناق ابلهم بالحرير الملون (٦) ومن المرجح ان صناعة نسج الصوف والكتان في آمد ، التي تحدث عنها المقدسي (٧) وقد استمرت في العهد السلجوقي كذلك .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .
(٢) نقل ذلك عنه الاستاذ مصطفى جواد ، " عمارات القرن السادس الفخمة ، " سومر ، مجلد ٢ ، عدد ١ ص ٧٠ .
(٣) مجهول ، كتاب صورة الارض ، لابن حوقل ، ص ١٩٥ .
(٤) نقل ذلك عن مخطوطة منهل الاولياء الاستاذ سعيد الديوجي " صناعة الموصل وتجارتها ، " سومر ، ٧ ، عدد ١ ، ص ٩٤ .
(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .
(٧) المقدسي ، ص ١٤٥ .

وكانـت المنسوجات تصنع في مدن بلاد الشام حيث كانت تربى دودة القز ، خاصة حول بيروت وطرابلس (١) وكان الكتان يزرع في سهول فلسطين ومنطقة نابلس (٢) كما كانت الانسجة القطنية والحريرية تصنع في دمشق وحلب (٣) وكان البـز يصنع في طبرية (٤) وكانت تصنع في القدس انواع من القماش تسمى المنيره والبلعيسية منذ اواخر القرن الرابع الهجرى (٥) وقد اشتهرت صور بنوع من النسيج عرف في اوربا باسم Zendado او Cendal (٦)

وبجانب صناعة النسيج ، الصناعة الرئيسيـة ، كانت هناك صناعة الاسلحة والاعتدة الحربية ، وصناعـة السفـن والمراكب المقاتلـة في بغداد (٧) وفضـلا عن ذلـك فقد كانـت السفـن تصنـع في حيفا ايضا (٨) وثمة صناعة خاصـة بالبناء هي صناعة الاجر ، وهو قوالـب الطين المشوية ، وصناعة الجص . وقد كان لهاتيـن الصناعتيـن كثير من الاتاتين في بغداد (٩) والراجح ان هذه الصناعة كانت شائعة في المناطق التي تفتقر الى الحجارة ، ومما يؤيـد ذلك ما ذكره ابن الجوزى من انه نزل في البصرة سنة ٤٨٥ هـ برد كبير رمى " الابراج المبنية بالجص والآجر (١٠) . وقـــد شاهد ابن جبير مع الحجاج العراقيين في الديار المقدسة شمع اضاءة كبير " تنوء الشمعة منه بالعصبة ،

---

(١) Runciman, III, pp. 353 - 354.
(٢) Ibid.
(٣) المقدسي، ص ١٨٠ ـ ١٨١.
(٤) المقدسي، ص ١٨٠.
(٥) المصدر والصفحة ذاتهما .
(٦) Runciman, III, p. 453.
(٧) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٤٧.
(٨) ناصر خسرو، ص ١٨.
(٩) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٢٢.
(١٠) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ٦٣.

كأنه السرو ..." (١) وقد شاهد مثله حول مشهد النبي جرجيس ، قرب الموصل ، (٢) مما يوحي بأن هذا الشمع الضخم كان يصنع في العراق ومنطقة الموصل .

وكان السكر يصدر من موانيء شرق البحر الابيض المتوسط الى اوربا . (٣) وقد ذكر المقدسي ان السكر كان يصنع في صور على الساحل اللبناني ، (٤) كما كان يصنع في بلدة تدعى كابل ، (٥) على الساحل الفلسطيني . (٦) وكانت هذه الصناعة موجودة في منطقة البصرة أيضا . (٧) والذى أرجحه ان المراكز التي كانت تصنع السكر في القرن الرابع ظلت تنتجه اثناء العصر السلجوقي .

ومن الصناعات الهامة صناعة الصابون ، الذى كان يستهلك على نطاق واسع في المشرق العربي الذى اشتهر بكثرة حماماته . (٨) وقد أورد المقدسي ان الصابون كان يصنع في منطقة الجزيرة ، خاصة في الرقة (٩) وبالس (١٠) وكان يصنع في فلسطين . (١١) ونفهم من اشارة أوردها ابن شداد ان الصابون

---

(١) ابن جبير ، ص ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

(٣) Runciman, III, p. 353.

(٤) المقدسي ، ص ١٨٠ .

(٥) لم أعثر على اسم هذه البلدة في كتاب معجم البلدان . وقد أخذت برواية المقدسي لانه فلسطيني وجغرافي دقيق نفترض فيه انه كان يعرف بلاده اكثر مما عرفها غيره .

(٦) المقدسي ، ص ١٦٢ .

(٧) نقل ذلك عن كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي ، آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى ابو ريدة (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م) ، مجلد ٢ ، ص ٢٦١ . وقد حاولت التحقق من وجود هذا السند في كتاب البيهقي ولكن النسخة التي عثرت عليها كانت من طبعة غير تلك التي استعملها متز ، فكان علي حتى أعثر على هذه الاشارة ان أقرأ الكتاب بكل أجزائه .

(٨) الخطيب البغدادى ، مجلد ١ ، ص ١١٨ - ١١٩ ، ابن عساكر ، مجلد ٢/ قسم ١ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ ، ابن شداد ، مجلد ٢ ، قسم ، ص ١٢٨ - ١٣٨ .

(٩) المقدسي ، ص ١٤١ .

(١٠) ابن حوقل ، ص ١٦٥ .

(١١) المقدسي ، ص ١٨٠ .

كان يصنع في حلب ايضا (١) واميل الى الاعتقاد بان مثل هذه المادة الحيوية كانت تصنع في جميع البلاد التي توفر فيها زيت الزيتون بمقادير كبيرة ٠

وكانت هناك صناعة للحصر في عبادان ،جنوبي العراق (٢) وفي طبريه ، بفلسطين (٣) وكان ورق الكتاب ، او الكاغد ، يصنع في كل من دمشق (٤) وطرابلس الشام (٥) وطبريه (٦) وقد اثنى ناصر خسرو على الورق الطرابلسي وقال انه يضاهي السمرقندى ، بل هو احسن منه (٧) وكان الزجاج يصنع في بعض المدن الشامية (٨) خاصة في انطاكية ، وكذلك في صور على الساحل اللبناني (٩) حيث كان يتم انتاج نوع من الزجاج المخروط (١٠) وكانت ثمة مناجم للحديد قرب بيروت ولكن الانتاج لم يكن على الارجح يكفي للتصدير (١١) وكان في دمشق مسبك للحديد واخر للزجاج (١٢) وقد اشتهرت دمشق بمصنوعاتها المعدنيــة التي كانت تصدر الى اوروبا (١٣) وقد وردت اشارة الى مسابك في حلب (١٤) الا اننا لا نعرف ان كانت تنتج الحديد او الزجاج ٠ وكانت الموصل تصنع بعض الادوات الحديدية كالاسطال والسكاكين والنشاب والسلاسل ٠ وكانت الموازين تصنع في حران ونصيبين (١٥) ايضا ٠

وثمة صناعات صغيرة متعددة الاصناف كدبس الخروب الذى كان يصنع في حران (١٦)

---

(١) ابن شداد ، مجلد ١، قسم ١، ص ١٥٢ ،
(٢) المقدسي، ص ١١٨،
(٣) ناصر خسرو، ص ١٧،
(٤) المقدسي، ص ١٨١،
(٥) ناصر خسرو، ص ١٣،
(٦) المقدسي، ص ١٨٠،
(٧) ناصر خسرو، ص ١٣،
(٨) Runciman, III, pp. 353 - 3 54.
(٩) المقدسي، ص ١٨٠،
(١٠) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها،
(١١) Runciman, III, p. 354. ؛ المقدسي، ص ١٨٤،
(١٢) ابن عساكر، المجلد ٢، قسم ١، ص ٥٨ و ٦٢،
(١٣) Runciman, III, p. 355.
(١٤) ابن شداد، مجلد ١، قسم ١، ص ٦٣،
(١٥) المقدسي، ص ١٤٥،
(١٦) المصدر والصفحة ذاتها،

وانحاء فلسطين (١) والدوايات من صناعة نصيبين (٢) وكانت هناك صناعة للجبن والفواكـــه المجففة في اقليم الجزيرة (٣) ومنطقـة دمشق (٤) ونواحي فلسطين (٥) وكانت المرايا والقدور والقناديل والابر والحبال مما تنتجه القدس (٦) وكانت صور تصنع اصنافا من الخرز (٧) ٠ وكان دهن البنفسج يصنع في دمشق (٨) وعرف انتاج معدن الكبريت وغيره في منطقة الاغوار (٩) وفضلا عن ذلك فقد عرفت صناعة طحن الحبوب على الارحاء المائية (١٠) وانتجت غزة انواعا من السروج الجميلـــة المزركشـة (١١) ٠

وهناك بعض صناعات اخرى يبدو انها ، بطبيعتها لم تكن شائعة ، اعني صناعة الالات الفلكية وصناعة الساعات ٠ فقد ذكر ابن خلكان ان هبة الله بن الحسين الملقب بالبديع الاسطرلابي (ت ببغداد ٥٣٤ هـ) كان يصنع الالات الفلكية وكان " متقنا لهذه الصناعة وحصل لله من جهة عملها مال جزيل في خلافة الامام المسترشد ٠٠ " (١٢) وقد وصف لنا ابن جبير ساعة رآها مقامة بدمشـق ، وكان لها " طاق كبير مستدير فيه طبقان صفر قد فتحت ابوابا صغارا على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيـرا هندسيـا ٠ فعند انقضاء ساعـة من النهار تسقط صنجتـان من صفـر

---

(١) المقدسي ، ص ١٨٣ ،
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ،
(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها ،
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ ،
(٥) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها ،
(٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ ،
(٧) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها ،
(٨) المصدر نفسه ، ص ١٨١ ،
(٩) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ ،
(١٠) السمعاني ، مجلد ١ ، ص ١٨٠ ؛ وانظر المقدسي ، ص ١٧٥ ايضا ،
(١١) اسامة ، ص ٢٨ ،
(١٢) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ١٠١ ،

من فمي بازيين مصورين من صفر ، قائمين على طاستين من صفر ، تحت كل واحد منهما احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت اخرها . والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب .. وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوى ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر . لا يزال كذلك عند انقضاء كل ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول "(١) اما في الليل فلها طريقة اخرى ، اذ تظهر الطاقات الصغيرة التي انقضت ساعاتها مضاءة بنور احمر (٢)

---

(١) ابن جبير، ص ٢١٨ — ٢١٩.
(٢) المصدر نفسه، والصفحتان ذاتهما.

الفصل السادس

الحياة الفنية

الحيـــاة الفنيـــة

قبل الشـــروع في معالجة هذا الموضوع أود ان اشـــير الى ان دراسة الحياة الفنية تختلف عن دراســة المواضيع السابقة من هذا البحث . فحتى تكــون هذه الدراســة ذات قيمة لا بد ان يتوفر للباحث قدر من الخبرة والتخصص ، فضلا عن ملكة التذوق الفطرى للنواحي الجمالية . ثم ان مثل هذه الدراســة تعتمد بالضرورة — وبالدرجة الاولى — على المصادر غير المكتوبة ، اعني المخلفات الاثريــة الفنية التي تعود الى العصر موضوع الدراســة . اما المصادر التاريخية الادبية فيندر ان يجد الباحث فيها طلبته او أن يروى منها غلته .

وكاتب هذه السطور يفتقر الى الخبرة الفنية ، لذلك لا بد من الاعتماد على الآراء والاحكام التي اصدرها المتخصصون ، او — على الاقل — الاستنارة بها ، وهذا ما عولت على فعله . والمخلفات الاثرية ليست تحت ايدينا ، وهذا يحوجنا الى الاعتماد على المصورات التي تضم صور هذه الآثار ، وتصفها كتابة ، بجانـــب الصور .

ومع كل هذا فمن الحق ان اقول انه لولا ضرورة استكمال هذا الجانب من هذه الدراســة الحضارية ، وعدم ترك هذه الثغرة ، لتركت دراســة هذا الجانب الفني للمتخصصين ، واحجمت عن تناوله .

١ — فن العمارة

نشأ تحت رعاية الحكام السلاجقة طراز من العمارة قائم بذاته ، يمتاز بضخامة الابنية واتساعها وظهورها بمظهر القوة . وفضلا عن ذلك تظهر فيه رســـوم لكائنات حية ، محورة عن صورتها الطبيعية ، انسجاما مع القواعد التي اتسمت بها الفنون الاسلامية عامة . (١)

(١) زكي حسن ، فنون الاسلام (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨) ، ص ٨٦ .

ومن اهم العمائر السلجوقية العمائر الدينية ، كالمساجد والاضرحة وكانت الاضرحة تبنى على شكل ابراج اسطوانية ، وفي بعض الاحيان كان يعمل لها اضلاع وعدة أوجه أو انها كانت تعمل على شكل ابنية ذات قباب . وقد بدأ انتشار هذا النمط من الاضرحة في خراسان ، ثم عم سائر انحاء المشرق الاسلامي . وقد استخدم صناع العصر السلجوقي الاجر في بناء الاضرحة . (١)

وقد عرفت العراق والجزيرة هذا النوع من الابنية الابراج ، التي كان يجعل امام مدخلها — في العادة — رواق صغير ، وما يزال احدها قائما في الموصل ، وهو ضريح الامام يحيى الذى يرجع تاريخه الى سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠ م . (٢)

وقد ظل البناؤون في العراق والجزيره ، اثناء العصر السلجوقي ، مغرمين باسلوب العمائر المتميزة بالايوانات والاعمدة والاكتاف ، وكان تأثرهم بالاساليب السلجوقية التي اتبعت في بلاد الشام واسيا الصغرى وايران قليلا . (٣)

ومن اشهر العمائر التي خلفها العصر السلجوقي الجامع النورى في الموصل ، وهو الجامع الذى بناه نور الدين محمود ، وقيل انه انفق على بنائه مبلغ ستين الف دينار . (٤) ومئذنة هذا الجامع ما زالت قائمة الى الآن ، يناهز علوها خمسين مترا . وهذه المنارة مبنية بالآجر ، وتعتمد على قاعدة مربعة ، وشكلها اسطواني يضيق شيئا فشيئا ، ولها قمة تشبه الخوذة ، وبناؤها غني بزخارفه المعتمدة على تغيير وضع قوالب الآجر . (٥)

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص

(٥) حسن ، فنون ، ص ٩٣ — ٩٤ .

وقد نقل محراب هذا الجامع الى متحف القصر العباسي في بغداد ، وهو ، اى المحرب ، تحفة رائعة الزخرفة والجمال . وقد ابدع النحات في تزيينه ايما ابداع ، وجمع بين الزخارف الشجرية والهندسية والازهار المتشابكة ، وأخرج من ذلك اية فنية خلابة تدهش الابصار (١)

ويظهر انه بدأ في القرن الخامس الهجرى استعمال المقرنصات ، او الدلايات (Stalactites) وهي فتحات معمارية متشابكة تشبه خلايا النحل ، تستخدم لتزيين العمائر وزخرفتها ، او لتحقيق الانتقال التدريجي من سطح الى آخر ، سيما الانتقال من سطح مربع الى سطح دائرى تعلوه القباب . ثم اقبل البناؤون على استخدام هذا الطراز وشغف الناس به ، فغدا من ابرز ما يميز العمارات الاسلامية ، خاصة واجهات المساجد " وفي المآذن ، وتحت القباب ، وفي تيجان الاعمدة ، والسقوف الخشبية ... " (٢)

وقد وصف لنا ابن جبير جامع حلب ، بأنه كان يطوف بصحنه الواسع ابواب يزيد عددها على خمسين بابا ، يستوقف الابصار حسن منظرها . وقد زين منبره بالمقرنصات التي بلغت غاية الجمال ، حتى قال الرحالة الاندلسي انه لم ير " في بلاد الاسلام منبرا على شكله وغرابة صنعته . واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسنا على تلك الصفة الغريبة ، وارتفع كالتاج العظيم فوق المحراب ... " (٣) حتى وصل الى السقف . وقد جعل اعلاه على شكل قوس ، وزين بشرفات خشبية قرنصية ، ورصع كله بالعاج والابنوس ، من المنبر حتى المحراب ، مع ما يصاقبهما من الجدار

---

(١) بشير فرنسيس وناصر النقشبندى ، " المحاريب القديمة في متحف القصر العباسي ببغداد ، " سومر ، مجلد ٧ (١٩٥١ م) ، عدد ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) حسن ، فنون ، ص ١٥٢ .

(٣) ابن جبير ، ص ٢٠٤

القبلي ، من غير ان يظهر بينهما انفصال . "وحسن هذا الجامع اكثر من ان يوصف ." (١)

واشتهر العصر السلجوقي ببناء المدارس واشهرها المدرسة النظامية ببغداد ، التي استغرق بناؤها حوالي ثلاث سنوات واكتملت في ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ . (٢) وقد وصف ابن جبير بعض مدارس العصر السلجوقي وصفا عاما لا يعطي تفاصيل توضح طراز البناء وشكله ، لكنه وصف يدل على غاية الاعجاب والدهشة . (٣) وينبغي ان نشير الى الايوانات التي كانت أحد عناصر بيوت السكن ، ثم أدخلت في بناء المدارس خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وبعد ذلك ادخل الايوان الى بناء المساجد والخانات . وقد انتقلت فكرة البناء ذى الايوانات المربعة من ايران الى انحاء العالم الاسلامي الاخرى ، وكونت فصلا رائعا من تاريخ فن العمارة في العراق والشام . (٤)

٢ — النحت على الحجر والجص :

على اثر فتح السلاجقة للعراق والشام تطورت الزخرفة النحتية في هذين الاقليمين تطورا كبيرا . ولم يزد هذا الفن في العصر العباسي السابق عن ضرب من الزخارف المجردة ، بيد ان العصر السلجوقي شهد انتشار نحت الاشكال الآدمية واشكال الحيوانات . (٥)

---

(١) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٤٩ و ٥٥ .

(٣) ابن جبير ، ص ١٨٣ و ٢٠٤ و ٢٣١ .

(٤) Richard Ettinghausen, " Interaction and Integration In Islamic Art,"Unity and Variety in Muslim Civilisation, Ed.E.Von Grunehaum(Chicago;Univ.of Chicago:Univ.of Chicago Press, 1955), pp.116-117.

(٥) م . س . ديمان ، الفنون الاسلامية ، ترجمة محمد احمد عيسى (القاهرة : دار المعارف ، د . ت) ، ص ٩٩ .

ويؤيد ذلك ما روى عن احد الجصاصين الاتقياء ، وهو الشيخ احمد العلثي (ت ٥٠٣ هـ) ، الذى دخل مرة مع الصناع الى بعض دور السلاطين وهو مكره ، وكانت فيها صور مجسمة ، فلما اختلى بها كسرها . (١) وقد كانت اشكال الحيوانات المجسمة من الكثرة لدرجة انها كانت تباع في الاسواق ايام الاعياد ليلعب بها الاطفال ، وقد استنكر الغزالي ذلك ودعا الى كسرها (٢)

ويوجد على واجهة جامع آمد نقش بديع يرجع تاريخه الى سنة ٤٨٤ هـ ، عهد السلطان ملكشاه بن الب ارسلان ، يتمثل في اشرطة منقوشة بالخط الكوفي ، ذى الاحرف الرشيقة المحلاة بالاوراق ، والتي يتشابك بعضها مع بعض فوق ارضية مورقة دقيقة متناسقة . وكثيرا ما اقترنت النقوش المكتشفة في آمد باشكال الحيوانات والطيور . (٣)

وتوجد في متحف القصر العباسي ببغداد بعض قطع مأخوذة من الجامع النورى في الموصل ، منها افريز رخامي ، منزل بالرخام الاسود ، كتب عليه :
" ... قدير . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعلمون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . " (٤) كما توجد جبهة من الجبس مكونة من ثلاث وحدات مزينة بكتابات بالخط الكوفي ، تتعانق مع زخارف أخرى من روائع الفن والجمال الأخاذ ، كتب في الوحدة الوسطى منها : محمد ابو بكر عمر عثمان علي الحسن الحسين رضوان الله عليهم اجمعين . " (٥)

---

(١) ابن ابي يعلى ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٣٠ .
(٢) الغزالي ، الاحياء ، جـ ٢ ، ص ٢٦٦ .
(٣) ديماند ، ص ١٠٠ .
(٤) فرنسيس والنقشبندى " المحاريب القديمة.." ، ص ٢١٥ .
(٥) المصدر والصفحة ذاتهما .

ومن آثار الزخارف الجصية الهامة في الموصل تلك التى وجدت فى داخل قصر بدر الدين لؤلؤ ، وضريح الامام يحيى وضريح الامام عون الدين . ونتبين من الزخارف الجصية التى بداخل القصور وجود عناصر طريفة " من بينها صور اشخاص وطيور مما شاع كثيرا فى فن الموصل. .." (١) وتشابك اشكال الطيور مع الزخرف النباتي تشابكا كليا حتى تصبح جزءاً مكملا له وتظهر ارضية شريط من الاشرطة الكتابية مكسوة بتفريعات نباتية تنتهي برؤوس حيوانات مفترسة ، ويشاهد فن التوريق السلجوقي فى عمائر اسلامية اخرى فى الموصل وسنجار ، وفى بعض الكنائس المسيحية ووجود اشكال رؤوس الحيوانات المفترسة يشير ، على الارجح ،الى ان اصلها من اواسط اسيا ، كما يمكن ان يستنتج من تشابه الزخارف فى المباني الاسلامية والمسيحية ان النحاتين المستخدمين فى عملها كانوا مسيحيين . وقد انتقل اسلوب النحت السلجوقي هذا الى معظم انحاء العراق وسوريا . (٢)

وتتميز زخارف الجص فى قصور السلاجقة بشده بروزها ، وبكثرة مافيها من الرسوم التى تمثل مناظر الصيد ، والاستقبال والطرب . وثمة زخارف سلجوقية رائعة نجدها فى لوحات جصية ثلاث ، بها رسوم آدمية فى اوضاع مختلفة . واكبر هذه اللوحات موجودة ضمن مجموعة Stora ، اما الثانية فيضمها متحف الفنون فى بنسلفانيا ، بينما توجد الثالثة فى متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن . ورغم ان هذه الرسوم الآدمية لا تتسم بالدقة والابداع فان لها طابعا زخرفيا جميلا . (٣)

ونجد فى بقايا باب الطلسم ببغداد نقشا زخرفيا ، يحمل اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله . ويظهر على عقد ذلك الباب نقش زخرفي بارز يعد من احسن النماذج المعروفة لفن النحت السلجوقي . ويمثل هذا النقش الخليفة وهو

---

١) ديماند ،ص ١٠١ .

٢) المصدر والصفحة ذاتهما

٣) حسن ، فنون ، ص ٦٣٤ .

جالس ،وبازائه ،عن يمين وشمال ، تنينان انعقد جسم كل منهما . وتبدو الارضية مكسوة بزخارف التوريق الدقيقة التى تشبه الدنتيلا . ، (١)

ويحدثنا ناصر خسرو عن كثرة ماشاهده من الرخام فى الرملة ،حيث رأى الوانا وانواعا من الرخام الملمع ، منه الابيض والاسود والاحمر والاخضر ،ومن جميع الالوان . وقد لاحظ ان كثيرا من العمائر والبيوت كانت مزينة بالرخام المحلى بالنقوش والزخارف الكثيرة . وكان الصناع يقطعون الرخام بمنشار خاص ، يحركونه فى اتجاه مواز لطول العمود الرخامي لا لعرضه وبذلك يحصلون منه على الواح كالواح الخشب . (٢)

ولدينا وصف مفصل لاثر من اثار فن النقش الرخامي وزخرفته ، ففى سنة ٥٧٦ هـ وجه الخليفة الناصر لدين الله عنايته لتحسين مبنى البيت الحرام فى مكة . وبعد ذلك بخمس سنوات شاهد الرحالة ابن جبير ما انجزه الصناع الذين بعث بهم الخليفة الناصر فوجد ان " دور الجدار رخام كله مجزع بديع الالصاق . . وفى ارتفاع هذا الحجر الرخامي خمسة اشبار ونصف ، وسعته اربعة اشبار ونصف . وداخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كانه ثلثا دائرة . وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع ، فى دور الكف الى دور الدينار الى ما فوق ذلك ، ثم الصق بانتظام بديع . . رائعه الترصيع والتجزيع . . . يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والاشكال الشطرنجية وسواها ، على اختلاف انواعها . . . ما يقيد بصره حسنا ، فكانه يجليه فى ازهار مفروشة مختلفات الالوان الى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسي ، وبداخلها هذه الاشكال الموصوفة . . .
وبازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب ، احدث الصانع فيها من التوريق الدقيق والتشجير والتقضيب ما لا يحدثه الصنع باليدين فى الكاغد قطعا بالجلمين (٣)

---

١) ديماند ،ص ١٠١ — ١٠٢.

٢) ناصر خسرو ،ص ١٩.

٣) ابن جبير ،ص ٥٧ — ٥٨ ، والجلمين : المقص ،مثنى جلم ، اى الشفرة الواحدة.

وفي قبالة الميزاب ، في منتصف الجدار الرخامي رخامة محلاة بنقوش بديعة ، تحف بها طرة مزينة بنقش مكحل ،كتب به : " مما امر بعمله عبد الله وخليفته ابو العباس احمد الناصر لدين الله ... وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة ... " (١)

الحفر على الخشب وزخرفته :

لا تضم المتاحف والمجموعات الفنية الكثير من التحف الخشبية التي ترجع الى العصر السلجوقي ، فهي مازالت فقيرة في هذا النوع من الاثار الفنية . (٢) ومع ذلك فان لدينا بعضا من هذه الاثار يمكن ان تعطينا فكرة عن مدى ما وصل اليه هذا الفن وتضم دار الاثار العربية ببغداد بعضا من هذه التحف الخشبية ، احدها باب نقل من جامع الامام ابراهيم في الموصل ، ويعود تاريخ صنعه سنة ٤٩٨ هـ ، اذ ان الباب نفسه يحمل هذا التاريخ . وقد صنع هذا الباب من خشب التوت ،من مصراعين ، طول كل منهما ١٩٣ سم وعرضه ٤٥ سم . اما زخرفته فمن خمس وحدات مفروكة مربعة الشكل يفصل الوسطى منها عن الاخريات كفسجيان عليهما كتابة ، " فتتالف من ذلك ثلاث حشوات كفاسيجها كلها مكتوبة بالكتابة النسخية البارزة ، وكذلك زوايا الباب الاربع ومنتصف العضاضتين الخارجيتين واسفل العضاضتين الداخليتين . وثبت في حافة المصراع عارضة الباب ، وتزينها اربع عقد زخرفية ، على ابعاد متساوية . " (٣)

كما يوجد في دار الآثار العربية باب آخر جيء به من الجامع الكبير في العمادية بلواء الموصل يحمل تاريخ ٥٤٨ هـ . وينتهي اعلى هذا الباب " بتقفيصة ذات خمسة (نركات) مقصوصة من اعلاها نجمة ذات ستة رؤوس ، ومن اسفلها تنفيخ ينتهي بزوايا مدببة ، ومجموع

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٨.

(٢) حسن ، فنون ،ص ٤٧٨ .

(٣) بشير فرنسيس وناصر النقشبندي ، " الآثار الخشب في دار الاثار العربية ،" سومر ، مجلد ٥ (١٩٤٩ م) : عدد ١ ص ٦١.

سطحها مزخرف كله بالزخرفة العميقة . والكفسيج الاعلى والاسفل للتقفيصة مزخرفة بوحدات متكررة قدامها زهرة الزنبق وخطوطها الخارجية بهيئة حدوة الفرس . ويزين الكفسيج الاوسط فرع نباتي متموج يملأ جميع الفراغات . »(١) وهناك باب جامع النبي جرجيس ، الذى يعود الى اواخر القرن السادس الهجرى ، وتزين سطوح أجزائه زخارف نباتية نافرة متداخلة ، متشابهة التشكيل ، دقيقة الصنعة رائعة الجمال ، مما يجعل ذلك الباب تحفة فنية بديعة . (٢)

ولعل فى هذه الامثلة ما يغنينا عن ايراد وصف قطع اخرى ، وما يمكن القارىء من تصور مدى ما بلغه هذا الفن من رقي

زخرفة الخزف والفخار :

كان استيلا السلاجقة على ايران من اهم الاحداث التى اثرت فى تطور الفن الاسلامي ذلك ان سلاطين السلاجقة كانوا من اكبر رعاة الفنون . وقد ابتكر الخزافون الذين استظلوا برعاية السلاجقة اروع انواع المصنوعات الخزفية . (٣) وقد كان طبيعيا ان تترك هذه النهضة فى فن صناعة الخزف اثرها على هذه الصناعة في ا مناطق الاخرى من السلطنة السلجوقية .

وكانت مدينة الرقة ، على ما يبدو ، اهم مركز لصناعة الخزف في المنطقة العربية السلجوقية . ويمكن ارجاع بعض الآثار الخزفية المنسوبة الى هذه المدينة الى القرن الحادى عشر ، الا ان اكثرها يرجع الى القرن الثاني عشر ، وربما الى الثالث عشر ، بدليل احتوائه

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٨.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦١.

(٣) ديماند ، ص ١٨١.

على نماذج زخرفية من النمط الاتابكي السلجوقي في سوريا والعراق . (١) لذلك يمكن القول انه ازدهر تحت رعاية الاتابكة السلاجقة والامراء الايوبيين في بلاد الجزيرة . (٢)

ومما يمتاز به خزف الرقة طلاوه بلون قصديرى شفاف ادى انطماره في باطن الارض قرونا طويلة الى اكتسابه لون قوس قزح نتيجة للتفاعلات الكيماوية (٣) . وتشتمل آثار الرقة الخزفية على نوع من الخزف ذى البريق المعدني ، من ضمنها اصناف متعددة من الاباريق والمزهريات والسلطانيات والطاسات المختلفة الاحجام . واللون السائد الاستعمال هو البني الداكن ،وهو لون ندر استعماله في المراكز الاخرى لصناعة الخزف وقد زينت اواني الرقة بالزخارف النباتية والكتابات النسخية او الكوفية ، كما نصادف فيها — احيانا رسوم طيور حورت تحويرا كبيرا ، وقد رسمت بالبريق المعدني فوق طلاء شفاف يميل الى الخضرة ، يزيد من بهائه ما يضاف اليه من التلوين باللون الازرق الزهرى في بعض الحالات (٤) ومن القطع النادرة من هذا النوع من الخزف بلاطات من القاشاني ،ذات شكل مربع ، تظهر في وسطها صور حيوانات محورة عن الطبيعة . (٥)

وكان هناك مركزتان لهذه الصناعة في مدينة الرصافة ، الواقعة على مقربة من الرقة ، شمال شرق سوريا . ويشبه خزف الرصافة خزف الرقة في زخارفه بشكل واضح .

---

(١) المصدر نفسه ،ص ١٩٥ .

(٢) حسن ، فنون ،ص ٣٠٨.

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) ديماند ، ص ١٩٦.

(٥) حسن ،فنون ، ص ٣٠٩.

ويوجـد من خزف الرصافـة نوعان : اولهما مزخرف بالبريق المعدني وثانيهما مزخرف بالرسوم ويختلف اللون المستعمل في النوع الاول عن مثيله من خزف الرقة بأن لونه البني الداكن مائـل الى الاحمرار ، او ارجواني . (١)

ويضم متحف برلين بعض قطع البلاط القاشاني المصنوع في بلاد الجزيرة فـي القرنين العاشر والحادي عشـر الميلادي ، يظهر في احداها رسـم جواد يعدو على ارض تزينها فروع نباتية واوراق وازاهـير ، من النمط المالوف في الخزف السلجوقي ذي البريق المعدني وتظهر في قطعتين اخريين رسـوم مختلفة ، اذ نرى رسـمالا سـد وهو يثب ، على ارضيـة من الزخارف النباتيـة ، وفي القطعـة الاخرى صورة طاووس ، او لعلها صورة نعامـة ، على ارضـية مزخرفة بالفروع النباتيـة كذلك ، (٢) وفي متحـف المتربوليتان بنيورك قـدر من الخزف ذي البريق المعدني من منطقـة الجزيرة ، يعود الى القرن الثاني عشر او الثالث عشـر . وتبدو في هذا القدر مميزات الزخرفة ذات البريق المعدني من صناعة الرقـة ، كاستعمال اللون البني . والزخرفة على هذا القدر عبارة عن رسـوم كـتابية بخـط النسخ وفروع نباتيـة مع حلزونـات رسـمها الفنان بالبريـق المعدني على طلاء شـفاف مائل الى الخضـرة (٣) . وهناك صحـون وقدور وقطـع خزفيه اخرى لا يتسـع المجال لذكرها ووصفها (٤) والامثلـة التي ذكرناها كافيـة ضمن حدود بحثـنا .

وتحتفـظ متاحف بغداد ، وبعض المتاحـف العالمية بقطع من الفخـار غير المدهون الذي ازدهرت صناعته في العراق وبلاد الجزيرة في فترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالـث

---

(١) ـ ديماند ، ص ١٩٧ .

(٢) ـ زكي محمد حسن ، اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية (القاهرة : مطبوعات كلية الاداب والعلوم ببغداد ، ١٩٥٦ م) ، ص ٢٤ و ٤١٣ .

(٣) ـ المصدر نفسـه ، ص ٢٥ ، ٤١٣ .

(٤) ـ المصدر نفسـه ، ص ٢٤ ـ ٢٧ .

عشر الميلادى . ويجمع هذا الفخار بين الزخارف المحفورة حفرا وتلك التي تصنع بواسطة قوالب خاصة ، أو التي تضاف الى سطح العجينة اللينة بصبها من قمع ، او بتثبيتها باليـد .(١)

ومن القطع العديدة المحفوظة في المتاحف يوجد اناء على شكل زير ، في متحف برلين . وقوام زخرفة هذا الاناء صور لحيوانات تطير من رقابها عصابة ، " ورسوم جذوع يخرج منها قبل نهايتها العليا التواءان الى اليمين والى اليسـار ، ورسوم خطوط محببـة وأخرى فيها تسـهيم أو خطوط متقاربة ، ورسوم شـرفات في أعلى بدنه ." وواضح ان في زخرفة هذا الانـاء كثير من العناصر المستمدة من الفن الساساني .(٢)

وتوجد في دار الاثار العربية ببغداد ، من ضمن قطع اخرى ، جرة من الفخار غير المدهون ، ذات زخارف بارزة تمثل فيها رسوم نباتية محورة عن الشكل الطبيعي . وترى فيها رسوم بارزة لوجوه بشـرية ورؤوس حيوانات ، وقد ملئت الفجوات بين الاذان ، ووزعت عند الوسط بعض رؤوس الحيوانات.(٣)

وقد تطورت هذه الصناعة في القرنين الحادى عشـر والثاني عشر للميلاد ، وأصبحـت أكـثر جودة وأكـثر اتقانا مما كانت عليه في القرن التاسـع الميلادى .(٤)

التحـف المعدنيـة:

في بداية العصـر الاسلامي اعتمدت زخرفة التحف المعدنية علـى الاقتبـاس مـن الاسـالـيـب السـاسـانيـة .(٥) ومع ظهور الدولة السلجوقية ، بدأ عصـر

---

(١) حسن ، أطلس ، ص ٤١١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ و ٤١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤١٢٣ ـ ٤١٣ .

(٤) ديماند ، ص ١٨١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

من العصور الزاهية فى فن انتاج التحف المعدنية . وقد شهد هذا العصر ، على ايدى الفنانين مبتكرات فى تزيين الاواني الذهبية والفضية والبرونزية باشكال وزخارف جديدة وقد خلفت ايدى // فناني العصر السلجوقي تحفا معدنية محلاة بالمينا ، اكثرها فخامة وروнقا صينية من البرونز ، محفوظة بمتحف انزبروك ، وهي محلاة بزخرفة من المينا ذات الالوان المتعددة . وتظهر فيها صور بشرية ، وصور طيور وحيوانات محصورة ضمن جامات ، يفصل مابينها صور راقصات واشجار نخيل . وتتضمن النقوش الكتابية التى تحملها هذه الصينية اسم ركن الدولة ، داود الارتقي ، حاكم حصن كيفا ، (٥٠١ هـ / ١١٠٨م — ٥٤٠ هـ / ١١٤٥م) (١)

وكانت الاسرة الاتابكية الزنكية بالموصل من اعظم رعاة الفنون والصناعات فى عصرها . وقد وفرت مناجم النحاس الغنية في خابور وارغانة المادة الاولية لصناعة التحف البرونزية والنحاسية فى منطقة الجزيرة وسوريا (٢) . وقد فاقت الاساليب الفنية فى الموصل الاساليب الايرانية رغم انها تأثرت بها (٣) .

ويحتفظ متحف انزبروك بطبق من النحاس المصقول ، صنع للامير داود بن سقمان بين سنتي ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م — ٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م . وتظهر على هذا الطبق صورة فتاة راقصة تماثل حركتها وموقفها وخطوتها ما هو معروف فى النماذج التى عملها فنانو الموصل ، والذى يبدو فيه اثر فن الرسم البيزنطي المعاصر لتلك الفترة (٤)

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

(٣) حسن ، فنون ، ص ٥٤٠ .

(٤) L. A. Mayer, " A Glass Bottle of the Atabak Zanki, " Iraq, VI (1939), pp. 101 - 103.

ومما يحتفظ به متحف الفنون الجميلة بمدينة بوستن صينية من الفضة ذات زخارف محفورة صنعت للسلطان الب ارسلان ، ثاني سلاطين السلاجقة ،وذلك سنة ٤٥٩ هـ /١٠٦٦م • وزخرفة هذه الصينية عبارة عن شريطين كتابيين بخط كوفي مورق جميل فوق ارضية من الزخارف النباتية الدقيقة ونص الكتابة المدونة فى السطر الاول ،فى وسط الصينية : " السلطان عضد الدين " اما الشريط الثاني فموضعه على حافتها ،وقد تضمن هذه العبارة : " تقديما للحضرة الاجل السلطان المعظم الب ارسلان ادام الله ملكه ،امرت به ملكة الزمان ،قبلة اهل العصمة • صنعة حسن القاشاني فى تسع وخمسين واربعماية •" اما بقية الزخرفة التى تزين هذه التحفة فان من بينها طائرين متقابلين فوق مهاد من الزخرف النباتي الدقيق ، كما يظهر عليها حيوانان مجنحان ،على مهاد مماثل للذى عليه الطائران • (١)

ومن التحف الفنية الفريدة التى انتجتها مدرسة الموصل ابريق نحاسي اصفر يحتفظ به المتحف البريطاني ،وهو يمثل غاية ما وصلت اليه مدرسة الموصل من تقدم فى صناعة التكفيت ،ذلك ان كل بوصة من سطحة كفتت بالفضة ،كما كست يد الفنان ارضيته بزخارف ذات اشكال متعرجة ،كانت من الموضوعات التى اغرم بها صانعو التحف المعدنية الموصلية • وقد عمل هذا الابريق فنان يدعى شجاع بن منعة الموصلي ،سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م (٢)

هذا ويوجد فى كثير من المتاحف عدد كبير من التحف المعدنية التى ابدعتها ايدى فناني العصر السلجوقي ، تنطق كلها بذوق رفيع وفن بديع • وهي تختلف بين اباريق ذات اشكال متنوعة ،ومباخر واوان وصوان وشمعدانات وعلب واقراط ذهبية • (٣)

زخرفة المنسوجات :

أهلت مع بداية العصر السلجوقي نهضة شاملة فى صناعة النسيج ، وذلك بتاثير الاساليب الفنية التى جاءت مع السلاجقة من آسيا الوسطى واطراف الصين ، والتى تتميز

---

(١) حسن ،اطلس ،ص ١٥٠ و ٤٥٦.

(٢) ديماند ؛ص ١٥٢ •

(٣) حسن ، اطلس ،ص ١٥٠ — ١٥٩ و ٤٥٦ — ٤٥٨.

بدقة رسومها النباتية والحيوانية • وثمة عامل آخر ساهم في قيام هذه النهضة ، وهو الاساليب الفنية التي ازدهرت في بلاد الجزيرة ، حيث استخدمت الفروع النباتية والاشرطة بدلا من موضوعات الزخرفة الساسانية • (١)

وقد احتفظت صناعة النسيج في بلاد الجزيرة ، ابان العصر السلجوقي ، بالنهضة التي كانت عرفتها اثناء القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجرى • وكانت منسوجات الجزيرة لاتختلف اختلافا ذا بال عما عرفته ايران في ذلك العصر ، اذ تحررت زخارفها من الجفاف والعنف اللذين عرفت بهما الاساليب الفنية الساسانية ، وقد تميزت بالجمال الزخرفي الذى يتجلى في تناسق الرسوم واستخدام الزخارف الكتابية • (٢) وامتزجت فيها التعابير النباتية ذات الاصل الاسلامي بتفريعات السيقان والمراوح النخيلية وتضاءلت آثار الاسلوب الساساني تدريجيا • (٣) وفي الامكان تقسيم النسيج السلجوقي الى عدة مجموعات ، وهو تقسيم مرتبط بتطورها مع مضى الزمن • فانتاج القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وثيق الصلة بالاسلوب الايراني الذى ساد بين القرنين الثامن والعاشر للميلاد (الثاني والرابع للهجرة) • بيد ان رسوم وزخارف المنسوجات السلجوقية تطورت حتى غدت ذات اسلوب سلجوقي خالص ، يمتاز بروعة الاشكال ورشاقتها وسلاسة خطوطها • (٤)

وتتضح هذه المميزات في القطع الحريرية التى يحتفظ بها متحف المتروبوليتان ، وهي مزينة برسوم حيوانات وزخارف نباتية استعمل فيها اللونان البني والبرتقالي ، كما تتجلى هذه المميزات في كثير من القطع التى تتوزعها المجموعات الاميركية والاوربية والتى يعود اكثرها الى القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادى) بينما يعود بعضها الى القرن الذى يليه • (٥)

وتحتفظ كاتدرائية ليون باسبانيا بقطعة من النسيج الحريرى صنعت في بغداد في القرن العاشر او الحادى عشر (الرابع او الخامس للهجرة) • وزخارف تلك القطعة عبارة عن دوائر كبيرة بداخلها رسوم لفيلة متقابلة ، تعلوها اسود متدابرة ، وفوق الاسود عدد من الطيور • وتظهر فيما

---

(١) حسن ، فنون ، ص ٣٧٤ •

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦ •

(٣) ديماند ، ص ٢٦٢ •

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ •

بين الدوائر رسوم الطيور واوراق نباتية وانصاف مراوح نخيلية . وتتكون الدوائر من شريط عليه كتابة بخط كوفي ،نقرا فيها : " مما عمل ببغداد " و " ابو نصر " و " البركة من الله ، " (١) ويظهر في زخرفة هذه القطعة اثر الاسلوب الايراني ، وقد رجح الاستاذ ديماند انها من انتاج القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . (٢)

ويحتفظ متحف المتروبوليتان بقطعة من نسيج حريرى يرجح انها صنعت فى سوريا اوائل القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) ، وقد استعمل فى رسم زخارفها لون برتقالي على مهاد اخضر . وتمثل الزخارف ازواجا من الطيور والعقبان داخل تجاويف اشرطة متعرجة . وتفصل بين العقبان والطيور اشجار نخيل من النوع المألوف فى منسوجات ايران فى العصر السلجوقي (٣) .

وقد وصف لنا ابن جبير جمال زخرفة المنسوجات التى صنعت منها سرادقات امير الحج العراقي ومضاربه ذات القباب والممرات والدهاليز . وقد ذكر ان تلك الانسجة كانت من الكتان ، مزخرفة باللونين الابيض والاسود ، " ملونة كانها ازاهير الرياض ، وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الاربعة كلها اشكال درقية من ذلك السواد المنزل فى البياض ،يستشعر الناظر اليها مهابة ..." (٤)

اما كسوة الكعبة التى جاءت من بغداد فكانت من سندس اخضر ،مزينة فى الجزء العلوى منها برسم احمر ،ومحلاة بكتابات تتضمن البسملة وآية قرانية ،واسم الخليفة متبوعا ببعض الادعية له ، وتحف بذلك " طرتان حمراوان ، بدوائر صغار بيض ، فيها رسم بخط رقيق ، يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة .. كانها عروس جليت فى السندس الاخضر ..." (٥)

---

(١) حسن ،اطلس ،ص ١٩٠ و ٤٧٠ .

(٢) ديماند ،ص ٢٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٤) ابن جبير ، ص ١٣٧.

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .

الخط العربي وزخرفـته :

اتاحت حروف الابجدية العربية للفنانين نوافذ رحبة لاخراج نتاج مواهبهم الفنية عـن طريق الاستفادة من انحناءات الحروف وامتداداتها الراسية والافقية وزواياها . (١) وقد تركز هذا الفن في بداية الامر على الخط الكوفي الذى تطور دقة ورشـاقة وجمالا وزخرفة الى ان بلغ ذروة تألقة في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ومنذ القرن السادس الهجرى بدأ الخطاطون في الانصراف عن كتابة المصاحف بالخط الكوفي ، الذى يتسم بالصرامـة والاشكال الهندسية وكتبوها بخطوط اكثر لينا وسلاسـة ،كالنسخي والثلث وغيرها من ضروب الخط المعروفة . وقد اعـتنى الخطاطون بتجويد كتابة دواوين الشعر ،بجانب عنايتهم بالقرآن ،بطبيعة الحال . (٢)

وتقدم المخلفات الاثرية للباحـثين نماذج رائعة من كتابة الخط العربي الذى ابتدع منه الفنانون آيات جمالية اخاذة ،نحتوها فى الرخام والجبس ،وحفروها فى الخشب والمعادن ، واحاطوها بالتوريقات والزخارف النباتيـة والهندسية ،وانهوا رؤوس الاحرف ـ كما في بعض الحالات باوراق او صور حيوانات او اشـكال اخرى توحى كلها بذوق فني رفيع (٣)

وقد حفظت لنا كتب التراجم اسماء عدد كبير من الرجال ، وعدد اقل من النســاء الذين تخصصوا في كتابة الخط باسلوب فني جميل ،او كان الخط واحدا من تخصصاتهم المتعددة وقد ظهر عدد من الخطاطين الذين طبقت شهرتهم الافاق ،واصبحت اساليبهم تحتذى ويميز الخط بها ،اى انهم كونوا مدارس في هذا الفن . واشهر هؤلاء ابن مقلة (ت ٣٢٨ هـ) وابن البواب (ت ٤١٣ هـ) وابن العديم (ت ٦٦٠ هـ) (٤) وليس ادل على مدى تقدير العرب لفـن الخط من قول خطاط شاعر :

" ما اخترت الا اشرف الرتب	خطا أخلد منه في الكـتب
والخط كالمرآة ننـظرهـا	فنرى محاسن صورة الادب

---

(١) غاستون فييت ، " اصول الجمال في الفن الاسلامي ، " المشرق ٣٤ (١٩٣٦) ،ص ٤٩٢ـ٤٩٣

(٢) حسن ،فنون ، ١٥٦

(٣) فرنسيس والنقشـبندى ، " الاثار الخشب .. " ص ٥٨ـ ٦٠ ،و " المحاريب القديمـة .. " ص ٢١٥ ـ ٢١٩ ، وحسـن ،اطلس ... ،ص ١٥٠ و ٤٥٦ .

(٤) انظـر ابن خلكـان ، مجلـد ٣ ، ص ٢٨ـ٣٠ ومجلد ٤،ص ١٩٨ـ٢٠٢، ياقوت ،معجم الادباء ،مجلد ١٦،ص ١٦ـ١٧ .

مازلت انفق فيه من ذهب   حتى جرى فكتبت بالذهب ." (١)

وعند ما توفى الخطاط عمر بن الحسن ، سنة ٥٥٢ هـ كان من ضمن ما بيع في تركته آلة الكتابة . وقد زاد ثمن بيع آلة الكتابة على تسعماية دينار امامية ، فقد بيعت الدواة وحدها بتسعمائة دينار ، بينما كان الباقي ثمن سكاكين واقلام ومراكر وغيرها .(٢)
وقد مر معنا ان فاطمه بنت الاقرع ، الخطاطة ، كتبت ورقة العميد الملك ابي نصر الكندري وزير طغرليك ، فاعطاها الف دينار . (٣)

---

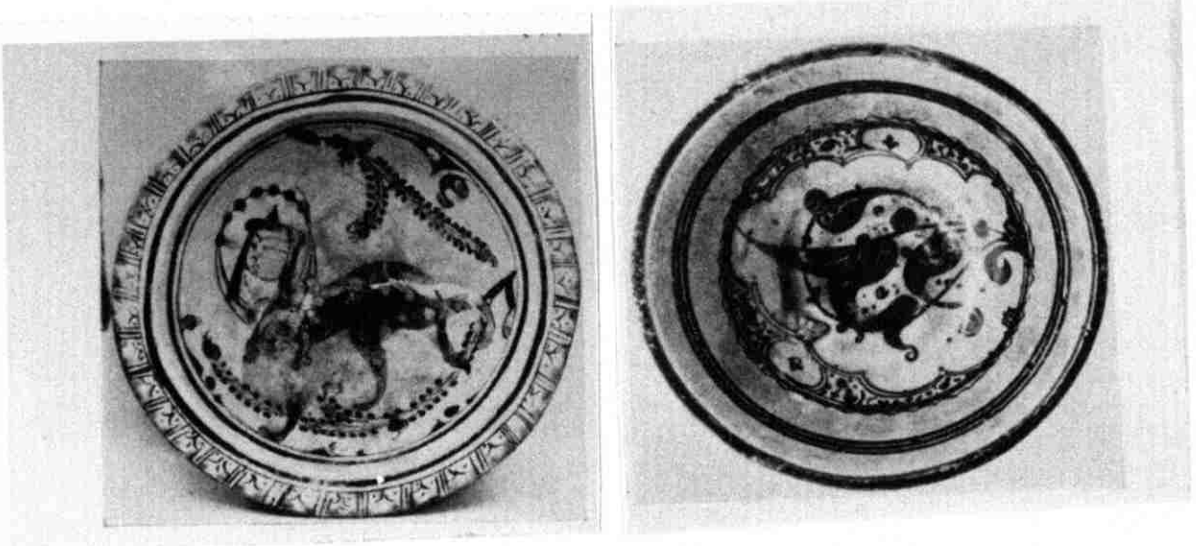
(١) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ١٦ — ١٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .
(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٠ ، ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ص ١٧٢ ، وانظر ما سبق ، ص ١٩٢ .



قدر من الخزف ذى البريق المعدني من انتاج مدينة الرقة في العهد السلجوقي محفوظ بمتحف المتربوليتان .(١)

---

(١) حسن ، أطلس ، ص ٢٥ و ٤١٣ .



سلطانيتان من الخزف ذى البريق المعدني من انتاج مدينه الرقـة
في القرن الثاني عشر او الثالث عشر للميلاد (السادس او السابع للهجـرة) - (١)

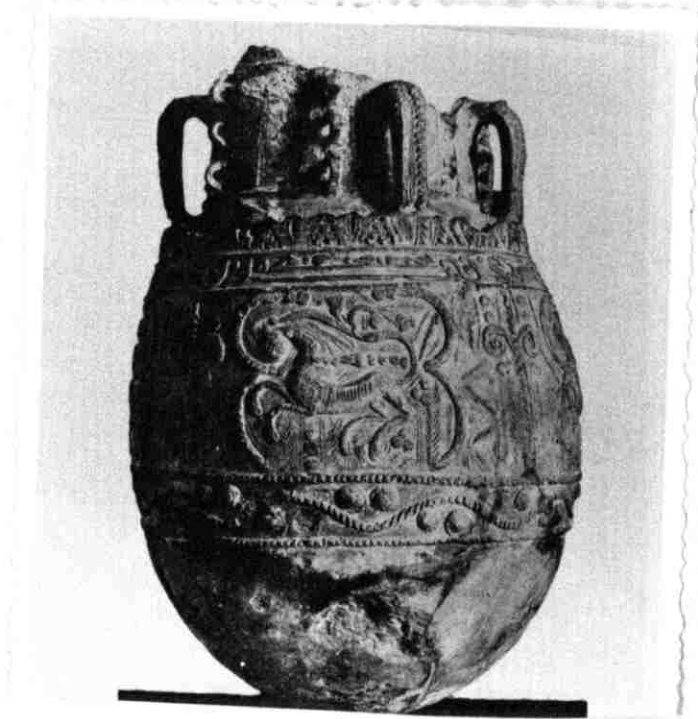
(١) ديماند ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .



جزء من اناء فخارى غير مدهون ذات زخارف بارزة ، من انتاج العراق في العصر السلجوقي ، محفوظ في متحف القصر العباسي ببغداد .(١)

---

(١) حسن ، أطلس ، ص ٢٠ و ٤١٢ .



اناء فخاري غير مدهون ذو زخارف بارزة ، من انتاج العراق في العهد السلجوقي ، محفوظ في متحف برلــين .(١)

---

(١) حسن ، أطلس ، ص ٢٠ و ٤١١ .

الفصل السابع

محاولة لتقويم الحضارة العربية في العهد السلجوقي

تقويم الحضارة العربيـــــة
فى العهد السلجوقـــــي

آن لنا بعد وصف اهم جوانب الحضارة ان نحاول ابداء رأى تقويمي ، واصدار الحكم فيما اذا كنا نعتبرها متقدمة ام متقهقـرة ٠

واعتقد انه لابد من وضوح معيار للتقويم حتى يصبح فى الامكان اصدار احكام عامة على حضارة هذه الفترة من تاريخ امتنا على اساسه ٠ ولكي نصل الى هذا المعيار يلزم ان يكون مدلول هذه الكلمة الاصطلاحية " الحضارة " واضحا فى اذهاننا ٠ ولسـنا نريد ان نتكلف استعراض آراء العلماء والباحثين فى تحديد مفهوماتهم المتعددة لمدلول هذه الكلمة (١) ، بل سنكتفي بعرض المفهـــوم الذى نتبناه ونعتقده ٠

ان اولى خطوات الانسان فى طريق التحـضر تتمثل فى تدرجه نحو الانتقال من حـالـة الخضوع لموءثرات البيئة الطبيعية الى حـالة السيطرة على هذه البيئة وتسخـيرها لمصلحـته ٠

ويصاحب هذه الخطوة او يتلوها تدرج الانسان نحو الانتقال من حالة الخضوع للدوافـع الحيوانيـة السليقية والتحرك تحت وطأتها ، الى حالة تنظيم هذه الدوافع وتوجيهها والسيطرة عليها ، بشكل يسـاعد على قيام نوع من التنظيم الاجتماعي والتنسيق بين نشاطات الافراد لاعطائها صفة التعاون والتكامـل ٠

ومع تقدم الجماعة البشـرية فى هذين المجالين وحصولها على رصـيد من الخـبرات والتجـارب فى ميدان الحياة الاجتماعية ،وتوفر المطالب الحياتيـة الاساسية للفرد ،بجانب قدر مـن

---

(١) لقد قام الاستاذ قسطنطين زريق بدراسة من هذا القبيل ،ربما كانت اول دراسة من نوعها فى اللغة العربية ،فى حدود ما اعلم ٠ انظر : قسطنطين زريق ،في معركة الحضارة ،دراسة في ماهية الحضارة واحوالها وفي الواقع الحضاري (بيروت : دار العلم للملايين ١٩٦٤م) ، ص ٢٧ ـ ٣٨ ٠

الاستقرار في ظل التنظيم الاجتماعي تتاح للانسان فرص للتامل والتفكير ،في الكون والطبيعة وعلاقة الانسان بهما ،وفى اسس العلاقات الانسانيه • ومن هنا تنشأ الفلسفات والقيم الاخلاقية والاجتماعية

ومقدار تقدم الانسان فى هذا المجال تتطور اساليب تعبيره عن احساسه بالالم واحساسه بالسعاده واحساسه بالجمال ،ومن هنا تنشأ الفنون بمختلف فروعها ،وتنشأ ضروب من القيم الجمالية

وعندما تقوم الحضارة على النحو الذى ذكرنا ،فقد تستمر في النمو والتقدم وقد تقف وتتجمد عند حد تضعف عن تجاوزه ،وربما اقتحمت ارضها حضارة اخرى فتغلغلت • (١) فى كيانها واذابتها وامتصتها •

واهم العوامل المساعدة على استمرار نمو الحضارة وتقدمها ،فى راى الباحث الحالي ، هو الجهود الطوعية المشتركة المتعاونة فى سبيل تحقيق التقدم والنمو ،هو قدرة الانسان على السيطرة على نفسه ،وكبحه جماح النوازع الحيوانية اللاعقلانية فى داخله ،وقدرته على تنظيمها بشكل يتيح الفرصة لانطلاق طاقات افراد الجماعة على نحو متناسق متكامل • والشرط الاساسي للوصول الى هذه الغاية هو توفر الحرية التى لاتستمر المشاركة الواعية والطوعية الا فى ظلها •

وكما ان انتقال الانسان من البدائية الى التحضر يكون — فى احدى صوره — باتساع نطاق شعوره عن دائرته الذاتيه الفردية ليشمل الجماعة التى يعيش بين ظهرانيها ويشاركها الحياة فان من عناصر التقدم والنمو الحضارى ومظاهره ان تستمر دائرة الشعور هذه فى التوسع ،فلا تنحصر فى دائرة الاسرة والاقارب والاصدقاء والحي والمدينة والشعب والامة ،بل تشمل البشر جميعا • (٢)

ومن خلال هذه العجالة نستطيع ان نوجز المعايير التى تقاس بها درجة نمو الحضارة وتقدمها بمايلي :

---

(١) ليس المقصود هنا هو الاقتحام او التغلغل العسكرى •

(٢) لقد استفدت فى تكوين مفهومي للحضارة من كتاب الاستاذ زريق ،فى معركة الحضارة ، بالدرجة الاولى ،كما استفدت من بعض الكتب الاخرى بدرجة اقل ،وسادرج تلك الكتب فى قائمة المصادر والمراجع • على ان هذه الاستفادة لم تكن مجرد نقل ،بل هي تقبل طائفة من الآراء واستيعابها وتمثيلها • ولذلك لا ازعم ان هذه الصيغة تمثل راى احد من الباحثين ،وان تضمنت عناصر منه ، قلت اوكثرت •

١ــ مقدار الترابط والتعاون الحر بين افراد المجتمع في مساعيهم لتحقيق الاهداف والمصالح المشتركة ،وهذا يشمل النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادى .

٢ــ مدى نجاح الانسان في السيطرة على البيئة الطبيعية وتسخيرها لمصلحته ،وهذا يشمل المنجزات المادية من صناعية وانشائية وزراعية .

٣ــ المنجزات العقلية والفنية وما تنطوى عليه من قيم ومثل .

٤ــ موقف الحضارة من غيرها من الحضارات ،وممن هم خارج دائرتها من الجماعات البشرية وما اذا كان وديا او عدوانيا .

٥ــ مركز الحضارة ومستواها بالنسبة للحضارات السابقة واللاحقة والمعاصرة ، ومقدار تاثيرها بتلك الحضارات او ببعضها ، ومقدار ما قطعته في سبل التقدم التى عددناها ،بالنسبة لما قطعه غيرها .

نستطيع ان نؤكد ــ في ضوء المعايير التى حددناها لتونا ــ ان الحضارة العربية في ظل الحكم السلجوقي كانت في حالة ضعف وتقهقر .

ذلك ان الترابط بين الافراد والجماعات والشعور بوجود الكيان الواحد ،والجهود المشتركة لتحقيق الاهداف العامة ،كانت كلها شبه معدومة في تلك الفترة . فمن ناحية المنتمين الى الطبقة الحاكمة نجد ان العلاقات بينهم علاقات صراع عنيف في سبيل تحقيق المطامع الفردية التى لم تعد المناصب والاموال . ولقد كان الصراع على اشده بين افراد الاسرة الواحدة ،بل وبين الاخوة ويتضح هذا الوضع بشكل جلي في تاريخ سلاطين السلاجقة وصراعاتهم (١) اما بالنسبة للخلافة فقد كان الصراع قليلا ،اذ لانسمع الا عن تمرد اخي الخليفة المسترشد وخروجه عليه ،الى ان تمكن الخليفة من اعتقاله . (٢) والارجح ان قلة الصراع هنا تعود الى ضعف الخلافة نفسها وعريها ــ في معظم الفترة ــ من اية سلطات حقيقية ،وهيمنة السلاطين على شؤون الحكم والادارة ــ والاقتصاد جميعا .

(١) انظر الفصل المتعلق بالسلطنة ،ص ٣٩ــ٤٥ فيما سبق

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ،ص ١٩٨ و ٢٠٤ ــ ٢٠٦ .

فاذا تفحصنا علاقات المحكومين بالحكام ،وفتشنا عن الروابط التى تشد بعضهم الى بعض وجدناها روابط قسرية قهرية ،فالخلافة لم تكن المؤسسة التى اقامها المجتمع ، بل كانت كيانا مفروضا من الخارج ،اعنى من خارج الجماعة ،كيانا قام بالوراثة ،على اساس الحق الذى منحه الله لافراد الاسرة العباسية ،(١) دون ان يقوم اكثر الخلفاء بعمل ذى بال من واجبات الحكام .

اما السلطنة ،فهي الاخرى قوة قهرية مستبدة، جاءت من خارج المنطقة العربية وصحيح ان السلاجقة كانوا مسلمين ،وكان يمكن — على ضوء النظرة الاساسية للمعاصرين — ان لا يعتبروا غرباء ،وقد كان هذا هو الواقع فى بعض الاوقات من العهد السلجوقي ،بيد انهم اعتبروا غرباء ،احيانا بسبب خشونتهم ،وما سببوه من تخريب واذى للناس ،(٢) لا يتفق مع المبادىء الدينية التى تعلن الاخوة بين المسلمين وتفرض — فى الوقت نفسه — على الحكام ان يسهروا على راحة الرعية .

فاذا نزلنا الى عامة الناس نبحث عن شعورهم بالكيان الواحد فاننا لا نعثر على مثل هذا الشعور ، بل نجد — بدلا من ذلك — انقسام الناس الى فرق دينية ، وانقسام اهل الفرق الى مذاهب متعددة ، حيث يجعل اهل كل فرقة واهل كل مذهب انهم وحدهم اهل الحق الذين يرضى عنهم الله (٣)

ومن هنا كانت الفتن بين الاحناف من جهة والشافعية من جهة اخرى (٤) ، وبين الحنابلة من جهة والاشعرية والشافعية من جهة اخرى . (٥) ومن جراء هذه الاحقاد

---

(١) كان الخلفاء يعتبرون منصبهم ولاية من الله (انظر ابن الجوزى ،المنتظم ،مجلد ٨ ،ص ١٨٢) وكان المعاصرون ينظرون الى الخلافة نظرة قداسة ،وقد استعمل الوزير ابن جهيز تعبير (مقدسة)، انظر ابن الجوزى ،المنتظم ،مجلد ٨ ص ٢٤٩ .

(٢) اشرنا مرات كثيرة الى الاذى الذى كان يلحقه السلاجقه بالناس ،انظر ص ٦٤ و ٢٤٧.

(٣) الغزالي ،فيصل التفرقة ،ص ١٧٥ ،ابن الجوزى ، المنتظم ،مجلد ٩ ص ٩٠

(٤) ابن خلكان ،مجلد ٤ ،ص ٢٢٢–٢٢٣ ، السبكي ، مجلد ٤ ،ص ٣٠٠

(٥) ابي ابي يعلى ،ج ٢ ،ص ٢٣٩ ،ابن الجوزى ،المنتظم ٨ ،ص ٣١١ ،ومجلد ٩ ،ص ٣–٤ ، ياقوت ،معجم الادباء ،مجلد ١٤ ،ص ٩٧ ومجلد ١٩ ،ص ٤٨ ،ابن خلكان ،مجلد ٢ ،ص ٣٧٧، السبكي ،مجلد ٤ ،ص ٣٤ و ٢٣٤ – ٢٣٦ ،ابن رجب ،مجلد ١ ،ص ٢٦–٢٨ و ٥٨ ، و ٨٨ – ٨٩ و ٢١١ .

الناجمة عن التعصب كانت المعارك تندلع بين السنة والشيعة ، وهي معارك دموية مدمرة لم تكد تخلو من حدوثها سنة من السنوات.[١] وقد تعرض بقايا المعتزلة للاضطهاد المستمر على أيدى الحنابلة ، يظاهرهم في ذلك أصحاب السلطة .[٢] أما الباطنية ، أو الاسماعيلية ، قد برعوا في عمليات الاغتيال التي لا تنقطع أخبارها في الحوليات التأريخية.[٣] وقد اتخذ الباطنية كل أرجاء السلطنة السلجوقية ميدانا لنشاطهم ، فأقاموا لهم قلاعا في بلاد الشام[٤] وخراسان.[٥] وكانوا على درجة كبيرة من القوة . وقد روى ان رئيس دعاتهم كان يجوب البلاد الشامية دون خوف.[٦] وكان بعض المتنفذين من الوزراء يظاهرونهم.[٧] وقد أنزل السنيون ، حكاما وعامة ، ضروبا من التنكيل بالباطنية ، بلغت درجة الابادة والاستئصال في بعض الاحيان.[٨]

أما أهل الذمة فلا نكاد نجد في المصادر ما يشير الى أنهم تعرضوا للتقتيل ، كما أنهم لم يتعرضوا لمثل الاضطهاد والعنف الذى تعرض له الشيعة ، بل انهم لم يتعرضوا لما تعرض له الشافعية والاشاعرة على أيدى خصومهم الحنابلة . وقد توفر لهم مقدار من التسامح

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٧٢ و ٢٣٩ و ٢٣٩–٢٤٠ ومجلد ٩ ، ص ٢٦ و ٣٨ و ٤٧–٤٨ و ٧٧ ، ومجلد ١٠ ، ص ٢٤٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٤٥ و ١٥٧ و ٢٢٦ و ٤٦٩–٤٧٠ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٣٥–٢٣٧ و ٢٤٨–٢٤٩ ومجلد ٩ ، ص ٢٠ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٤–٢٥ و ١٣٢ و ١٧٤–١٧٥ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٢ و ١٤٩ و ٢٣٠ ، ابن عساكر ، ج٣ ، ص ٢٩٦ ، الذهبي ، مجلد ١ ، ص ٥٧ .

(٤) اسامة ، ص ٧٨ – ٧٩ ، ابن جبير ، ص ٢٠٢ و ٢٠٦ و ٢٢٧ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٢ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٢٠ – ١٢٢ .

(٦) ابن القلانسي ، ص ٢١٥ ، ٢٢١ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٩١ ، الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ١٦٨ ، ابن جبير ، ص ٢٠٢ و ٢٢٧ .

والحريـة الدينيـة النسبية . (١) بيد انهم كانوا يتعرضون — من آونـة لاخرى — لنوع مـن الاضطهاد وذلك حين كان يفرض عليهم اللباس الخاص ، او الغيار ،كما كان يعرف فى ذلك العصر (٢) والظاهر انهم كانوا لا يعدمون الوسائل لدفع هذا الاذى ،او التخلص منه ان جل بهم ،وذلك عـن طريق رشـوة الحكام والمتنفذين . (٣)

وغني عن القول ان هذه الاضطهادات التى صيغت حياة الناس بطابعها ادت الـى انقسـام الامة الى جماعات تشعر كل منها بانها غريبة عن غيرها .

ولسـنا نزعم ان شعور الفرد بوجود امة اسلامية — حسب مفهوم العصر — كان معدوما لقد كان موجودا ،الا انه كان ضعـيفا واهيا ،فلم يترك اثرا يذكر ،فى سلوك الناس ومواقفهـم .

فاذا اردنا ان نبحث عن الانتاج العقلي لذلك العهد فاننا نجد عددا ضخما مـن المصنفات ،بيد ان النوع والمستوى هو المقياس وليسـت الكميـة . ونظرة الى مقامات الحريرى ، التى احتفل بها المعاصرون احتفالا كـبيرا تظهر لنا اسـرافا فى التزويق والتنميق ،وخـواء فى المحتوى ولعل بضعة اسـطر من احـدى رسـائله تعطى القارىء فكرة عن نوع الانتاج الذى كان يحظى بتقدير اهل الادب فى ذلك العصـر . " بارشـاد المنشىء انشىء شغفى بالشيخ شمس الشعراء ريش (٤) معاشـه وفشارياتـه (٥) ،واشرق شهابه ،واعشو شـبت شعابه ،يشاكل شغف المنتشـي بالنشوى ، (٦) ، والمرتشى بالرشـوى ،والشـادن (٧) بشـرخ الشـباب ، والعطشـان الى شبم (٨) الشراب ،وشكرى لتجشـمه ومشقته ،وشواهد شفقته يشاكل شكر الناشـد (٩)

---

(١) انظـر ما سبق ،ص ١٩٤—٢٠٠.

(٢) انظر ما سبق ،ص ١٩٩.

(٣) ابن الجوزى ،المنتظم ،مجلد ٩ ،ص ٢٢٨.

(٤) ريش : قوى وزاد .

(٥) الرياش : اللباس الفاخر ،والمقصود طلب الزيادة فى النعيم للمدعو له.

(٦) المنتشـى : السكران ،والنشوى : السـكر.

(٧) الذى بلغ سـن النضج .

(٨) الشبم : البرد.

(٩) الناشد : الطالب .

للمنشد [١] ، والمسترشد للمرشد ، والمتشعر للمبشر ، والمستجيش للجيش المشمر ... [٢]
فالذى اجهد الحريرى نفسه في اظهاره ، فى هذه الرسالة التى عرضنا اسطورا منها هو قدرته على ان يكتب قطعه نثرية تتضمن كل كلمة من كلماتها حرف الشين .

ومما يدل على كلف الناس بهذا اللون من النثر وشيوعه ما ذكره ابن جبير عن موعظة لابن الجوزى ، قدم لهـا مقرئ بآيات من القرآن كان آخر كلماتها كلمة " الناس ، فكانت عظة ابن الجوزى تنتهي كل فقرة من فقراتها بحرف السين . [٣] وقد استعمل الكاتب الاصفهاني النثر المسجوع فى كتابه التاريخ [٤] . بيد ان اكثر مؤرخي العصر ، كابن القلانس وابن عساكر وابي شجاع وابن الجوزى استعملوا فى كتاباتهم النثر المرسل .

والمفكر الذى خرج على معاصريه بجديد هو الامام الغزالي الذى كتب مازجا قوة الفكر وسلاسته وروحانية التصوف وعاطفته . وقد بين عدم قبوله بالايمان الوراثي ، [٥] واستنكر غلو معاصريه الذين كفّر بعضهم بعضا . [٦]

ولكننا نأخذ على الامام الغزالي موقفه من العقل وكتاباته عن علوم الباطن وعلوم الظاهر ، ودعوته الناس الى طريق التصوف .

لم يبدع هذا العصر — اذن — قيما جديدة ، كما انه لم يستطع ، او لم يحاول ، بعث القيم المجمدة ، والمطوية في زوايا النسيان ، فظلت حالة الخمول والركود والغفلة كما كانت فى السابق ، وفشلت كل الهزات فى ايقاظ النيام من سباتهم الذى طال ليلة . وبدلا من التحرك والتفكير شدد اهل العلم على ضرورة التمسك بالنصوص التى ورثوها عن اسلافهم ، واستنكروا اية

---

(١) المنشد : المعطي .

(٢) القاسم بن علي الحريرى البصرى ، شرح مقامات الحريري (بيروت . دار التراث ، ١٩٦٨م) ، ص٦٠٧ — ٦٠٨ . لم يذكر اسم الشارح ، والشروح كلها فى الحواشي . وقد نقلنا تفسير الكلمات الغريبة من الصفحتين ذاتيهما.

(٣) ابن جبير ، ص ١٧٧ — ١٧٨.

(٤) وذلك فى كتاب : تواريخ ال سلجوق ، الذى اختصره البندارى.

(٥) الغزالي ، المنقذ ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(٦) الغزالي ، فيصل التفرقة ، ص ١٣١ — ١٣٣ ، ١٧٥ .
الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ١٨ — ١٩.

محاولة للخروج على هذا النهج . اما الشرور والمصائب التى اعتورت الناس والبلاد ،فكان من السهل تفسيرها بانها غضب من الله ، نظرا لانحراف الكثرين عن التقيد بالاخلاق الدينية .

اما فى ميدان الانتاج الفني فيقال ان قيام الدولة السلجوقية اثر فى الفنون واعطاها طابعا جديدا مميزا ، (١)

وقد ظهرت مدرسة التصوير العراقية فى القرن الثالث عشر الميلادى (٢) (السابع الهجرى) ،اى بعد انقضاء العهد السلجوقي ،غير ان من المرجح ان بذورها قد نمت فى العصر السلجوقي ،اذ من غير المعقول ان تظهر هذه النهضة مستوية على سوقها فجأة ،ودون مقدمات غير اننا لانستطيع الحديث عن مدى ما احرزه فنانو العهد السلجوقي فى خقل الرسم والتصوير بالرغم من ان لدينا دليل على وجود رسم وتصوير وصناعة تماثيل فى ذلك العصر . (٣)

اما فى حقل المنجزات المادية والصناعية فقد شهد هذا العصر جهودا لاصلاح الاحوال الزراعية عن طريق العناية بالانهار وتشجيع الفلاحين على استصلاح الارض الموات ،(٤) واكراههم احيانا على البقاء في الارض ،تحت وطأة ضرائب قاسية ،على ما يبدو . (٥)

كذلك نقرأ عن بناء عدد من المستشفيات ،وخزانات المياه على الطرق الرئيسية ولعل اهم انجاز فى هذا الميدان هو الاكثار من بناء المدارس العالية ،التى تميز بها هذا العصر عما سبقه . (٦) وهناك مثل يتيم ،منقطع ،لكنه يستحق التنويه ،وهو ان الخليفة علم بوجود جماعة من الفقراء يسكنون كويخات حقيرة فى احدى نواحي بغداد ،فأمر بأن تبنى لهم دور يسكنونها ونقلهم اليها . (٧)

---

(١) ديماند ،ص ٩٩ — ١٠٠ و ١٢٥ و ١٨١ و ١٩٥ و ١٩٨ ،حسن ،فنون ،ص ٨٦ .

(٢) ديماند ،ص ٤١ — ٤٤ ،حسن ،فنون ،ص ١٧١ — ١٧٣،

(٣) الغزالي ،الاحياء ، ج ٢ ،ص ٢٩٦ — ٢٩٧.

(٤) انظر ما سبق ،ص ٢٣٠ .

(٥) انظر ما سبق ،ص ٢٣٠ .

(٦) انظر ما سبق ،ص ١٥٩ــ١٦١ .

(٧) ابن الجوزى ،المنتظم ،مجلد ٩ ص ٣٠ .

يضاف الى هذا ان ولاية الموصل ،خاصة ،حققت ازدهارا اقتصاديا وصناعيا وعمرانيا وفنيا لم تكن قد شهدته من قبل • وقد تحدثنا عن ذلك في مواضعه • (١) وكذلك يمكن ان يقال ان حلب ودمشق تمتعتا بحكومة حازمة ساهرة على مصلحة البلاد والرعية في عهد نور الدين محمود •

وقد وقف زنكي ،ومن بعده ابنه نور الدين ،جل جهودهما على تحطيم الغزاة الذين اجتاحوا المنطقة العربية ،وبذلوا جهودا طيبة في سبيل توحيد الشام وبلاد الجزيرة كل ذلك جدير بالتنويه •

ولقد مر معنا كثرة الخانات المقامة في الطرقات لنزول المسافرين ،كما اشرنا الى كثرة الرباطات للمتصوفة من الرجال والنساء • لقد كانت هذه الرباطات في نظر المعاصرين انجازا ايجابيا بناء ،اما في تقدير الباحث الحالي فانها تمثل عملا سلبيا ساعد على حياة الكسل والتعطل ، وحبس كثيرا من الاموال الموقوفة على المتعطلين ،وحرم الحياة العامة منها •

واعتقد ان قيمة هذه الانجازات المادية والصناعية والسياسية بالنسبة لتقويمنا للحضارة ، ليست بالكبيرة ،لانها منجزات اعتمدت على فرد ، يضبط الامور بالارهاب والشدة او بالاغراء ، او بهما معا ، فاذا زال ذلك الفرد تحطمت منجزاته وزالت ، الا اذا واتت الصدفة وخلفه فرد آخر في مثل شخصيته وحزمه ومقدرته • اى ان هذه الانجازات لم تنشأ عن حركة عامة ونمو شامل في بنية الجماعة وتطور في عقليتها ونفسيتها •

فاذا ماحاولنا ان نوازن بين هذه الحضارة وماسبقها وماتلاها في حياة المنطقة التي ندرسها ،فان حكمنا ،لكي يكون علميا ودقيقا ،يجب ان يبني على دراسة شاملة لكل من العهدين السابق واللاحق • وهذا امر متعذر في نطاق هذا البحث •

ولما كانت عملية التقويم تستلزم ابداء الرأى في هذه النقطة المتعلقة بمكان الحضارة العربية في العهد السلجوقي من خط سير الحضارة العربية العام ، منذ قيامها حتى مطلع العصر الحديث ،فاننا سنحاول ابداء راينا • وهو راى وان لم يكن ناتجا عن دراسة مفصلة

---

(١) انظر ماسبق ، ص ٢٣٣ و ٢٣٦ •

الا انه لم ينشأ من فضاء ، بل نشأ نتيجة لدراسة ومعلومات عامة . ولذلك فهو حكم تقريبي لا نجزم بصحته ولا ننفي عنه احتمال الخطأ .

لقد شهد القرنان الثالث والربع للهجرة استفحال التفكك السياسي والتمزق الاجتماعي والفكرى . وظل هذا الانهيار متواصلا ، وبقي الانحدار مستمرا حتى العهد العثماني ، بغض النظر عن بعض فترات الانتعاش القصيرة التي كانت تعتمد على جهود بعض الحكام الافراد الاقوياء وشخصياتهم ثم لا تلبث ان تنهار بزوالهم عن مسرح الاحداث . ومعنى ذلك ان العهد البويهي لا يختلف عن العهد السلجوقي في هذا الجانب من جوانب الحياة المتحضرة .

غير ان القرنين الثالث والرابع شهدا أروع الانجازات العقلية والادبية والفنية التي أنتجتها الحضارة العربية الاسلامية . وعلى هذا فان العصر البويهي يتفوق على العصر السلجوقي في هذه الناحية . بيد ان هذا التفوق لا يعود الى ان السلطة كانت بيد البويهيين لا بيد السلاجقة ، كما انه لم ينتج عن امكانات هذين القرنين السابقين بصفة أساسية . وعندى انه لو كان السلاجقة قد جاءوا الى بغداد سنة ٣٣٤هـ بدلا من البويهيين لما تغيرت النتائج بالنسبة لهذه المنجزات الحضارية الرائعة .

ويبدو لي ان الانتاج المعجب الذى شهده العهد البويهي ، وعهد سيطرة قادة الجيش العباسي كان ثمرة لفترة الاستقرار والازدهار السياسي والاقتصادى النسبي في القرنين الاول والثاني ، تلك الفترة التي تهيأت فيها الفرص لاحتكاك الشعوب بعضها ببعض في ظل السلام والهدوء ، فجرت عمليات الترجمة والنقل والاقتباس والتأثر التلقائي المتبادل ، ووجد الانسان فرصة للتأمل ، وفسحة يحاول فيها تحسين ما لديه ، ويوسع آفاقه . وقد ظلت هذه العوامل تتفاعل وتنمو بعد أن أحاطت بها الفوضى السياسية والاجتماعية حتى نضجت ثمارها وظهرت يانعة في القرنين الثالث والرابع .

وحيث ان ظروف القرنين الاول والثاني لم تتكرر ، ولم تحظ البلاد العربية بما يقارب ما نعمت به فيهما فان ثمارها التي ظهرت في القرنين الثالث والرابع لم تتكرر كذلك . وكانت كل الانتعاشات والمنجزات التالية ، تقريبا ، أضيق نطاقا وأقصر مدى وأقل عمقا .

المصادر والمراجع

المصـادر والمـراجـع

أولا : الاصول :

١ـ اليعـقوبـي ،أحمد بن أبي يعقوب . تاريخ اليعقوبي . مجلدان . بيروت : دار بيروت ودار صادر، ١٩٦٠م.

٢ـ المسعودى ،ابو الحسن علي بن الحسين . التنبيه والاشـراف . بـيروت : دار التراث، ١٩٦٨م.

٣ـ ابن حـوقـل ،ابو القاسـم محمد بن علي . كتاب صورة الارض. بيروت : دار مكتبة الحياة، د.ت.

٤ـ المقدسـي ،ابو عبد الله محمـد بن احمد . أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم. بيروت : مكتبة خياط، د.ت.

٥ـ مسـكويـة ،أحمد بن محمد . كتاب تجارب الامم . بعناية هـ.ف. آمدروز . الجزآن ٥و٦ في مجلد واحد . القاهرة : ١٩١٤م.

٦ـ علوى ، ناصر خسـرو . سـفرنامـه . تر. يحيى الخشاب. القاهرة : مطبوعات معهد اللغات الشرقية،كلية الاداب ،جامعة فؤاد الاول ، ١٩٤٥م.

٧ـ الماوردى ،ابو الحسن علي بن محمد . الاحكام السلطانية والولايات الدينيـة. القاهرة : مكتبـة الحلبي ، ١٩٦٦م.

٨ـ الفراء ،ابو يعلـى محمد بن الحسين . الاحكام السلطانيـة. بعناية محمد حامد الفقي . القاهرة : مكتبة الحلبي ، ١٩٦٦م.

٩ـ القشـيرى ،ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن . الرسالة القشـيرية . تحقيـق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف . القاهرة : دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦م.

١٠ـ الباخـرزى ،ابو الحسن علي بن الحسـن . دميـة القصر وعصـرة أهل العصـر. بعناية محمد راغب الطباخ . حلب : ١٩٣٠م.

١١ـ الغـزالـي ،أبو حامـد محمد بن محمد . فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقـة . تحقيق سليمان دنيا . القاهرة : دار احياء الكتب العربيـــــة ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م .

١٢ـ ـــــ المنقذ من الضـلال . بعناية عبد الحليم محمود . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

١٣ـ ـــــ فضائح الباطنيـة . تحقيق عبد الرحمن بدوى . القاهرة : الـدار القومية للطباعة والنشـر ، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م .

١٤ـ ـــــ احياء علوم الـديـن . ٤ أجزاء في مجلدين . القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، د .ت .

١٥ـ الهـمـدانـي ،محمد بن عبد الملك . تكملـة تأريخ الطـبرى . نشر المجلد الاول فقط . تحقيق البرت يوسف كنعان . بيروت : ١٩٥٩م .

١٦ـ ابن أبـي يعلـى ،ابو الحسين محمد . طـبقـات الحنابلـة . جزآن في مجلد واحد . بعناية حامد الفقي . القاهرة : ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م .

١٧ـ الشـهرستاني ،ابو الفتح محمد عبد الكريم بن ابي بكر احمد . المـلـل والـنحـل . ٣أجزاء في مجلد واحد . القاهرة : مؤسسة الحلبي وشـركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م .

١٨ـ ابن القلانسـي ،ابو يعلى حمـزة . ذيل تأريـخ دمشـق . بـيروت : مطبعـة الاباء اليسوعـيـين ، ١٩٠٨م .

١٩ـ السـمعاني ،عبد الكريم بن محمد بن منصـوو . الانسـاب . ٦ مجلدات . حيدر آباد ،الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م — ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م .

٢٠ـ البيـهقـي ،ظهـير الديـن . تأريخ الحكمـاء . دمشـق : ١٩٤٦م .

٢١- ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن . التأريخ الكبير . اعتنى به وحذف أسانيده عبد القادر بدران . ٧ أجزاء في ٥ مجلدات . دمشق : مطبعة روضة الشام ، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م - ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م .

٢٢- ابن منقذ ، أسامة بن مرشد . كتاب الاعتبار . بعناية فيليب حتي . برنستون : مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠م .

٢٣- ابن عبد الله ، الشيخ عبد الرحمن [الشيزرى ، عبد الرحمن بن نصر] . المنهج المسلوك في سياسة الملوك . القاهرة : المطبعة الظاهرية ، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م .

٢٤- ———— كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة . تحقيق السيد الباز العريني . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م .

٢٥- ابن الجوزى ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي . المنتظم في تأريخ الملوك والامم . نشرت منه ٦ مجلدات (٥ - ١٠) . حيدرآباد ، الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م - ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م .

٢٦- الكاتب الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد . خريدة القصر وجريدة العصر . بعناية شكرى فيصل . ٣ أجزاء . دمشق : ١٩٥٥-١٩٥٩م .

٢٧- ———— تواريخ آل سلجوق ، وهو مشتمل على كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة . اختصرة الشيخ علي بن محمد البندارى الاصفهاني ، وقام على نشره م . ث . هوتسما . ليدن : بريل ، ١٨٨٩م .

٢٨- ابن جبير ، محمد بن أحمد . رحلة ابن جبير ، تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار . بيروت : دار التراث ، ١٩٦٨م .

٢٩- ياقوت الحموى الرومي . معجم الادباء . راجعته وزارة المعارف العمومية . ٢٠ مجلدا . القاهرة : دار المأمون ، د . ت .

٣٠- ———— معجم البلدان . ٥ مجلدات . بيروت : دار بيروت ودار صادر ، ١٩٥٧م .

٣١- ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسن علي . التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية .
تحقيق عبد القادر أحمد طليمات . القاهرة : دار الكتب الحديثة ،
١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م .

٣٢- ________ الكامل في التاريخ . ١٣ مجلدا . بيروت : دار بيروت ودار
صادر ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م - ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

٣٣- ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا . كتاب الفخرى في الاداب السلطانية
والدول الاسلامية . القاهرة : شركة طبع الكتب العربية ، ١٨٩٩م .

٣٤- القفطي ، جمال الدين ابو الحسن علي . انباه الرواة على أنباه النحاة .
٣ مجلدات . القاهرة : ١٩٥٠ - ١٩٥٢م .

٣٥- ________ كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء . بعناية محمد أمين الخانجي .
القاهرة : ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م .

٣٦- سبط بن الجوزى ، ابو محمد يوسف . مرآة الزمان في تاريخ الاعيان . نشر منه المجلد
الثامن فقط . حيدرآباد ، الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ،
وقد سقط تاريخ الطبع من النسخة التي استعملتها .

٣٧- ابن العديم ، كمال الدين عمر . بغية الطلب في تاريخ حلب . ٩ مجلدات .
مصورة عن نسخة بخط المؤلف محفوظة بمكتبة أحمد الثالث باستنبول ، تحت
رقم ٢٩٢٥ .

٣٨- ________ زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق سامي الدهان . مجلدان .
دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١ - ١٩٥٤م .

٣٩- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين ابو العباس أحمد . عيون الانباء في طبقات الاطباء .
بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥م .

٤٠- ابن الساعي ، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب . نساء الخلفاء المسمى جهات
الخلفاء من الحرائر والاماء . القاهرة : دار المعارف ، د.ت.

٤١ـ ابن خلكان ، ابو العباس احمد بن محمد . وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق محيي الدين عبد الحميد . ٦ مجلدات . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩م .

٤٢ـ ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي . الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة . تحقيق سامي الدهان . ٤ مجلدات (جزآن في ٤ أقسام) دمشق : ١٩٥٣ ـ ١٩٦٢م .

٤٣ـ ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق ، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب . تحقيق مصطفى جواد . نشر منه المجلد ٤ في ٣ أقسام كل قسم في جلد واحد . دمشق : د . ت .

٤٤ـ الاربلي ، عبد الرحمن سنبط قنيتو . خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك . بغداد : مكتبة المثنى ، د . ت .

٤٥ـ الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد . المختصر المحتاج اليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ... ابن الدبيثي . تحقيق مصطفى جواد . نشر منه مجلد ١ فقط . بغداد : المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥١م .

٤٦ـ السبكي ، تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن علي . طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي . نشر منه ٤ مجلدات . القاهرة : ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م ـ ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م .

٤٧ـ ابن أبي الوفاء ، ابو محمد عبد القادر . الجواهر المضية في طبقات الحنفية . جزآن في مجلد واحد . حيدر آباد ، الدكن : دائرة المعارف النظامية ، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م .

٤٨ـ ابن رجب ، ابو الفرج عبد الرحمن بن أحمد . الذيل على طبقات الحنابلة . بعناية هنري لاووست وسامي الدهان . نشر منه المجلد الاول . دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١م .

٤٩ـ ابن شاكر الكتبي ، ابو عبد الله محمد . فوات الوفيات . تحقيق محيي الدين عبد الحميد . مجلدان . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١م .

٥٠ـ ابن قاضي شهبة ، بدر الدين ابو الفضل محمود . الكواكب الدرية في السيرة النورية ، وتسمى الدر الثمين في سيرة نور الدين . مصور بالميكروفيلم عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة سوهاج بمصر ، رقم ٢٦٢ تاريخ .

٥١- الشعراني ،ابو المواهب عبد الوهاب بن احمد . الطبقات الكبرى ، المسماة ب لواقح الانوار في طبقات الاخيار . جزآن في مجلد واحد . القاهرة : المطبعة الشرفية ، ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م .

٥٢- ابن طولون ،محمد بن علي . قضاة دمشق ،الثغر البسام في ذكر من ولي الشام . تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٦م .

- - -

ثانيا : المراجع الحديثة : ا - الكتب

١- أمين ،حسين . تاريخ العراق في العصر السلجوقي . بغداد : المكتبة الاهلية، ١٩٦٥م .

٢- حسن ،زكي . فنون الاسلام . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م .

٣- ______ أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية . القاهرة : مطبوعات كلية الاداب والعلوم ببغداد، ١٩٥٦م .

٤- حسنين ،عبد النعيم محمد . سلاجقة ايران والعراق . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩م .

٥- الدورى ،عبد العزيز . دراسات في العصور العباسية المتأخرة . بغداد : شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة ، ١٩٤٥م .

٦- ______ مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربي . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩م .

٧- ديماند ، م . س . الفنون الاسلامية . تر. محمد عيسى . القاهرة : دار المعارف ، د . ت .

٨- الديوه جي ،سعيد . الموصل في العهد الاتابكي . بغداد : ١٩٥٨م .

٩- زريق ،قسطنطين . في معركة الحضارة، دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها في الواقع الحضارى . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٤م .

١٠- زيادة ، نقولا عبدو . الحسبة والمحتسب في الاسلام . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٣م .

١١ـ زيدان ، جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية . ٤ مجلدات.
القاهرة : مطبعة الهلال ، والمجلدات التي اعتمدنا عليها من طبعات مختلفة ،
مجلد ١ سقط تاريخ طبعه ، مجلد ٢ : ١٩٣٠ ، مجلد ٣: ١٩١٣ ، ومجلد ٤:
١٩١٤م.

١٢ـ غب ، هاملتون . دراسات في حضارة الاسلام. تر. احسان عباس وزملائه.
بيروت: دار العلم للملايين ، ١٩٦٤م.

١٣ـ فهد ، بدرى محمد . العامة في بغداد في القرن الخامس الهجرى .
بغداد: ١٩٦٧م.

١٤ـ متز ، آدم. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى . تر. محمد
عبدالهادى ابو ريدة . القاهرة : ١٩٤٠م.

ب ـ المقالات

١ـ زريق ، قسطنطين . " التجارة الاسلامية وأثرها في الحضارة ، " المقتطف ،
مجلد ٨٧ (١٩٣٥م) ، ص ٥٤١ ـ ٥٤٨.

٢ـ فارس ، نبيه أمين (المرحوم) . "حضارة العرب في القرن الثاني عشر ، "
الابحاث ، مجلد ١٧ (١٩٦٤م) ، ص ٤٠٣ ـ ٤٤٧.

٣ـ فرنسيس ، بشير ، والنقشبندى ، ناصر . " المحاريب القديمة في متحف
القصر العباسي ، " سومر ، مجلد ٧ (١٩٥١م) ، ص ٢١١ـ٢٢١.

٤ـ ـــــــ " الاثار الخشب في دار الاثار العربية ، " سومر ،
مجلد ٥ (١٩٤٩م) ، ص ٥٥ـ٦٤.

٥ـ فييت ، غاستون . "أصول الجمال في الفن الاسلامي ، " المشرق ،
مجلد ٣٤ (١٩٣٦م) ، ص ٤٨١ـ٤٨٧.

المراجع باللغة الانكليزية

١ ــ الكتب :

1. Atiya, Aziz S.
Crusade, Commerce and Culture.
Bloomington; Indiana University Press, 1962,

2. Freeman - Grenville, G.S.P.
The Muslim and Christian Calendars.
London: Oxford University Press, 1963.

3. Gibb, H.A.R.
Arabic Literature; and Introduction.
London: Oxford University Press, 1926.

4. Grunebaum, Gustave E. Von (ed.).
Unity and Variety in Muslim Civilization.
Chicago; the University of Chicago Press, 1955.

5. Hourani, George Fadlo.
Arab Seafaring in the Indian Ocean in
Ancient and Early Medieval Times.
Princeton: Princeton University Press, 1951.

6. Lane-People, Stanley.
The Mohammadan Dynasties.
Beirut: Khayats, 1966.

7. Lewis, Bernard.
The Arabs in History.
New York: 1960.

8. Runciman, Steven.
A History of the Crusades. 3 vols.
Cambridge: 1955.

9. Ziadeh, Nicola Abdo.
Urban Life in Syria Under the Early Mamluks.
Beirut: American Press 1953.

ب ـ المقالات :

1. Abdul Latif, Sayyed. "Islam and Social Change."
International Sociological Science Bulletin,
V (1953), pp. 691-697

2. Burckhart, T. "The Spirit of Islamic Art".
Islamic Quarterly.
I. (1954), pp. 212-218.

3. Cahen, C.L. "Ahdath."
Encyclopedia of Islam, 1960.

4. Haskins, C.H. "Arabic Science in Western Europe."
Isis, VII (1925), pp. 478-485

5. Issawi, C. "The Arabs and Islamic Civilization."
Muslim World, XXXVIII (1948), pp. 172-184.

6. Lewis, Bernard, "The Islamic Guilds."
The Economic History Review, VIII
(1937), pp. 20-37.

7. Mayer, L.A. "A Glass Bottle of the Atabak Zanki,"
Iraq VI (1939), pp. 101-103.

8. Smith, H.B. "The Muslim Doctrine of Man,
Its Bearing on Social Policy and Political Theory."
Muslim World. XLIV (1954), pp. 202-214

9. Taeschner, F. "Ayyar," Encyclopedia of Islam, 1960.
"Futuwwa," E.I. 1965.

10. Thomson, W. " The conception of Human Destiny in Islam," Muslim World, XXXV (1945), pp. 281-299.

11. Validuddin, Mir. "Islamic Culture." Islamic Culture, XXXIII (1959), pp. 34-38.

12. Zurayk C.K. "The Essence of Arab Civilization," Middle East Journal. III (1949), pp. 125-139.